

القدس منسى يوحنا



طريق السماء



مكتبة المحبة
LMB

كلمة عن المؤلف

نبح الله نفسه

ولد الفقيه العزيز سنة ١٨٩٩ بناحية هور مركز ملوى من أبوين مسيحيين تقيين كريمي المحدث عريقى النسب. ومات أبوه وهو فى سن الطفولة فعنيت أمه بتربيته تحت رعاية جده الوقور ونظراً لما كانت عليه رحمة الله من الصلاح والورع والحكمة وكرم النفس والبر بالفقراء والمساكين والعطف على الأراامل واليتامى والمجربين فقد تشرب الفقيه منها هذه السجايا الحميدة وترعرع فى كنفها ونما فى أحضان الفضل والتقى وخصه الله فوق ذلك بذكاء حاد وعقل راجح وفكر ثاقب .

وكان حبه لكنيسته الأرثوذكسية غريزة متأصلة فى نفسه وبلغت شدة تعلقه بها أنه ألم بالكثير مما يتلى فيها وهو طالب بالمدارس الابتدائية ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من العمر. ثم دفعته غيرته على تقدم الكنيسة وفنائها على أن يكرس حياته لخدمتها فالتحق بالمدرسة الكليريكية وهو فى السادسة عشرة من عمره بعد تردد حضرة مديرها فى قبوله نظراً لصغر سنه والزعيم بأنه وهو فى هذه السن لا يقوى على تحمل أعباء الدراسة بها ولكن ما ان مرت بضعة شهور على وجوده بالمدرسة المذكورة حتى أصبح موضع إعجاب حضرات مديرها وأساتذتها لما أظهره من النبوغ الفائق واستمر كل سنى الدراسة فيها متفوقاً على أقرانه مضرب المثل بينهم فى نبل الأخلاق وعلو الهمة وقوة الإرادة وشدة العزيمة وإصالة الرأى . ولم يكن يكتفى بما يتلقاه فى المدرسة من الدروس المقررة بل كان يحصل على كل مفيد من الكتب الكنسية ومن مؤلفات العلماء اللاهوتيين والمؤرخين ويدرستها بعناية تامة ، فاتسعت بذلك مداركه وكثرت معلوماته وعظمت ثقافته .

ولما أن تخرج من المدرسة الاكليريكية عين واعاظ لكنيسة ملوى القبطية فقول فيها بادئ ذى بدء مقابلة شاب فى العشرين من عمره ولكن سرعان ما وجد فيه شعبها واعظاً تقياً قديراً، ومعلماً فاضلاً حكيماً . ومرشداً صالحاً أميناً فأحبه جميع أفراد الشعب حباً جماً وأنزلوه أحسن منزلة فى نفوسهم . وان أنسى لا أنسى موقفهم الرائع حينما قرأوا فى احدى الصحف أن الطيب الذكر نياقة مطران المنيا السابق قرر نقله من كنيستهم الى كنيسة سمالوط فلقد ثارت عند ذلك ثائرتهم وقاموا قومة رجل واحد معترضين على نقله وألقوا من بينهم وفدا قابل نياقة المطران فتفضل نياقته وهداً خواطرم بنفيه اشاعة نقله نفيماً باتاً، وأبلغهم أن واعظهم عندما زار كنيسة سمالوط تلبية لدعوة أعضائها تعلق به أهلها وأخذوا يهدون السبيل لتعيينه فى كنيستهم ولكن نياقته لم يوافقهم على ذلك لما يعلمه من شدة محبة شعب ملوى له ودرجة تمسكهم بوجوده بينهم .

وأذكر بهذه المناسبة أن اثنين من أصحاب النياقة المطارنة عرضا عليه الخدمة معها نظير مرتب كبير يفرى ولكنه فضل البقاء بكنيسة ملوى نظراً لما وجدته فى أهلها من المحبة والاخلاص والوفاء غير ناظر الى الماديات لأنه لم يكن يبغي سوى خدمة الكنيسة والعمل على تقدمها .

ولقد رسم كاهنا لكنيسة ملوى فى يناير سنة ١٩٢٥ بناء على تزكية اجماعية من شعبها وكان يوم رسامته يوماً مشهوداً اشترك فى الاحتفال به جميع أهل المدينة على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم وكان الكل يهنئون بعضهم بعضاً .

وكانت حياة الفقيد — نوح الله نفسه — سلسلة جهاد متواصلة الحلقات فانه علاوة على اضطلاعهم بمسئوليات الخدمة بالكنيسة واقتداد الرعية والقيام بالوعظ والتعليم كان يدأب دائماً على الاطلاع والبحث والتأليف والنشر، ولقد تمكن فى غضون تسع سنوات من تأليف خمسة عشر مؤلفاً قيماً من بينها كتاب تاريخ الكنيسة القبطية، هذا فضلاً عما كان ينشره فى الصحف والمجلات من البحوث الروحية والأدبية وعن تحمله أعباء ادارة وتحرير مجلة الفردوس .

ولقد برز الفقيد أبان الحركة الوطنية فكان خطيب ملوى الذى يشار اليه

بالبنان يدعو دائماً الى الاتحاد والاخاء والجهاد فى سبيل اسعاد الوطن العزيز.

واليه يرجع الكثير من الفضل فى حل أهالى ملوى على الاكتفاء. باقامة المآثم لمدة ثلاثة أيام وكان من عادة البعض اقامتها لمدة أسبوع والبعض الآخر لمدة خمسة عشر يوماً.

وظل الفقيد مع ما كان يقوم به من الخدمات العامة السالفة الذكر نشطاً فى خدمة الكنيسة عاملاً قوياً فى سبيل نهضتها وقد ألف اتحاداً من حضرات زملائه قساوسة ووعاظ كنائس المجاورة وأخذ يعمل معهم على . انعاش هذه الكنائس باقامة مجامع بها يتبادلون الوعظ فيها وكان لهذه المجامع بعون الله أثرها الفعال .

ومع ما بلغه الفقيد من سمو المكانة فى النفوس بسعة علمه وغزارة فضله وعلو همته فإنه كان بعيداً كل البعد عن الزهو والخيلاء مثلاً للتواضع وانكار الذات .

ولقد حلت به فى سنى حياته القصيرة تجارب متنوعة فتحملها بالصبر مقدماً عنها لله خالص الشكر. جرب فى أبنائه فكان كلما رزق ابنأ اختطفه الموت منه ، وجرب كثيراً فى صحته . ثم فجع فى اليوم الثانى من ديسمبر سنة ١٩٢٨ أى قبل انتقاله الى جوار ربه بعام ونصف عام بوفاة المرحومة والدته العزيزة التى يرجع اليها الفضل فى تربيته وتهذيبه كما فصلنا ، فحسر بوفاتها أعز من فى الوجود إليه وأكثرهم حنواً وعطفاً عليه وكان حزنه عليها شديداً لدرجة أنه كان يصلى بالألحان الحزينة مناجياً روحها الطاهرة وبالرغم من شدة وقع هذه المصائب فى نفسه فإنها لم تنل من عزيمته أو تضعف من مجهوداته الجبارة فى خدمة كنيسته وأمته تلك الخدمة التى كرس حياته لأجلها والتى ظل يؤديها بكل أمانة ونشاط حتى أقعده المرض عنها مرغماً .

وفى يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ تحدث إلى من كانوا فى زيارته للاستفسار عن صحته قائلاً لهم « سأموت الليلة فأرجو أن تصلوا على فى ملوى وتدفنوني فى هور. فكان شأنه فى ذلك شأن غيره من الأبرار القديسين الذين

يشعرون بدنو الأجل وقرب الساعة . وما وافت الساعة الثانية عشرة من مساء اليوم المذكور الا وفاضت روحه الطاهرة الى بارها فلاقى وجه ربه راضياً مرضياً .

وفى ضيحة اليوم السابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٣٠ سرى نعيه بسرعة البرق فى جميع أنحاء ملوى وهور والبلاد المجاورة فاضطربت النفوس وخفقت القلوب وسالت العبرات .

وأقبل القوم على داره ووجوههم واجمة وقلوبهم دامية ، كل يريد أن يلثم يديه متبركاً منه ومودعاً له قبل أن يلف فى كفنه ويدرج فى نعشه . واكتظت شوارع المدينة بالأهلين من جميع الطبقات والمذاهب والملل وظلوا واقفين وكان على رؤوسهم الطير منتظرين ميعاد تشييع جنازته حتى إذا ما أطل عليهم نعشه محمولاً على الأعناق صرخوا صرخة الحزن من الأعماق وتزاحوا حوالبه وخلفه باكين مولولين ، وكان اخواننا المسلمون يتهافتون على حمل نعشه قائلين للمسيحيين « دعونا نقوم بواجب الوفاء له فلقد أخلص فى حياته الود لنا بمثل ما أخلص لكم وخدمنا كما خدمكم وليس حزننا عليه بأخف من حزنكم » وسار موكب جنازته تلازمه الروعة ويجوده الجلال حتى وصل الى الكنيسة القبطية حيث صلى على الفقيد ليفين من الكهنة وأبنة كثير من الخطباء ثم استأنفت الجنازة بعد ذلك سيرها حتى خرج به القوم من ملوى الى مدفنه ببلدة هور، خرجوا به من المدينة التى تفانى فى خدمة كنيستها وفى حب شعبها .

صفقات موسى يوم ذلك الطور
فى كل قلب موجد مخفور

خرجوا به والكل باك حوله
حتى أتوا جدثا كأن ضريحه

وبعد أن ورى الفقيد التراب انصرف الجمع وهم سيكون شبابه الغض ويترحمون عليه ويذكرون فضائله ويعددون مآثره .

ووردت الى عائلته رسائل التعازى من جهات القطر ومن كافة الطوائف وكلها تم عن تقدير مرسلها لعظم الخسارة فى فقدته كما رثاه فى المجالات الدينية كثير من عارفى فضله .

ونكتفى هنا بأن نأتى بنص الكلمة التى نشرها بمجلة اليقظة الغراء جناب
الأب المحترم المتنيح القمص ابراهيم لوقا راعى الكنيسة القبطية بمصر الجديدة :-

«رقد فى الرب فى ليلة ١٧ مايو سنة ١٩٣٠ القس منسى يوحنا راعى كنيسة
ملوى القبطية وهو لا يزال فى ريعان شبابه وزهرة عمره وكان لنعيه رنة حزن عميق
وأسف شديد ليس فى ملوى فقط ولكن فى معظم أنحاء القطر نظراً لما كان عليه
نيح الله نفسه من الصفات الطيبة والامتيازات الخاصة .

لقد كان القس منسى خادماً غيوراً يدأب بلا انقطاع على القيام بمسئوليات
خدمته وكان واعظاً قديراً ممن تفتخر بهم منابر الوعظ والخطابة وكان مؤرخاً ضليعاً
وباحثاً مدققاً وكان مؤلفاً واسع الاطلاع كثير النشر فقد وضع عدة كتب روحية
وتاريخية ولاهوتية علاوة على مجلة (الفردوس) التى ظل يصدرها حتى دعاه الرب
لملاقاته فى عالم الراحة الأبدية .

وكان الراحل الكريم - نيح الله نفسه فى فردوس النعيم - قد شرع فى طبع
كتاب ثمين عنوانه (شمس البر) مع مؤلفات أخرى ولم يمهله القدر حتى يتم طبعها
فكتب قبيل انتقاله بدقائق معدودة خطاباً لأحد أصدقائه الخصوصيين حضرة
الخوارج منصور ميخائيل يوصى فيه بتكليف محرر هذه المجلة باتمام طبع هذه
المؤلفات وأن يخصص دخلها لأحد المشاريع الخيرية وقد شرع محرر هذه المجلة فعلاً
فى اتمام هذا المشروع احتراماً لوصية الراحل العزيز .

ومحرر هذه المجلة يؤمله كل الأمل أن يخط بقلمه نعى هذا الراعى الأمين لما كان
بينها من المودة الأخوية والرابطة القلبية ولكن هكذا شاعت ارادة الرب ، والتسليم
واجب محتوم .

ونحن نسأل الله أن يسكب نعمة الغراء السماوى على قلب جده الشيخ الوقور
وزوجته الفاضلة وأن يمنحهما قوة الصبر والاحتمال . .

وكذلك نأتى بنص كتاب التعزية الذى بعث به السيد الفاضل القس توفيق
جيد سكرتير سنودس النيل :-

حضرة الأخ الفاضل وهبه أفندى

سلام لكم من أب الرأفة واله كل تعزية الذى يعزينا فى كل ضيفتنا حتى نستطيع أن نعزى الذين هم فى كل ضيقة بالتعزية التى نتعزى نحن بها منه :

اليوم فقط وقع بصرى على هذا الخبر المفجع ، فكان وقعه على نفسى وقع الصاعقة . حقاً لقد شعرت اننى أمام خطب جلل وأمام كارثة مدهمة وأمام بلوى محرقة . كيف لا وقد خسرتنا شاباً من أنقى الشبان وأرقاهم علماً وخلقاً . بل خسرتنا عاملاً فى كرم الرب من أفضل العمال وأقواهم فصاحة وكتابة ونطقاً لا بل خسرتنا أخاً وصديقاً هو وليد مسقط رأسنا وقد رفع رأسنا فى مركزنا ومدير يتنا وسائر بلاد قطرنا شمالاً وجنوباً ، غرباً وشرقاً ، فيالها من خسارة فادحة تدمع أمامها العيون وتدمى لها القلوب .

ولكننى أسمع صوتاً يقول : «أجل . لئن كنتم قد خسرتموه ياسكان الفانية فاننا قد ربنا نحن سكان السماء ، فالراحل لم يفقد بل هو موجود وما هو الا قد غير مكانه وياها من مبادلة رابحة أن يبدل العالم السفلى بالعالم العلوى . أرض الشقاء والعناء بساء الراحة والهناء .

وأدى الأضطراب والدموع بجنة الأمن والهجوع . أجساد الأشرار الناقصين بأرواح الأبرار المكملين . نعم فلقد أبلى بلاء حسناً فى معترك الحياة وأنجز فى فترة قصيرة من العمر ما يعجز عن إنجازه الكثيرون فى عمر مديد فاستحق أن ينقل من ميدان الجهاد الى مقر المكافأة والثواب ، ولسان حاله قول الرسول المعبوط «جاهدت الجهاد الحسن . أكملت السعى . حفظت الإيمان . وأخيراً وضع لى إكليل البر» .

فتشجع ياأخى ولا تجزع — أصبر ولا تضجر — أشكر ولا تكفر . والله الذى قال «كأنسان تعزیه أمه هكذا أعزىكم أنا يقول الرب» وهو يعزىكم تعزية مناسبة مع التجربة

لقد جاهد فقيده الكنيسة الشاب جهاد الأبطال ورقده الرب فنال إكليل الحياة .
جعل الله من سيرته العاطرة خير مثال يحتذيه العاملون المخلصون .



دعاء

قال الرب لنشنائيل «الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة
وملائكة الله يصعدون و ينزلون على ابن الانسان».

لأن المسيح لم يدخل الى أقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية بل الى السماء عينها
ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩ : ٢٤).

أيها الآب القدوس يامن تريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق
يقبلون . أتقدم اليك بنفس منسحقة وقلب منكسر طالباً منك أن تجعل هذا الكتاب
طريقاً صالحاً وسبيلاً مستقيماً الى السماء ، وكما سخرت النجم السماوى لكى
يهدى المجوس الى مكان ولادة ملك اليهود ، هكذا اجعل هذا الدليل مرشداً صالحاً
وقائداً أميناً للكثيرين فيأتى بهم ويهديهم الى مخلصهم العظيم ومحبهم الكريم يسوع
المسيح لكى يحتتموا بدمه الطاهر للنجاة من الهلاك الأبدى لأنه لا دينونة على الذين
هم فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح إذ أنه هو النور
الحقيقى وباب السماء والطريق والحق والحياة .

لك معه ومع روحك القدوس المجد من الآن والى الأبد أمين ،

* * *

الفصل الاول

فى الحياة الفانية والحياة الباقية

«لأن ليس لنا هنا مدينة باقية ولكننا نطلب العتيدة» (عب ١٣ : ١٤)

ان السيد المسيح له المجد قد أكد لنا فناء هذه الحياة وزوالها بقول مؤثر واضح صريح أيده بمثل رائع هو أجل عبرة لمن يعتبر، ذلك هو مثل انسان كان قلبه منهمكاً انهماكاً شديداً فى محبة العالم وملذات الحياة فأخذ يرتب حسب ارشاد عقله جميع مصالحه العالمية لمستقبل بعيد المدى كأنه خالد فى الأرض وقادر على أن يفعل ما يشاء ويتمتع بما يريد . وبينما هو مفكر فى هذه الأمور إذا بالحكم الأعلى واقاه وطالبه بالودعة فى ساعة لا ينتظرها قائلاً له «ياغيبى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التى أعدتها لمن تكون» (لو ١٢ : ٢٠).

فما أجهل المرء الذى يظن أن الحياة فى هذا العالم تدوم ، ولا يدرى أن هذه الأرض ليست بدار خلود فلا تلبث فيها قليلاً حتى يخطفنا الموت منها ويردنا الى المكان الذى أخذنا منه .

ان كثيرين يميلون الى الخلود والبقاء فى هذه الدنيا ولكنهم لا يدركون حقيقة حالهم فان نظرة واحدة الى قبور الذين سلفوا ، ولقنة صغيرة الى توابيت الموتى التى تمر بنا فى كل ساعة تكفى لأن تقع قلوب الجميع بأنهم على هذه الأرض سائحون ولا بد يوماً يرحلون منها لأنهم «بنسمة الله يبيدون و بريح أنفه يفتنون» (أى ٤ : ٩).

تطلع بعينيك تشاهد أمماً عديدة وممالك كبيرة بلغت من العظمة أقصاها ومن القوة منتهاها . هذه كلها ستصبح بعد حين فى حكم العدم والنسيان . وقبلها

كانت توجد ممالك أسمى شادت مجدها على أمتن الحصون وأعصى القلاع وأحرزت من السلطة والقوة والجاه ما جعل الكثيرين يضمنون لها الثبات والخلود . ولكن أين هي الآن ؟ لقد تداعت أركانها واندثرت معالمها وأدركها الفناء .

أجل . الممالك تنمو وتسمو ولكنها لا تسمو الا للسقوط ولا تعلق الا للانحطاط . كمن من مرة قرأنا في سجل التاريخ عن قيام ممالك وسقوطها وسمعنا عن تنويع ملوك وموتهم . الزوال هو الجبار القوي الذي يتبع أثر مجد هذه الحياة وقد وصل الى أقاصى العالم وختم كل الأشياء الأرضية بعلامة « الفناء » . أن نبوخذنصر عندما رأى وهو يتمشى على سطح قصره مدينة بابل العظيمة وأسوارها الشاحخة العريضة قال مفتخراً « أليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها لبيت الملك بقوة اقتدارى وجلال مجدى » (دا : ٤ : ٣٠) وكيف لا يفتخر مثله بمدينة كان علو سورها ثلاثمائة وخمسون قدماً . وكان عرضه كافياً لأن تمر عليه ثلاث عربات متجانبة فى صف واحد ؟ ولم لا يتباهى بها ويحسبها دائمة البقاء ؟

كان الرومان يدعون رومة عاصمة مملكتهم « المدينة الخالدة » ولا جناح عليهم فى ذلك لأنهم كانوا يحكمون على الأمور حسب ظواهرها . بيد أن بابل المدينة العظيمة تلاشت ومملكة رومة الواسعة الأطراف بادت : وهكذا ترى كل ممالك العالم تدور جميعها على فلك واحد وتنزل منزلة واحدة وهى النشأة فالنقاء فالوجد فالانحلال فالسقوط فالنقاء .

وما يصح على الجماعات ينطبق على الأفراد أيضاً فليس من ثم حى تراه الآن فى الوجود الا ولأجله نهاية ، ولا يعيش انسان الا ويزول . فقبلك كان قوم من البشر أمثالنا وكانوا يحبون الحياة كما نحبا نحن ، وكان منهم كثيرون يمتلكون القناطير من الذهب وكان منهم أصحاب مراتب عالية وجاه عظيم . ولكن لما انصرم حبل حياتهم لحقوا بمن سبقوهم وضمتمهم الأرض كما ضمت أسلافهم . وقد كان من هؤلاء ملوك ووزراء وعظماء وقواد وأبطال جبابرة دوخوا البلاد بفتوحاتهم وغزواتهم . ولكن أين هم ؟ وأين جيروتهم وقوتهم وصولتهم ؟ لقد داسها الموت

ودكها المتون فكانت كأنها لم تكن كما قال المرتل « أذكر كيف أنا زائل . الى أى باطل خلقت جميع بنى آدم » (مز ٨٩ : ٤٧).

فلا بد أن جميع البشريوتون ويختفى ذكرهم من الدنيا وكل انسان يموت فينسى ويحل غيره فيخلفه من يستولى على عمله وبيته وأراضيه وشرقه وألقابه كما خلف هو غيره ويزول اسمه من أفكار الناس زوال جسده من بيته ومن بين أقربائه كقول أيوب الصديق « كل أيام جهادى أصبر الى أن يأتى بدلى » (أى ١٤ : ١٤).

فناموس الفناء هو عام على كل المخلوقات حتى الكواكب يصيبها السقوط ، وقيل أنه شوهد عن بعد قاص « حرائق هائلة » ولاحظ الفلكيون انحلال عوالم وسقوط دوائر عظيمة كنا نظن أنها تبقى لأمعة الى الأبد . فلا بد أذن أن يفنى جميع الناس رغباً عما يعملون ويجدون فى تخليد اسمهم وذكرهم على الأرض . فقد بنى القدماء أهراماً وحاربوا حروباً كثيرة وإلهم أشار أيوب بقوله « حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيرى الأرض الذين بنوا أهراماً لأنفسهم » (أى ٣ : ١٣ و ١٤) وغيرهم شادوا بيوتاً رفعوا عمادها وأحرزوا لنسلهم شرفاً رفيعاً ومقاماً سامياً فذهبت جميع مساعيهم سدى ولم تأت بالفائدة التى قصدوها وجدوا فى السير للحصول عليها . فقد فنيت أجسادهم وعفت آثارهم ونسيت أسماؤهم واندثر ذكرهم فكأنهم ما كانوا . فالإنسان « كزهر العشب يزول . لأن الشمس أشرفت بالحر فيبست العشب فسقط زهره وفنى جمال منظره » (يع ١ : ١٠ و ١١).

كان الرومانيون يعبدون قياصرتهم ويحسبونهم آلهة فإذا مات أحدهم قالوا أنه ذهب وطلع نجماً فى القبة الزرقاء ولكنك إذا ذهبت الى رومة وتفقدت بقايا تلك المدينة القديمة رأيت أنه قد طلع على خرائب قصور قياصرتها الشوك والحسك . فما أجدد أن يقال أن أسماء الناس مكتوبة على صفحات الماء فهى تمحى سريعاً وتزول من أذهان خلفائهم ولا يبقى لهم ذكر بين الناس رغم ما يفعلون لبقاء أسمائهم وتخليد ذكرهم كما قال الجامعة « ليس ذكر للأولين والآخرين أيضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم » (جا ١ : ١١).

ولكن مع ذلك نجد كثيرين من بنى البشر يظنون أنهم مخلوقون لهذه الأرض وان

هذه الحياة مقرهم ومقامهم ولذا تراهم يجهدون أنفسهم في سبيل الحصول على خيراتها والتمتع بملذاتها ففى «باطنهم أن بيوتهم الى الأبد مساكنهم الى دور فدور» (مز ٤٩ : ١١) غير أن هؤلاء فى ضلال مبين لأن هذه الأرض بالنسبة لينا ليست وطناً لنا بل هى بمثابة طريق أو سبيل للوطن الحقيقى والحياة العتيدة .

قال الرسول بولس «لأننا نعلم أنه ان نقض بيت خيمتنا الأرضى فلنا فى السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد أبدى» (٢ كو ٥ : ١) وبيت خيمتنا الأرضى الذى يشير اليه الرسول يفهم على ثلاثة أنواع أى يقصد به ثلاثة منازل نسكنها ما دمنا فى هذه الحياة ، وهى تحقق لنا الفناء وتؤكد لنا الزوال —

الأول : هذا العالم السفلى العنصرى الذى يشهد لنا عنه الكتاب الألهى بأنه لا بد أن يبيد ويزول بقوله «ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تنزل السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها» (٢ بط ٣ : ١٠) ومن ذلك ينبغى حيث أن أرواحنا غير قابلة للفناء أن نتف مع الرسول قائلين «ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة».

الثانى : منازلنا المادية التى نسكنها والتى مهما بذلنا الجهد فى تحسينها وتزيينها لا بد لنا أن نتركها كما يقول القديس أوغسطينوس «لا تقل أن بيتك هو ملكك لأنك ورثته من أبائك لأن ذلك يدل على أن أبائك قد جاز فيه وتركه ومضى وهكذا أنت تجوز فيه وتركه لأبنك وهو أيضاً يعبر فيه جائزاً ويتركه لغيره».

الثالث : جسدنا هذا المائت القابل للفساد . ليس هو مسكن أرواحنا على حصر الكلام بل هو بمنزلة المظلة كقول الرسول بطرس «عالمناً أن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح» (٢ بط ١ : ١٤) أى أن جسدنا هو مثل الخيام التى يستظل بها المتغربون فى البرارى ولهذا نحن نتنهد من ثقله كما يشهد بذلك الرسول بولس قائلاً «فاننا نحن الذين فى الخيمة نحن مثقلين إذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكنى يتلع المائت من الحياة» (٢ كو ٥ : ٤).

فاذن أين هو منزلك الحقيقى ؟ ليس هو الا اللحد لجسدك والمسكن الأبدى

لروحك . قال الجامعة « فيرجع التراب الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى أعطاهما » (جا ١٢ : ٧) . فلهذا يكون من الجهل العظيم أن يهتم المسافر فى اقتناء أملاك فى احدى المدن التى يعبر عليها وهو يتأكد أنه لا يبقى بها فيجب عليك اذن أيها الانسان أن لاتدع عينيك تنظران الى كل ما تراه فى أرض العبور وان لا تجعل قلبك يتعلق بشئ معاً .

كس من الناس شرعوا فى بناء بيوت ولكن الموت لم يمهلم حتى يتموها وكس من أناس قاسوا التعب الشديد فى بناء البيوت حتى أتموا بناءها ولكنهم لم يسكنوها سوى مدة قصيرة ثم خرجوا منها محمولين على الأعناق دون أن يكون لهم أمل فى الرجوع اليها مرة ثانية . فسيلنا اذن أن نوجه قلوبنا حيث تكون نهايتها لأنه مهما توفرت أسباب الراحة فى الحياة الدنيا فلا بد من تركها لأنها « فانية » ولنحرص جهدنا لكى نبلغ (الباقية) الخالدة . قال سليمان الحكيم « كل الأنهار تجرى الى البحر والبحر ليس يملآن . الى المكان الذى جرت منه الأنهار الى هناك تذهب راجعة » (جا ١ : ٧) فكل شئ بطبيعته يطلب مركزه الأول ويميل اليه ، هكذا ينبغي لنفوسنا أن تحن للسماء وتشتاق للاله لأن السماء مسكنها الأبدى والله مصدرها الذى خرجت منه . قال أحدهم « لودفعت حجراً الى العلا لرأيتته قلقاً مضطرباً لا يهدأ حتى يرجع الى الأرض مركزه ، والسماك لا يعيش خارج الماء لأن هناك غايته . والطير لا يستريح فى قفصه كما لو كان طليقاً حراً وهذه رغبته . والعضو المرضوض لا راحة له إلا إذا عاد الى أصله كما أنه لا هناء للمسافر حتى يبلغ غاية سفره » هكذا عبثاً تقود نفسك الى حيث توجد الملاذ العالمية لترىحها وتشبعها فهى لا تستريح إلا إذا استقرت فى حضن مبدعها . خلق الله كل الأشياء لأجل الانسان وخلق الانسان لأجله وحده ولكن من المؤلم أن نرى كل المخلوقات تتمم الغاية التى لأجلها وجدت أى أن نخدم الانسان وتقوم بمطالبه ولكن الانسان وحده لا يعرف الغاية التى خلق لأجلها ولا يبالي بالاله الذى أوجده .

فاعلم أيها الانسان أن الله لم يخلقك للأرض بل للسماء ، لم يخلقك للفانى بل للباقى وهوذا الرسول يقول « اهتموا بما فوق لا بما على الأرض » (كو ٣ : ٢) فن العبت أن تقضى حياتك هنا فى طلب الفانيات فابعث بأمالك وأشواقك الى الوطن

العلوى واسمع قول المخلص « اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية » (يوحنا : ٦ : ٢٧) لا تشيد أساساتك على الأشياء المنظورة ولا تبني بيوتك على أساس واه بل ارفع قلبك الى السماء ، « اعملوا لكم أكياساً لا تفنى وكنزاً لا ينفذ في السموات حيث لا يقرب سارق ولا يبلبلى سوس لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » (لوقا : ١٢ : ٣٣ و ٣٤) فالطبيعة الروحية لم تخلق لأموال هذه الحياة المادية بل لأموال أفضل ، فمن يشغلها بما ليس لها فقد حوّلها عن غايتها وانحرف بها الى الهلاك الأبدى . قال داود النبي « من يصعد الى جبل الرب ومن يقوم في موضع قدسه . الطاهر السدين والنقى القلب الذي لم يحمل نفسه الى الباطل ولا حلف كذباً » (مز ٢٤ : ٤ و ٣) .

* * *

الفصل الثانى فى ان هذه الحياه ليست نصيباً لنا

«نصيبى هو الرب قالت نفسى من أجل ذلك أرجوه» (مرا ٣: ٢٥)
يمتاز الانسان عن سائر المخلوقات لأنه الله خلقه برأس مستقيم ترتفع الى السماء
بينما ترى رؤوس كل المخلوقات الحية منحنية نحو الأرض ، وذلك يدل على أن
للانسان مركزا خاصا عند الله دون باقى المخلوقات التى لا تتعدى حياتها الأرض
ويثبت لنا هذه الحقيقة الرسول بولس فى قوله «فإذن نحن واثقون كل حين
وعاملون أننا ونحن مستوطنون فى الجسد فنحن متغربون عن الرب» (٢كو ٥: ٦) .

ولا نجد برهاننا على أن هذه الأرض ليست نصيبا لنا أقطع من شهادة الوحى
الالهى وشهادة الاختبار فهما يؤكدان لنا بأنها دار شقاء وتعب وأن الذى يرغب فى
امتداد حياته عليها يشتمى امتداد زمن عذابه كمن كان مسجوناً فى سجن ردىء
وإذا ما جاء يوم اطلاقه أثر البقاء فى ضيق السجن . فالذى يقصر الله أتعابه ويختاره
قبل حينه انما يمنع عنه الآلام والأتعاب كما قال أيوب «الانسان مولود المرأة قليل
الأيام وشبعان تعباً ان كانت أيامه محدودة وعدد أشهره عندك وقد عينت أجله فلا
يتجاوزه . فاقصر عنه ليسترىح الى أن يسر كالأجير بانتهاء يومه»
(أى ١٤ : ١ ، ٥ ، ٦ ،) .

فأيام حياتنا مع كونها قصيرة لكنها رديئة جدا وهوذا يعقوب البار يشهد عنها
قائلاً «قليلة وردية» (تك ٤٧ : ٩) ويقول المرتل «أفخرها تعب وبلية»
(مز ٩٠ : ١٠) ولو سئل جميع المشرفين على الموت من بنى آدم عن هذه الحياة
لصرخوا بأعلى صوتهم قائلين «هى حزن وشقاء ، فنحن نعيش فى فساد الجسد ولا
نجد فى الملاذ الكاذبة راحة وسرورا بل خوفاً يعذب الجسد وحزنا يحرق العظام» .

ولكن مما يدعو الى الأسف انه بالرغم عما فى الحياة الحاضرة من الألم والبؤس فان الناس يميلون اليها ويشتهونها ، وما أصدق قول بعضهم « الحياة شقاء محبوب ولكنها معشوقة . يشكو الناس مرارة ما يجدون فيها فاذا دنا يوم الفراق تقطعت الأكياد حسرة وارتعدت الأعضاء خيفة » ويؤكد ذلك ما قالته إحدى الفتيات « كل ما ليس أليما فى هذه الحياة سخييف . وكل ما ليس سخييفا أليم . سينقضى كل شىء لأنى أريد كل شىء وأنا لذلك فى هم مفزع أرسل حولى صيحات الألم ولكنى مع ذلك أحب الحياة . وأجد فيها كل شىء طيبا لذيدا حتى الدموع والألم أحب الحياة بالرغم من كل شىء . أحب أن أحييا ومن القسوة أن أموت » .

فيالجهل الانسان الذى يجب البقاء فى الحياة مع اشتراطها على كل من يبقى فيها أن تعذبه وتؤلمه وما أكثر الذين يقبلون هذا الشرط ليعيشوا . قال أحد ملوك اليونان « كون الانسان ملكا لا خير فيه » فاذا تؤمل اذن من دوام البقاء فى الحياة أيها التعيس وأمراضك تتابع وتتواصل . قال جان جاك روسو « ان الدواء الناجح لشفاء أمراض الناس هو الموت » فكم من أناس طلبوا أن تطول حياتهم فطالت ولكنهم لم يجدوا فيها الا الشقاء تخلصوا منها بالانتحار ، وقد قيل أن امرأة بعد أن احتفلت ببلوغها المائة عام وجدت ميتة بالاختناق وعرف بعد ذلك أنها انتحرت تخلصا من الحياة فكل هذا يدل على أن هذه الحياة ليست مركز راحتنا ولا موضع نعيمنا .

أى شىء فى هذه الدنيا يجب لنا البقاء فيها ؟ هل الأخطار التى لا تكف والأضرار التى لاتنقطع ؟ ان الله أعطى الاسرائيليين وهم فى مصر عذابا حتى لا يشتهوا البقاء فيها ونحن أيضا أعطى لنا فى الأرض شقاء حتى لانحسبها مقرا لنا . فكان ينبغى أن نتوق الى يوم الرحيل بفرح ولكن وا أسفاه فاننا عندما نشعر بأن الله يدعونا اليه ننزعج ونضطرب . وقد شابهنا افرايم الذى شبه الكتاب بحمامة رعنا (هو : ٧ : ١١) ذلك لأن الحمامة لجهلها تود البقاء فى عشها معها قتلت فيه فراخها أو كسر بيضها ومهما صادفت فيه من الآلام والأهوال . هكذا نحن مع كوننا فى الحياة نقاسى كل أنواع الشقاء فاننا نخشى أن نتركها أو نرحل منها .

ان خروجنا من هذا العالم أفضل جدا وأكبر رحمة بنا من دخولنا اليه من كل الوجوه «يوم الممات خير من يوم الولادة» صحيح أنه ان ولد انسان في العالم يفرح الآخرون (يو ١٦ : ٢١) وان مات يحزنون ويكتشون . أما من جهتنا نحن شخصا فيوم الممات الذى يضع حدا لأهتماماتنا الكثيرة وأتعبنا وأحزاننا التى لا حصر لها وينقلنا الى الراحة والفرح والسعادة الأبدية خير من يوم الولادة الذى دخلنا فيه عالما مملوءا بالخطية والتعب والبطلان وقبض الريح . نحن ان ولدنا لا نعلم كيف سينقضى حياتنا أما ان مات انسان صالح فإنه يعلم الى أين هو ذاهب وكيف سينقضى حياته فى العالم الآخر . ان يوم الولادة يتقل كاهل النفس بحمل الجسد الثقيل ، أما يوم الممات فيحررها من ذلك الحمل .

قال الحكيم « ثم رجعت ورأيت كل المظالم التى تجرى تحت الشمس فهوذا دموع المظلومين ولا معز لهم ومن يد ظالمهم قهر وأما هم فلا معز لهم . فغبطت أنا الأموات الذين ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عاثشون بعد . وخير من كليهما الذى لم يولد بعد الذى لم ير العمل الردىء الذى عمل تحت الشمس » (جا ٤ : ١-٣) قال القديس يوحنا فم الذهب «انه ينبغي لنا أن نفرح بموت طفل وموت رجل تقى يخاف الله لأنها قد اعتقا من شقاء هذه الحياة وتمتعا بحياة مؤبدة» وقال أحد الأفاضل « ان السفينة ينبغي عليها الخوف مادامت فى البحر فإن الرياح تلطمها والزواج تكسرها . وهكذا فالحياة الحاضرة ما هى الا بحر مملوء صخورا وأخطارا فمن يطلب العمر الطويل فهو يطلب سلسلة مخاطر وتجارب وحروب » .

سئل يوما فيلسوف يقال له ستيكورس : أى نوع من أنواع السفن هو الأيمن ؟ فأجاب ؟ « ان أمن السفينة هى التى وصلت الى البر » هكذا يسوغ لنا أن نقول أنه مادام الانسان فى الدنيا فهو فى عالم الخطايا فالنا لا نطلب بأوفر شوق أن نصل عاجلا الى الموضع الذى نأخذ راحتنا فيه ونحصل على نجاتنا . قال القديس كبريانوس « أن حربنا هنا مع الكبرياء والدنس والغضب وحب المال ومع بقية الرزائل الجسدية . فأن قهرنا حب المال نهضت الشهوة الجسدية واذا روضنا هذه

الشرور أعقبها الطمع وإذا أقعنا الطمع تغلب الغضب وانتفحت العجرفة وتملق السكر وفرق الجسد الألفة وقطعت الغيرة المحبة .

فلنسع اذا وراء النجاة حيث نكون . غير مباليين بموت الجسد وفساده فإن النوتية اذا هاج عليهم البحر لا يهتمون إلا بنجاة أنفسهم واذا وصلوا الى البر سالمين لا ينظرون الى سفنهم ان كانت قد تهشمت أم غاصت فى الماء ولا الى أمتعتهم ان كانت قد بقيت أو فقدت بل ينظرون الى أنفسهم . وقد نجوا من الخطر فليفسد الجسد ولتتحل عناصره وليعد الى التراب كما كان فاذا بهم من أمر الجسد اذا ما حصلت الروح على السعادة الأبدية ؟

الفصل الثالث فى اننا غرباء على هذه الارض

«لأنى أنا غريب عندك نزيل مثل جميع آبائى» (مز ٣٩: ١٢)
ان كثيرين من رجال الله قد تأكدوا هذه الحقيقة وهى أنهم غرباء على الأرض فقصوا حياتهم عليها تائهين فى جبال وبرارى ومغائر وشقوق وها الكتاب يقول عن ابراهيم «بالايمان تغرب فى أرض الموعد كأنها غريبة ساكنا فى خيام مع اسحق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه . لأنه كان ينظر المدينة التى لها الأساسات التى صانعها وبارئها الله» وقال أيضا عن باقى القديسين «فى الأيمان مات هؤلاء أجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض» (عب ١١: ٩ و ١٠ و ١٣)

وقال داود النبى «غريب أنا فى الأرض فلا تحف عنى وصاياك»
(مز ١١٩: ١٩) فاعلم أيها الانسان أنك متغرب ومسافر ولا ريب أنه فى السفر تعب ومشقة فكيف تهوى أن تدوم مسافرا مقاسيا شتى الأتعاب والمشقات التى لا تنتهى ولا تشتهى الوصول الى نعيم الفرح والسلام؟ كل غريب يبغى من كل قلبه أن يصل الى وطنه فلماذا ونحن غرباء لا نظهر شوقا نحو وطننا الحقيقى؟ قال الكتاب الالهى «فان كنتم قد قتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله» (كو ٣: ١).

فاعلم أيها المتغرب أن لك جسدا وروحا فالجسد المأخوذ من التراب يميل الى الأرض التى أخذ منها . والروح التى نفخها الله تميل الى الذى صدرت منه فإذا كنت تشعر بأن ميلك الى الأرض أشد من ميلك الى السماء فكن على يقين بأن جسدك منتصر على روحك . قال أفلاطون فيلسوف اليونان «الانسان كائن

مركب ذو طبائع ثلاث : احداها السائق والاخرين جوادان مجنحان أحدهما كريم الأصل والثاني دنيء ، أما السائق فشأنه والحالة هذه غير السهل اليسير فبينما جواده الكريم يهيم بالطيران بالمركبة والسمويه الى ذرى المجد والفضائل اذ بالآخر الدنيء الأصل يريد حطها الى حضيض الخمول والرذائل . ولكن اذا كان السائق (أى المرء نفسه) حكيما رزينا كبح جماح الدنيء وأطلق للكريم العنان فسبا وتعالى قدرا وفعلا « فعليك أيها الانسان أن تتبين أن فى داخلك عاطفتين تريد الواحدة أن تعلق بك الى السماء وتتنزع بك الأخرى الى الأرض فأيهما تنصو على أخرى ؟ هوذا داود الذى عرف كيف يذلل عاطفة العالم يقول « واحدة سألت من الرب واياها التمس أن أسكن فى بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر الى جمال الرب وأنفوس فى هيكله » (مز ٢٧ : ٤) وقال أيضا « لماذا أنت منحنية يانفسى ولماذا تشين فى . ارتحى الله لأنى بعد أحده لأجل خلاص وجهه » (مز ٤٢ : ٥) .

فلا تغتر أيها الغريب بما يقدم لك من الاكرام فى أرض الغربة لأن الغرباء حين وصولهم الى دار غربتهم يقبلون فيها بفرح ولكن حين ارتحالهم منها يحاسبون حسابا عسيراً . هكذا أنت اعتبر نفسك غريبا مهما كان لك من المجد والغنى وثق أنك منطلق الى أب غنى والى ديار مخصبة ذات منظر بهى . قال المرتل « قلت للرب أنت سيدى خيرى لا شئى غيرك ... تكثر أوجاعهم الذين اسرعوا وراء آخر ... الرب نصيبى قسمتى وكأسى أن قابضه قرعتى (مز ١٦ : ٢ ، ٤ ، ٥) .

أنه ما من فكر مقدس يصد مطامعنا أكثر من التفكير بأننا غرباء فإن ذلك يوقف سير شرورنا كقول الرسول بطرس « اطلب اليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التى تحارب النفس » (بط ٢ : ١١) فاعرض عن كل ما يعرضه أمامك العالم لأنك تجرى مسرعا الى بيتك الأبدى ومن أوشك أن ينتهى سفره لا يحسن به أن يزين مكانا ليقم فيه هكذا أنت قد وصلت الى العالم بالأمس

وستفارقة اليوم أو غدا فلا تطلب فيه مجدا ولا كرامة فالكتاب يقول « ملعون نصيبهم في الأرض » (أى ٢٤ : ١٨).

كل غريب يحط رجاله في بلد ما لا يهتم إن كان يقضى فيها ليلته مسترخيا أو متعبا لأنه يرجو أن يستريح في وطنه في الليلة المقبلة، فانظر الى نعيم الحياة وبؤسها وراحتها وتعبها وكرامتها وهوانها وغناها وفقرها وصحتها ومرضاها نظرة واحدة لأن الذين يفوزون بنعم الحياة سيتساوون عند النهاية بأشقيائها، فارفع نظرك الى العلاء واصرفه عن الأرض وقل مع المرتل « من لى فى السماء ومعك لا أريد شيئا فى الأرض » (مز ٧٣ : ٢٥) واعتبر بقول الرسول الوقت منذ الآن مقصر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . والذين ييكون كأنهم لا ييكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشترون كأنهم لا يملكون ... لأن هيئة هذا العالم تزول » (اكو ٧ : ٢٩ - ٣١).

قال القديس يوحنا فم الذهب مقارنا بين من يهتم بالسماء معتبرا الأرض دار غربة ومن يقصر كل همه على هذا العالم « انها يشبهان تاجرين سافرا الى بعض الأقاليم لابتياح التجارات وحين بلغا سالمين وطلعا الى المدينة افترقا فضى كل واحد منهما الى غايته . أما أحدهما فإنه شمر عن ساعده العزم وقام على قدم الاجتهاد وأخذ يحول الأسواق وأماكن المتاجر ويسأل السماسرة وأهل الخبرة بتلك البلاد عن البضائع النافعة والمتاجر الراجحة ويجهتد فى الابتياح ليلا ونهارا ولا ينظر الى لذة ولا شهوة الى أن أكمل ما يحتاج اليه ثم استراح أخيرا . أما الآخر فإنه عندما طلع الى المدينة أخذ يسأل أهلها عما بها من البساتين والحمامات ومحلات الخمر وأماكن اجتماع المضحكين والحسان من النساء وما زال يقضى الأوقات هكذا ساعة فى الحمام وساعة فى البستان وساعة يأكل ويشرب وساعة يضحك على المحايلين وكلما رأى رفيقه مجتهدا محصلا لأصناف البضائع يخاطبه معفا على الانهماك فى التعب والاعراض عن الملذات وهو لا يلتفت اليه ولا يرجع الى خسيس رأيه الى حين انقضاء الأجل المفروض للتجار وضرب البوق بالرحيل وأقبل رجال المملكة وحراس المدينة على اخراج الغرباء من مدينتهم كالعرف المعتاد عندهم . أما ذاك التاجر الحازم اللبيب فإنه عندما سمع صوت أبواق السفر نهض

فرحا مسرورا لسرعة العودة الى الأوطان بما حصله من أصناف البضائع النفيسة ، وللوقت حزم المتاجر وسار سالما غانما ، وأما ذلك العاجز الخائب فإنه عندما سمع صوت الرحيل وبلغ اليه الأجناد المخرجون الغرباء من مدينتهم تيقظ من غفلات الجهل ونوم الكسل وأقبل على ذاته بالبكاء والندم والأسف والعيول وهو يسترحم فلا يجد راحا ويستعطف فلا يجد متعطفا حيث أصبح بين التجار فقيرا خائبا اذ لا مال له ولا جمال ولا زاد ولا متاجر وهو مستقبل البرارى المخوفة والطرق الهائلة وخليق بمثل هذا أن يموت خوفا ويهلك جوعا وهلعا .

لو كان لك أن تدوم في هذه الحياة لجاز لك أن تقتنى فيها دورا ومالا وتذخر الخيرات الوفيرة الجزيلة ولكن كل ما تقتنيه ههنا ليس هو من نصيبك لأنه قريب ذلك الوقت الذى تحلفه فيه لسواك ، قال المرتل « من الناس بيدك يارب من أهل الدنيا . نصيبهم في حياتهم . بذخاؤك تملأ بطونهم . يشبعون أولادا ويتركون فضالتهم لأطفالهم . أما أنا فبالر أنظر وجهك ، أشبع اذا استيقظت بشبهك » (مز: ١٧ : ١٤ و ١٥)

إن المسافر الفطن إذا جاز في بلدة أخذ معه منها ما يتمكن من أخذه ، أو أرسل أمامه الى وطنه كل ما استطاع إرساله مما يجده ثمينا ، كذلك يجب على كل انسان بإحتيازه في هذا العالم أن يأخذ معه ما استطاع من ثمين الأعمال الصالحة . حقا إن الانسان سيخرج من الدنيا فارغ اليدين من كل شئ في العالم ولكن يمكنه أن يخرج وقلبه مملوء من الإيمان ويدها تحملان ثمر إيمانه .

قبيل إن مدينة كان يقيم أهلها كل سنة ملكاً غريباً عليهم ، وعند نهاية السنة يضاغته أهل المدينة من حيث لا يدري فيخلعونه من ملكه ويطوفون به المدينة عزيانا ثم ينفونه الى جزيرة يموت فيها جوعاً وجزناً . فحدث إن رجلاً حكيماً ملكوه عليهم أدرك الأمر واستطاع أن يعلم ما سيجرى له فشرع يبنى في تلك الجزيرة دوراً وقصوراً وأخذ يرسل اليها كل ما ملكت يده حتى نفى اليها وكان قد أعد فيها كل خير ونعمة فعاش فيها غنياً رغداً مطمئناً . فلو كنا نتصرف في أمورنا الروحية تصرف هذا الرجل الحكيم لاستطعنا أن نتقل من هذه الحياة مطمئنين لأننا أعدنا لأنفسنا

فى بيتنا الأبدى كل وسائل راحتنا . وأحد الذين استعدوا جيداً يوم الرحيل كان يصرخ قائلاً « لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً ، ونحن غير ناظرين الى الأشياء التى ترى بل الى التى لا ترى ، لأن التى ترى وقتية وأما التى لا ترى فأبدية » (٢ كو ٤ : ١٧ و ١٨) .

فيا أيها المسافر الى الحياة الأبدية لا يهتك عدم إجلال الناس لك وإذا أعياك تعب الطريق فلا تتعم لأنك لا بد واصل الى النهاية إن عاجلاً أو آجلاً وإذا لم تكن ممن جادت عليهم الدنيا بخيراتها فلا تحزن فأولئك الذين حازوا الغنى الطائل سيحزنون فيما بعد أما أنت فستفرح إن هذه الخيرات ستكون حملاً ثقيلاً عليهم فى الطريق ولا يقدر أن يمر بها من الباب الضيق (مت ٧ : ١٣ و ١٤) وهوذا الحكيم يقول عنهم « ومحبتهم وبغضتهم وحسدتهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الأبد فى كل ما عمل تحت الشمس » (جا ٩ : ٦) .

فالذين يحملون أنفسهم أحمالاً ثقيلة يتأخرون لأنهم لا يستطيعون السير مسرعين فى « طريق الأرض كلها » (١ مل ٢ : ٢) تلك الطريق التى توصل الى الموطن الذى يكون مقر الجميع الى الأبد . أما الأبرار الذين طرحوا عنهم أحمال العالم وأثقاله فإنهم يصلون أولاً ويدخلون باب السماء وأما « المتأخرون فلا يفرحون به » (جا ٤ : ١٦) وهناك يعرفون أن خيرات العالم هى التى كانت علة هلاكهم فيطرحونها مزدرين بها . فإختر لنفسك إذا « النصيب الصالح الذى لن ينزع » (لو ١٠ : ٤٢) وقل مع القديس أوغسطينوس « انك يارب خلقتنا لك ولن نزال معذيين الى أن نستريح بك » .

الفصل الرابع فى حقيقة الموت

«أى انسان يجيا ولا يرى الموت . أى ينجى نفسه من يد الهاوية» (مز ٨٩: ٤٨)

ليس شئ من أمور الدنيا إلا وهو معرض للشك حتى قال بعض الفلاسفة «ان كل شئ يقبل الشك حتى قولى هذا أن كل شئ يقبل الشك» ومن الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون فى كل شئ حتى فى وجود ذواتهم ويعتبرون الحياة بما فيها كرويا منام . ولكن مهما وقع الشك فى أمور الحياة فإنه يوجد أمر واقع لا دخل للشك فيه وهو الموت . ومن عجب أمر الانسان أن يعتبر ما يراه من أباطيل الحياة كالحقائق ، ويعتقد بصحة الأمور التى يكون الشك فيها بيناً واضحاً ، بينما لا يهتم بأمر الموت الذى هو حقيقة لا ريب فيها قال المرتل «باطنهم أن بيوتهم الى الأبد مساكنهم الى دور فدور» ولكنهم «مثل الغنم للهاوية يساقون . الموت يرعاهم ويسودهم المستقيمون . غداة وصورتهم تبلى . الهاوية مسكن لهم» (مز ٤٩: ١١ و١٤).

يدخل الانسان العالم من باب ولا بد أن يخرج منه من باب آخر ، فدخوله من باب الولادة وخروجه من باب الموت . وعلى هذا المتوال ترى الناس على اختلاف مذاهبهم وحالاتهم . واحداً داخلاً الى العالم وآخر راحلاً عنه . ولهذا قال فيلاموس «إن حياة الانسان ليست إلا ولادة وموت . فعند ولادتنا نخرج من قبر مظلم وعند موتنا نلج قبراً أظلم وأفرع . قال أيوب الصديق «أليست أيامى قليلة اترك . كف عنى فانبلج قليلاً ، قبل أن أذهب ولا أعود ، الى الأرض ظلمة وظل الموت . أرض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترسيب واشراقها كالدجى» (أى ٢٠ : ٢٢) والكتاب الالهى يصرح قائلاً «وضع للناس أن يموتوا مرة»

(عب ٩ : ٢٧) وقد قال القديس أغسطينوس «أمر موتنا هو أكيد بلاريب . ولئن كان الطفل حين ولادته لا يعرف من أمر مستقبله شيئاً أليكون غنياً أم شقيماً ؟ ولكن أمراً واحداً يعرف عنه بكل تأكيد هو التزامه بأن يموت .»

ومتى عرفنا ذلك فما بالنا نتصرف فى الحياة تصرف من لا يموت قط . هل نظن أن هناك قوة أو حيلة يمكننا أن نستخدمها لنمنع حكم الموت علينا أو نؤخره ؟ هوذا القديس أوغسطينوس يقول «يمكن للناس مقاومة النيران الملتهبة وأمواج البحر المزبدة والأسلحة المرهفة والملوك المقتردين ولكنه حينما يأتى الموت فن يستطيع أن يقاومه ؟ . وقال المعلم ترتوليانوس «إن الموت فى قبضة الله كالمنجل المسنون الباتر فإنه تعالى يحسم به ويقطع ويحصد من هنا وهناك . لا يميز بين المتوج الجالس على عرشه والذليل الذى يخضع له .»

فلسنا نرى هنا إذاً إلا حياة يتبعها الموت وموتاً يلزم الحياة وفى الحقيقة فإنه لا يوجد فاصل بين الاثنين فما الحياة إلا باب يدخل منه الموت وما وجودنا على الأرض إلا سياحة للمقبر فالنبض الذى يحفظ كياننا إنما يسمعنا صوت أقدام الموت الذى يسعى إلينا ، وما الدم الذى يجرى فى عروقنا إلا جار بجياتنا الى أعماق الموت . اليوم نرى أصدقاءنا فى أتم صحة وغداً نسمع أخبار موتهم . بالأمس سلمنا على القبوى واليوم يغمض عينيه ، منذ ساعة ركبنا مطية السلام وفى بضع ساعات لا بد أن تأخذنا مطية الموت السوداء الى نهاية كل حى . آه ما أقوى إرتباط الموت بالحياة فالحيوان الذى يلعب فى الحقل ستقترب منه عما قريب السكين . الثور والحمل اللذان يرحان فى المرعى إنما يسمنان لأجل الذبح ، والأشجار لا تنمو إلا للقطع .

فتى تأكدت ذلك لا توهم نفسك بطول العيش ولا تحادثها كأن الموت بعيد عنك ، بل قل ياترى هل يدركنا الموت فى هذه السنة أم فى هذا الشهر أم فى هذا الأسبوع أم فى الغد أم فى هذا اليوم أم بعد هنيهة . قل متى تخرجين يانفسى من هذا الجسد وأين يكون ذلك ؟ أفى الشتاء أم فى الصيف ؟ أفى مدينة أم فى قرية ؟ فى الليل أم فى النهار ؟ أليكون ذلك على غفلة أم بمرض أم بحادث من الحوادث ؟ وما أصدق قول بعضهم «حياة الانسان كالعصفور الذى ينتقل من مكان الى

مكان وهو لا يدري أين يلقى حتفه أفي عشه ؟ أم وهو يستريح على شجرة ؟ أم وهو يلتقط فى الحقل ؟ أم وهو يستقى من غدیر ؟».

صور الحكماء الموت على عمود عال بشكل رجل شجاع مترجل تظهر عليه علامت البأس وهو متمشح بملابس حالكة السواد بحالة ترهب النفس ووضعوا فى يده الواحدة منجلاً وفى الأخرى قوساً وحجّبوا عينيه بستر غليظ من قاش تخين وجعلوا على رأسه إكليلاً مضموراً من حشيش الأفسنتين وسدوا أذنيه بالرصاص ولم يضعوا فى رجليه حذاء بل أجنحة كأجنحة جوارح الطير. وقد قصدوا بشدة بأسه أن يسرهنوا على اقتداره على إمتلاك كل النفوس مها كانت عظمتها . وأرادوا بالملابس السوداء أن يصوروا للناس ما يخلفه من الأحزان والحسرات . ومن تذرعه بالمنجل والقوس أن يدلوا على أنه يضرب الكل بلا استثناء . فالبعيدون عنه وهم الشبان يرشقهم بقوسه والقربيون منه وهم الشيخوخ يصددهم بمنجله . وقصدوا من اقفال عينيه إن يسيروا الى أنه لا ينظر الى جلال العظماء ولا الى ضعة المتضعين ، وأرادوا بحشيش الأفسنتين أن الموت يخلف المرارة ، كما أرادوا من سد أذنيه أن يسيروا الى أنه لا يسمع التهديدات والزفرات ولا يهرب من التهديد والتخويف . ومن جعل رجليه بلا حذاء الى أنه يدهم الانسان فى أى وقت . والوثنيون القدماء لم يبسنوا مذابح للموت بين مذابح ألهتهم الكثيرة المعلومه والمجهولة لعلمهم بأنه آخر عدو قوى لا يذعن ولا يلين بأية واسطة من الوسائط . فالرشوة لا يلتفت اليها والتقدمة لا يكثرث بها ، فلا يرحم شبيبة ولا يشفق على شيخوخة .

فكن على يقين أيها الانسان أنك ساع الى الموت . قد تغتر بهدوء فى منزلك ولكن فى نفس هذا الوقت الألوف يضطربون . قد تغتر بسلام تتمتع به الآن ولكن بيوتاً كثيرة فى هذا الحين مملوءة بالشقاء . وستمر الأيام عاجلاً وتنقلب الأحوال و يصبح ما عند سواك عندك وما عندك عند غيرك ، فالموت يحصد كل يوم مئات وألوفاً . وفى هذه اللحظة كم من أناس يشيعون الى المقابر ويحملون الى مقرهم الأخير وكهم من دموع تنسكب وأفئدة تتوجع ونحن ننخدع بحاضرنا الذى ما أقرب تغيره !

كم من كثيرين على أبواب الموت ومع ذلك يظنون أنه بعيد عنهم . كم من كثيرين ينتظرهم الموت على أبوابهم ، بل كم من كثيرين أوشك أن يدخل الى محادعهم ، بل كم من كثيرين قد اقترب من أسرهم ومع ذلك لا يفتكرون فيه . إذا التفتت سفينتان فى البحر يظهر لكل واحدة منهما أن الأخرى تسرع فى السير وهى واقفة أو تسير قليلاً ، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك فإن السفينتين تسيران . وعلى هذا المتوال نجد كثيرين إذا ما نظروا أحداً مات يتوهمون أن غيرهم يجرى الى الموت أما هم فيأقون فى الحياة لا يموتون . ولكن داود النبى يقول «أنا ذاهب اليه وأما هو فلا يرجع الى » (٢ صم ١٢ : ٢٣) .

ومما يدهش أن كثيرين من الذين غاب اسم الموت من أمام عيونهم إذا قلت لهم إن فلاناً مات يبدو استغراباً كأنك أخبرتهم بأمر ليس من العادة وقوعه ولذلك يبادرونك بقولهم وكيف مات ؟ لا يستفهمون بذلك عن سبب الموت بل عن الموت نفسه . ولو قلت لهم إن فلاناً طار فى الجو لما وقعوا فى الاستغراب وقوعهم فيه عند إبلاغهم خبر موته ، ويبدون استغرابهم بأن يقول أحدهم لقد رأيت به بالأمس ، و يقول آخر لقد شاهدته اليوم فهم يظنون بأن الموت عاجز عن أن يهد قوى الانسان فى لحظة ويرديه فى برهة من الزمان : وذلك دليل على أن أملنا الباطل يتغلب فينا على علمنا الحقيقى بأننا نموت . قال القديس أوغسطينوس : الأغصان تسقط من الأشجار والأحجار من الأبنية فلماذا نستغرب موت البشر أهل الفناء ؟

أليس شروق الشمس ومغيبها كل يوم يذكرنا بأننا كما وجدنا فى الحياة سنغيب عنها يوماً . تطلع فإذا ترى فى هذا العالم . هوذا كواكب تبدو وتغيب ، وبدور تلمع وتنطفئ وزهور تنمو وتذبل ، وأعمار تبتدى وتنتهى . وانسان يولد ويموت ، كل ما حولنا يندرن بزوال الحياة . النجوم المتساقطة تقول لنا إن الحياة زوال . الزهور الذابسة تقول لنا إن الحياة زوال . المقابر التى نشاهدها كل حين تقول لنا إن الحياة زوال . الصخور الهائلة التى مرت عليها الأجيال ونراها الآن تنحل الى ذرات كما كانت ، تصيح بنا إن الحياة زوال .

ولكننا نحن نسمع ذلك فنهزأ به ، نسمع أن أناساً يموتون فنقول ولكن نحن لنا

الحياة . نرى أناساً تضمهم القبور فنقول ولكن نحن لنا الحياة . نرى أناساً تضمهم القبور ولكن نحن لنا القصور . نشاهد كثيرين ينحطون من مجدهم الى الخيض فنقول ولكن نحن لنا المجد الذى لا يفنى . أسفى عليك أيها الانسان هل غرك أن الله أخذ أمامك أناساً ومنحك أنت سنة واحدة أو يوماً واحداً لتعيش ؟ هل تظن أنك أفضل ممن أخذ ؟ أنك تعيش لا لأنك تحب العيش بل لأن الله أراد إنك لم تمت الآن لا لأنك تكره الموت بل لأن الله لم يرد أن تموت . فلست إذاً حراً فى أن تعيش أو تموت برغبتك لأنه لو كان ذلك صحيحاً لما مات أحد لأنه ما من أحد يجب أن يموت . فالذين يموتون إذاً يموتون رغباً عنهم وستموت أنت أيضاً رغباً عنك عندما يشاء الله سواء رضيت أم لم ترض ، وإذا أتاك الموت بغتة فلا تنسب له الخيانة والغدر بل أنسب لنفسك الجهالة والغباوة لأنه أشهر علينا عدوانه من قديم الزمان فهو أحر عدو يبطل (١ كو ١٥ : ٢٦) . فإذا فأجارك بدون أن تتهياً لأستقباله فاللوم عليك أنت الذى تأمن لمن هو عدوك كما قال الكتاب « ويحى عهدكم مع الموت ولا يثبت ميثاقكم مع الهاوية » (اش ٢٨ : ١٨) .

فكل دقيقة من دقائق الحياة لا تكاد تنقضى حتى يموت فيها ألوف من البشر فلماذا تعد نفسك بين الذين يموتون بعد سنين ولا تحسبها بين الذين يموتون فى هذه الثانية ؟ فكم من المدن والبلدان تمتلئ فى كل جيل من شعوب جدد بعد أن يكون شعوب الجيل الماضى الذين كانوا قبلهم قد ماتوا . فكما إن حياة أولئك قد انقضت هكذا تنقضى حياة هؤلاء وياتى وقت لا أوجد فيه لا أنا ولا أنت ، إذ الموت لا يشيع (حب ٢ : ٥) قال أحدهم : « انك منذ مائة سنة لم تكن فى الوجود وبعد مائة سنة لا يكون لك وجود أيضاً » .

من عادات أهل إحدى بلاد الهند أنهم يقيمون إحتفالاً كل مائة عام فى ساحة ، كان فى وسطها صخرة مرتفعة ، وحين يتم الاجتماع فى ذلك اليوم يخرج مناد فى الناس قائلاً « ليتقدم الآن ويصعد على هذه الصخرة من شهد مثل هذا الاحتفال منذ مائة عام ، وحينئذ يسود على الكل صمت عميق و ينتظرون حتى يبرز من بينهم رجل عبث به مر الأيام وكر الأعوام فيتناقل فى مشيئته ويصعد

الصخرة بسطاء و يظهر أمام الناس منحني الظهر مبيض الشعر مجرد الوجه تكسو وجهه سحابة غم مما لحقه من البلايا ثم يتكلم بجزن عما شهده في بحر المائة عام من سقوط ممالك وانهار عروش وزوال أشخاص ويختم كلامه بقوله « كل ما أستطيع أن أقوله عن هذه الحياة أنها دار زوال فكل ما شهدته زال كما أنى أيضاً سألزل وسيأتى الاحتفال القادم وأنا تحت أطباق الثرى وقد بلى لحمى وفنى عظمى ».

فكن على ثقة أيها الانسان أنه كما سجل اسمك في غداد المولودين يوماً سيسجل أيضاً ضمن الأموات في يوم آخر وما صنعته يوماً مع أحد أقرائك المائتين سيصنع بك أيضاً يوم تموت ، وكما تتكلم عن رحلوا قبلك وتقص أخبارهم فكذلك سيتحدث عنك من يقون بعد رحيلك . وكما ورثت من سبقك سيرتك أيضاً من يلحقك . ومهما بكى عليك وولول من تظن أنهم يحبونك فلا بد أنهم يوماً يضحكون ويرجع اليهم السرور كما كان أثناء وجودك . سيأكلون على الموائد التي كنت تأكل عليها و يشربون في الأفداح التي كنت تشرب فيها . وبينما تكون أنت مرعى للدود والحشرات يكون أقر باؤك متنعمين بما لك مبهجين بميراثك . قيل إن أحد الملوك وهو يموت رأى أهله حوله يبكون فقال لهم « جدت عليكم بالدنيا وجدتم على بالبكاء وتركت لكم ما جمعت وتركوني أحل على ظهري ما عملت » وقال داود النبي « نسيت من القلب مثل الميت » (مز ٣١ : ١٢).

أفلا تعلم أيها الانسان الذي تتوهم أن الأرض دار بقاء أنك تمشى على جثث الأموات وأن الرماد الذي ندوسه بأقدامنا كان يوماً أجساداً نضرة جميلة هية يتباهى بها أصحابها . وستصير أجسادنا نحن على هذا النحو تراباً يدوس عليه من يأتون بعدنا . أجل ، قد تشيد هنا داراً حسب رغبتك ولكن عليك أن تتأكد أنك سوف تهجرها الى الأبد وتستقر في حفرة تبلى فيها عظامك . نعم لقد تفوز بالرتبة العالية والتوظيف الرفيعة ولكنك ستنزل من مقامك وتسقط من درجتك وتدرج في الثرى بجوار أحقر الناس وأذلهم . وحينذاك فقط تغمض عيننا جسديك وتفتح عيننا نفسك وتدرك أنك بنسيانك الله ومحبتك للعالم قد انحرفت ، وتتأكد أن كل شئ عداه باطل وحينئذ تقول مع النبي « حبال الهاوية حاقت بي . اشراك الموت انتشبت بي » (مز ١٨ : ٥).

فهل هناك إذاً من شك في الموت؟ هل يجسر انسان على القول أنه يجيا الى الأبد أمام تلك القوة الهائلة العظيمة التي لاحدها؟ ضع في عقلك أيها الانسان كيف يتصرف معك الموت ببأس وجبرؤوت وكيف يفصلك بقساوة عن كل ما مملكت يداك وعن كل ما قضيت العمر في اقتنائه؟ عن أولادك الذين أحببتهم وعن زوجتك التي تحبها وعن أصدقائك الذين كانت تحلوك عشرتهم؟ تذكر كيف يغمض عينيك فلا تعود فيما بعد ترى بها أحداً من البشر أو تمتعها بما كانتا تميلان للنظر اليه من الأمور البهية . و يسد أنفك فلا تعود تستششق الروائح الزكية . ويصم أذنيك فلا يكون لك من سبيل لسماع الأغاني المطربة والتغيمات الشجية . و يطبق شفتيك فلا تستطيع فتحهما لتلذذ نفسك بالمأكل والمشرب ، و يعقد لسانك فلا يتحرك لشتيم الناس واهانتهم ولا للافتخار والتباهي و يشل يدك فلا تمتد لتناول الدراهم وقبض الدنانير . ويخلع قدميك فتعجز عن السعى للجمع والتكديس أولاً لانتقام والاغتتيال و يسكن قلبك فلا يعود يهتز لفرح أو يضطرب لحزن .

ثم تعال بنا نتأمل في ما سيصير اليه الانسان بعد الموت . أنظر لهذا وقد غاب في الرمس وتوسد التراب ثم شق عنه كفنه صبيحة ثالث يوم موته واسأل نفسك هل هو الذي كنت تراه قبلاً؟ ألا تراه جثة مشوهة مخيفة؟ ألا تشتم رائحته النتنة الكريهة؟ ما بالك تنفر منه وهو الذي كانت تنبعث من بين أردائه الروائح الزكية؟ وما بالك تحاول أن تهرب من أمامه كأنه شبح وحش فاتك وهو عديم الحركة والقوة؟ إن لسان حاله يقول : ألسنت أنا الذي كنت تخشى صوتي ، فما بالك أنكرتني ونسيتني كأنك لم تعرفني !!

هذا هو الحال الذي سيصير اليه ذلك المتكبر أو ذاك الفخور المعجب بنفسه وجباهه وغنايه وجماله ذلك الذي كان موضع وقار عارفيه واحترامهم في المجالس ، ذلك الذي كانت تشتهى الناس أن تنال منه كلمة عطف أو تتطلع أعينهم الى جماله البديع ماذا جرى له؟ لقد أصبح موضع النفور والكرهه عند كل من يشاهده حتى من أخص محبيه . وقد أسرع أهله فأخرجوه عاجلاً من بيته حتى لا يفسد هواء الغرف برائحته الكريهة .

فما بالنسبة إذا لا نفتكر في أننا نموت والموت أمر محقق ؟ ذلك لأننا ننظر الى معاصينا ونعتقد أن الموت ينقلنا الى العذاب الأبدى . فمن لا يخاف من هذا المصير الذى يجعلنا نترك كل ما نحب هنا لنقاسى كل ما نكره هناك . قال رجل للحكيم « ما لنا نكره الموت » فأجابه الحكيم « لأنكم أنخرتكم آخرتكم وعمرتم دنياكم فكبرهتم أن تستقلوا من العمران الى الخراب » فلنتبصر جيداً ولنطرح عنا الاهتمام بأمر الدنيا الذى يجعل الموت أمامنا مكروهاً مبعوضاً وهو حق ، ولنتجه بعقولنا طالبين السعادة الأبدية حتى لا نخشى الموت ولا نخافه ، لأن الأشرار يرون جهنم من وراء باب الموت مفتوحة لا يتلاعهم فيخافون . أما الأبرار فإنهم يشخصون منه الى السماء فيرونها مفتوحة لقبولهم فيفرحون .

إن من كان تحت خطر الاعداء يتصوره فى كل دقيقة ، ونحن تحت خطر الموت فلنتصوره على الدوام ولنحتقر الأرضيات ونرغب فى السماويات كى لا يكون لنا الموت هلاكاً دائماً بل حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا .

* * *

الفصل الخامس

فى خداع الدنيا وغرور الحياة

« طردك الى التخم كل معاهدك . خدعك وغلب عليك مسالمك . أهل خبزك وضعوا شركاً

تحتك » (عوا : ٧)

لا تستطيع أن نصف مقدار جهل الناس فى الخداعهم بهذا العالم وغرورهم بأباطيله . فلو وجه الانسان نظرة الى كثيرين ممن أغرتهم الدنيا وخدعتهم بأوامها وكيف خسروا السعادة لجاز عنها وهرب سرياً تابعاً خطوات الأتقياء الذين طلقوها بتاتاً وماتوا عنها فنجوا من عقاباتها الوحيمة . فالدنيا عدو ولكنها تغطى نفسها باللذة لكي يتبعها الأغنياء ، والساء حبيب ولكنها تنال بالتعب والضيق ، وهذا الحكيم يقول أمينة هى جروح المحب وغاشة هى قبيلات العدو » (أم ٢٧ : ٦).

لو أن محبى العالم تمعنوا فيه بتدقيق لما وجدوه سوى سجن للأحياء ومقبرة للموتى ، فن أحبوه فى ما مضى أهلهم بعد موتهم ولم يعد يذكرهم ، ومن يتمسكون به الآن لا يزال يخدعهم ويخفى عداوته لهم تحت ستار الحب حتى يهلكهم أشر هلاك ، لأن شفتاه تقطران عسلاً ، وحنكه أنعم من الزيت . لكن عاقبته مرة كالافستين . حادة كسيف ذى حدين .

فالمدين يندعون بالعالم يصفهم الكتاب قائلاً « الذين يحسبون تنعم يوم لذة . أدناس وعيوب يتنعمون فى غرورهم » (٢ بط ٢ : ١٣) ولن يفيق الانسان المغرور بالعالم من سكرة غروره به إلا عند موته إذ يجد يده فارغة مما حصل واقتنى ولا تجديه الندامة نفعاً بعد أن نفذ سهم القضاء ، وتشبه حالته حينئذ حالة سبيرا الملك الذى

هرب الى خيمة ياغيل امرأة حابر القيني احدى نساء الأمة الاسرائيلية التي كان يجارها فلم تشأ المرأة ان تغتاله ظاهراً بل قدمت له حليباً لذيذاً فشرب وأعدت له فراشاً فنام ومن ثم ضربت الوتد في صدغه فلما شعر به حاول النهوض ولكنه لم يقو لأن سهم الموت كان قد نفذ فيه (قضى ٤) وهذا ما عمله الدنيا مع محبيها فانها تحزنهم في حال سرورهم وتكدرهم في حال صفوهم وتأتيهم بالموت وهم ناعمون في أباطيلها متقسون بغرور الخطية (عب ٣ : ١٣).

فما أعظم خداع الدنيا وغرور الحياة إذ لا نهاية لها إلا الموت والبوار فلا تنشغل إذا بما تعرضه أمام عينيك بل اهرب من أكاذيبها أن شئت النجاة من الموت والهلاك فان الأباطيل التي يوهاها أهل العالم ويرتاحون اليها تقودهم الى الاضطراب وتنتهي بهم الى الأحزان لأنها تبتدى بالخير وتنتهى بالشر. ولوفتس الانسان عن مقدار الألم الذي تحتم به الدنيا لذاتها لولى مديراً كمن يهرب من أفعى. فهى كنينوى التي قال عنها الكتاب « كل من يراك يهرب منك » (نا ٣ : ٧).

وإذا أردت التحقق من صدق قولى فعليك بمن سيقوك فى هذا الوجود وكانوا من أعظم محبى العالم ، سلهم وهم على فراش الموت أحقاً صداقة العالم صادقة ؟ وهل يفارق الصديق صديقة بدون أن ينطق كلمة وداع أو يذرف دموعه حينئذ ؟ تحقق جيداً لماذا لا يكون على العالم وكانوا من قبل يحبونه ؟ تجدهم أصبحوا يحملون له فى قلوبهم كل حقد وضغينة . يموتون وهم مملوون غيظاً من تصاريقه و ينتمون لويعودون اليه لينتقموا لأنفسهم منه لأنه غدر بهم . أسمعهم يقولون « ان البلايا الكثيرة والمصائب المتعددة التي أوقعها بنا العالم فتحت بنابيع دموعنا حتى لم نجد قطرة واحدة نجود بها عليه يوم فراقنا له . حدقوا بنا جيداً لتروا الغضون التي خلفتها الأوجاع والهجوم ظاهرة فوق جبين كل واحد منا وخطوط الدموع التي أسبلتها الأحزان ظاهرة فى وجوهنا وقد حزت فى جلاب خدودنا ».

ان أهل العالم ينظرون اليه فى مظاهره الخلابه فيحبونه ولا يحسبون حساباً لما يخبيشه لهم فى طواياه من التعاسة والشقاء فلا يندعك منظره الآن ولا تعباً بالحال الذى هو عليه فى هذا الوقت بل ترقب ما سيكون أخيراً . لقد دخلت الدنيا ولكن

لا بد أن تخرج منها . وإن كان دخولها مفرحاً فالخروج منها مخزن . لا يغرنك الجمال الحاضر بل تأمل الشناعة التي يتحول اليها ، ولا تظل غير مبال بالعواقب المخزنة التي ستؤول اليها سائر اللذات التي تتنعم بها هنا فالدنيا إنما هي كالذين قال عنهم الرسول بولس « انهم بالكلام الطيب والأقوال الحسنة يخدعون قلوب السلياء » (رو ٦: ١٨).

قيل أن رجلاً هرب من أمام وحش وجعل يعدو بسرعة حتى سقط وهو لا يفتن لما ينتهي اليه — في حفرة عميقة ولحسن حظه تعلق بشجرة ثابتة في جانب الحفرة وتمسك بأغصانها وبعد أن هدا روعه أبصر جردين أحدهما أبيض والآخر اسود بقرضان أصل الشجرة حثيثاً بلا فتور حتى ظهرت أنها على وشك السقوط وأحذق بنناظره الى عمق الهوة فإذا بتنين مخيف يتوقع سقوطه لا ابتلاعه فرفع نظره خوفاً فشهد بين ورق الشجرة قليلاً من العسل يقطر . فلما رأى الجاهل ذلك أهمل التفكير في كل الأخطار المحدقة به وشرع يلعب من ذلك العسل السائل نقطة نقطة حتى سقطت به الشجرة وارج ضحية التهاة بالحلاوة الوقية التي هي المرارة المؤبدة ! وكم من الناس كهذا الجاهل يتلذذون بما تقدم لهم الدنيا من حلاوة اللذات ويعمون عما تجهزه لهم من عظيم الضيقات والمشقات .

هذه هي حقيقة الحياة ، الخير فيها يقبل ثم يدبرو يعقبه الويل والهلم المقيم . ومن عادة الدنيا إذا قدمت في الظهرية طعاماً طيباً لذيذاً ففي المساء تقدمه مريراً ممجوجاً . وبينما نجد أهل العالم يقولون سلام وأمان يفاجئهم الهلاك بغتة . فلا تنظر للأوائل الخداعة بل للأواخر اللداغة فما عاقبة اللذات إلا مرارة وما نهاية هذه الحياة التي تحبها سوى دود ورماد ، وما غاية كل خطية مميتة سوى العذاب الشديد ، وفي المكان الواحد تقام معالم السرور ثم تقام علامات الحزن والكآبة فلا تتأثر بالمجد الباطل بل انظر الى عاقبته المرة . ولا تأخذنك اللذة التي هي بين يديك بل فكر فيما يعقبها من الهموم والغموم . سيأتى على الخاطئ وقت يقول فيه ليتنى ما كنت أخطأت وهوذا الكتاب ينهنا قائلاً « لا يخدعن أحد نفسه » (١ كو ٣ : ١٨).

ما الذى يجب الانسان فى هذه الدنيا ؟. أليس أنها تمتص منه الدماء وتسلب منه الراحة مقابل تلك اللقيمات التى يزدريها ومقابل تلك الخرق التى يتزربها . وفى ختام الأمر كله يخرج منها وقد ظلم فى أجره ، يخدمها بدون مكافأة و يتعب كثيراً ثم يطرد منها صفر اليدين . ضحكت عليه وهى تحسن له سبيل خدمتها بوعود ظاهرها الأمانة وباطنها الخيانة حتى إذا أمن اليها رمت به بين أياب الهلاك وذهبت تستقصى عن غيره لتنال منه ما نالت من سابقه . مال اليها وأحبها وخدمها باخلاص وأقسم لها بين الولاء فخانته . كرس عينيه للتطلع الى جاهها فحملتها على أن تسكبا دموعاً غزيرة . قدم لها قلبه فداسته غير مبالية بالألمه وكانت كالرجل الظالم الذى لا يعطى أجراً لمن يتعب فى خدمته . قال أحد الآباء « نجاح هذه الدنيا ونعيمها يشعشع كالمصباح اللامع الضياء الذى يبقى ما دامت المادة . أما بعد فنائها فيعود دخاناً كرهه الراححة ».

قال يوحنا الانجيلي « لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم . إن أحب أحد العالم فليست فيه محبة الآب . لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظيم المعيشة . ليس من الآب بل من العالم . والعالم يمضى وشهوته . وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت الى الأبد » (١ يوحنا : ٢ : ١٥ - ١٧) ويحقق لنا هذا أننا لا نجد فى هذه الحياة امرئ لا يشكوهماً ولا يبكى غمماً . من من الناس لم تمتد اليه يدها بالأذى ، فى الطفولة باكين وفى الشبوبة خائبين وفى الشيخوخة مذلين . فى الحياة شقاء وفى الموت انزعاج . فى الصحو اندهال وفى النوم اضطراب . فى النهار مناظر مخيفة وفى الليل هواجس مرعبة ، فساعات الحياة حلقات متصلة من الآلام كل منها تدفع الانسان الى الأخرى فيجدها أمر وأنكى .

إن الذين يعشقون الحياة مع ما ذاقوه فيها من المروم مع ما قاسوه من التعب معتقدين أن مستقبلهم سيكون أفضل من ماضيهم ، وإن ماضيهم ان كان مرأ شقيماً فسيكون مستقبلهم حلواً سعيداً . هؤلاء قد ضلوا لأن للدنيا تصرفاً واحدأ مع جميع أهلها وما تبدى به معهم أفضل مما تنتهى بهم اليه وقد يكون ما مضى أفضل بكثير مما يأتى صرح بعض الدجالين أنه فى الامكان كشف المستقبل ومعرفة الآتيات

بواسطة الشعور النفسى أوبتوسع علم قراءة الكف فقالت الصحيفة التى نشرت هذا الخبر «إذا أمكن ذلك فيالشقاء البشر و بالتعاسة الحياة ومرارتها وما ذلك إلا لاعتقاد الانسان الأکید بأن فى الحياة الكثير من الشقاء والألم .

حقاً إن غرور الدنيا وغشها ظاهراً للعيان وأعمالها توضح لنا شرها وتنادينا بأن لا نجبها لأنها كالأفعى تلدغ من يصادفها فيجربى سمها فى دمه فيقتله ، وهى كالنصار تؤذى كل من يقرب اليها و يلاصقها . تأملها تجدها تخاتل قوماً وتعمى آخرين ، فإذا ولت فهى لاشئ وإذا أقبلت فهى كالخيال ومتى ارتفعت كانت دخاناً . هى عند الجهال حلوة لذيدة وعند الحكماء مرة كرهية . فحبوها غير عارفين بها ومبغضوها محبترون تصار يفها فهى توثق وتضطهد الذين يخدمونها وتجلب على عاشقها هوماً وضيقات ، تهن الذين يكرمونها وتنسى الذين يتغنون بذكرها .

فيتنبى أن يكون أشد خوفنا من العالم عندما يميل اليها و يظهر حبه لنا . فى ذلك الوقت يجب أن نمقتة أكثر مما نبغضه عندما يبضطهدنا علانية . لأنه كالرجل الظالم يغرى صاحبه و يسوقه الى طريق غير صالحة (أم ١٦ : ٢٩) فبقدر ادعائه مصادقتنا يبطن لنا فى خوف تلك الصداقة الموهومة كل الأخطار التى تهلكنا . وإذا كنت تراه يبتسم لك حيناً فلا بد أن يكشر لك أبداً عن أنيابه . وإذا كنت ترى الآن قوماً يضحكون فلأنهم لم يقفوا بعد على أسرار خداعه وسيأتى عليهم وقت يكونون فيه مطلع الساعطين عليه و يرفعون عقيرتهم بالشكوى من خيانتة و ينتظرون اليوم الذى يحصلون فيه على النجاة منه انتظار الغريق حبل النجاة ، وانا نشاهد عن قرب ذلك اليوم الذى يقضى فيه على كل أمل لهم ويخيب آخر رجاء لهم . فما الدنيا إلا كالطائر الذى قيل أنه ما هبط على شجرة إلا واسقط كل أوراقها . ينشأ الانسان فيها مفعماً بالآمال فإذا بها تخيب أماله الواحد بعد الآخر . وإذا خيبت له أملاً أطمعته بتحقيق الأمل الآخر حتى يخيب الأمل الآخر حتى يخيب آخر أمل له وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فيموت وهو يصرخ بتلك الكلمة التى صرخ بها رابليه الشاعر الفرنسى وهو يحتضر «انزلوا الستار فلقد انتهت الخدعة» .

وما أشد شقاء خيبة الأمل . لتتصور انساناً ألف صديقاً وأولاده ثقته فكم يكون حزنه إذا خاناه ؟ وهكذا ينشأ الانسان محباً للعالم معتبراً اياه صديقاً وفيماً وخادماً أميناً وإذا به ينكشف له أنه العدو الألد والحائن الأشر . قالت زوجة الكسيس بن بطرس الأكبر قيصر روسيا « لا ريب أن العالم مفعم بالأحزان وأن الأيام تذخر لي في ثناياها أشد الصروف وأعظم المصائب وفي الواقع انى لم أعرف منذ حدثتى معنى السرور إذ كنت لا ألبث أن أصادف شيئاً من الانشراح حتى يداهمنى الشقاء . ومما يزيدينى الآن ألماً أن حزنى ناشئ عن شخص هو أعز على من أن أشكوه . وحيثما جلت بفكرى أدركت أن لا فائدة من معاندة الأقدار لأن كل أمرئ عرضة للشقاء مادام عائشاً فى هذا العالم المفعم بالأحزان .

فلو كان العالم يظهر للناس بحقيقته فلا يعطيهم خيراً يعقبه شراً ولا يمنحهم نعمة تليها نقمة ، لكان ذلك أفضل لأن أشد ما يتألم الناس له هو ضياع النعمة من بين أيديهم . وما كانوا ليسيكون على نعمة زائلة ويجدون مرارة فى فقدانها لو لم يذوقوا حلاوتها . فالدنيا تمنح النعمة فيغتبط بها الانسان حتى إذا مارأت بذرة الأمل التى غرستها فى نفسه قد نمت وازدهرت وأنه قد استعذب طعمها وأستطاب مذاقها كرت عليه فانتزعها من يده وهى قريبة من فه كما تنزع الكأس من يد الظامى الهيمان ليعظم وقع السهم فى كبده .

فيا للشقاء من يهكم بالعالم ويا للسعادة من يتهاون به . لعلكم تغترون بما تهبه الدنيا للبعض من زخرف المعيشة . ان كان ذلك فاعلموا ان غناها مزوج بالخوف ، وصحتها بالفقر ، وعظمتها بالهم ، وحكمتها بالشقاء . بداءتها عدم راحة ونهايتها ندامة . تشرك الأحياء ولا تصاحب المائتين ولا تسأل عن الغائبين . كم من أناس كانوا يظنون أن العالم لهم وإذا بهم يتركونه فجأة و يبقى العالم بعدهم دون أن يذكروهم أو يفقدوهم أنهم كانوا يوماً من محبيه . واللذات التى عرفوها وانهمكوا فيها لم تعد تذكر هيامهم بها وميلهم اليها .

ان الدنيا سخية فى عقابها بخيلة فى انجاز وعودها ، ليقيم جميع محبى العالم وليقولوا لنا هل كان لهم فى وقت من الأوقات لذة بدون ألم ، أو سلام بلا فتنه ،

أوراحة بلا تعب ، أو عافية بلا مرض ، أو شبع بلا جوع ، أو فرح بلا حزن ؟ الدنيا تعد بالخيرات وتعطى جميع الشرور والمضرات . تعد باللذة وتعطى هموماً وشدة . تؤكد مواعيدها وللوقت تخون عهودها . تعد براحة وسرور وتعطى تعباً وكداً . تعد بأفراح وانسراح وتعطى أحزاناً وبلايا ، تعد بالشرف والكرامة وتعطى الذل والأهانة . تعد بطول العمر ولكنها تضمن بجملة قصيرة ذات شقاوة شديدة .

وعلى هذا المنوال تعد الدنيا بشئ وتعطى غيره ، وأهل العالم لا يفطنون الى هذا الخداع حتى يتبدد ليل هذه الحياة وينبج الصباح وعند ذلك يحضرهم الموت فيدركون أنهم قد انخدعوا وان أتعابهم الدنيوية قد ذهبت عبثاً فيصرخون بمرارة ويقولون مخاطبين اياها « كنت تهيننا المسرة رذاذاً وتطلقين دموعنا بغزارة . كنت تعطينا الطعام لقمة لقمة ، والشراب جرعة جرعة . تهيننا الأوجاع بغير كيل وتسمحين للآلام أن تتراكم علينا بلا حساب . اذا تعطفت علينا بيوم فرح اغدقت علينا نظيره بأيام كدر . إذا غدونا يوماً أصحاب قضينا أياماً مرضى . إذا تمتعنا مرة بالأصدقاء التقينا مراراً بالأعداء » .

أفتر يد إذا أيها الانسان أن تكون في عداد الجهال الذين يخدعون العالم وهو يخدعهم فيتم عليك القول « لماذا تزنون فضة لغير خبز وتعبدكم لغير شبع » (اش : ٥٥ : ٢) قال أحد الأفاضل « هل تظنون أن العالم إذا كرستم حياتكم لخدمته يعطيكم حتى تشبعوا . وهب أنه أعطاكم حتى تقولوا كفى فلا ريب أنه يسترد منكم ما أعطاكم أياه لأنه مع كونه كالتاجر الحكيم الذي يحاول أن يحفظ مركزه أمام الناس فهو أيضاً كالتاجر الذي ليس له من المال ما يكفى لجميع مداينيه فيختلس من هذا ليعطى ذلك و يسلب ذلك ليوفى هذا . وهو كشمشون حينما اضطر أن يعطى ثلاثين حلة من الثياب للفلسطينيين الذين فسروا الأحجية فانه قتل ثلاثين فلسطينياً آخرين وأعطاهم حللهم (قض : ١٤ : ١٩) هكذا العالم إذا أراد أن يكسو واحداً فلا سبيل له الى ذلك إلا من تعرية آخر . وعمله هذا يشبه عمل الزارع الذي يكسح الأزهار والأشجار الذابلة ليخلي مكانها لغيرها . فالغنى ينتقل من بيت الى بيت وكذلك الفقر من منزل الى آخر . لقد وهب احشو يرش الوزارة لردخاي ولكن بعد أن سلها من هامان (أس : ٨) .

قال أحد الحكماء «أيها الرجل لا تتخدع كما خدع غيرك من قبلك . فان الذى أصبحت فيه من النعم إنما صار اليك بموت من سبقك وهو لا بد يوماً منصرف عنك الى سواك . فلو كانت الدنيا للعالم لما أخذ الجاهل منها نصيباً ، ولو بقيت للأوائل لم ينل منها الأواخر شيئاً . لو كانت الدنيا كلها ذهباً وفضة ثم عطفت عليك وسلمت اليك مقاليدها ثم سرت فى طريق الموت فهل كنت تنهاها . لا فخر فى ما يزول ولا غنى فى ما يفنى .»

ليت العالم إذا أراد أن يسترد ما وهب بينه قبل أن يغتال ، ولكنه شره يأتى فجأة على محبيه وهم فى ابان مجدهم وعظمتهم فكم من كثيرين اختطفت منهم المكأس بغتة وهم يرفعونها الى شفاههم وكانوا يؤملون أن يحتسوها بلذة . وكم من تيجان تحطمت بعد مجد وانتصار ، وكم من ذوى جاه ما كادوا يتمتعون بجاههم ويستريحون مما قاسوا من العناء فى سبيل الحصول عليه وإذا بهم قد انفصلوا بغتة عن كل ما يؤملون . يجرى الانسان وراء الدنيا وهى تجرى أمامه حتى إذا عرفت أن قوته وهنت وقفت ليلحق بها وما يكاد يلمسها حتى يؤخذ من الحياة بحجرة أبدية .

غسبى ذلك الذى يفرح بمنظر يعرضه العالم أمامه قال القديس يوحنا ذهبى الفم «أن فرح العالم ليس فيه شئ يعتبر رهنأ ثابتاً ولكنه زائل جميعه وهو يشبه النهر الذى يجرى عند انسكاب الامطار على الأودية فيظن من يراه انه نهر ثابت يدوم وهو بالحقيقة نهر مستعارة مياهه وينتهى بغتة مع انتهاء المطر .» جميع الذين خدعوا بالعالم يصرخون بعد معرفتهم ذلك قائلين «لماذا ضربتنا ولا شفاء لنا . انتظرنا السلام فلم يكن خيراً . وزمان الشفاء فإذا رعب» (ار ١٤ : ١٩) وحالهم هذا يشبه ما قيل عن جبل وسوبوس الذى عندما يجرث الزراع سطحه و يلقى عليه البذار يزهر سريعاً و يبين له ربيعاً دائماً بعشبه الأخضر ، وخر يفاً بهيجاً بفاكهته اللذيذة ولكنه عندما يقترب ، وقت الحصاد يشور من جوفه بركان عظيم فيتلف فى ساعة ما أثمر فى أمد طويل .

فإذا أراد أحد أن ينال من العالم سعادة حقيقية فليعلم أن العالم يأتى لمن احتقروه وازدروا به ، و يولى ويهرب ممن أحبوه ومالوا اليه . فالذين احتقروه صاروا

ممجدين ونالوا فخراً سامياً وذكروهم يدوم الى الأبد . أما الذين أحبوه فليس من يذكروهم و يعرفهم بل يوجد من يهزأ و يسخر بهم . فانظروا جيحزى غلام الإشع يجرى وراء العالم و يسعى خلف نعمان طالباً المال مستعملاً الكذب فى سبيل الحصول عليه . وانظروا آية مكافأة كافأه بها العالم على محبته اياه فى قول الإشع النبى له « برص نعمان يلصق بك و ينسلك الى الأبد . فخرج من أمامه أبرص كالثلج » (٢ مل ٥ : ٢٧) ومن الجانب الآخر نرى الثلاثة الفتية حينما عرض عليهم نبوخذ نصر المجد مقابل السجود للتمثال والا يلقبهم فى أتون النار فانهم أجابوه بشجاعة أنهم يرفضون كل كرامة يعرضها عليهم ولا يتركون عبادة الههم . ولننظر الى ما كافأهم به الرب على رفضهم السجود للتمثال « حينئذ قدم الملك شدرخ وميشخ وعبدنغو فى ولاية بابل » (٣١٥ : ٣٠) .

العالم ليس له الا أن يوصى بالشر ولكن لا يساعد عليه وهو أشبه بفرعون حينما ثقل العمل على الاسرائيليين ولكن لم يعطهم حتى التين اللازم لصنع اللبن (خر ٥ : ١١) قال السيد المسيح « هل يجتنون من الشوك عنياً أو من الحسك تيناً » (مت ٧ : ١٦) وهكذا أنت لا ترجو من الدنيا ثمراً صالحاً فهى لا تعطى الا الكذب والبهتان . فكمن من كثيرين استخدمتهم فى أعمالها ولكنهم فى وقت بليتهم اتمسوا منها العون لتركهم كأنها لم تكن تعرفهم . فحسب الدنيا يتمتع قليلاً بما تقدم له لكى تطفئيه ولكنها إذ تنال مأربها منه فأنها تسخره فيما بعد . وكم لعبت بسادات وأرباب ورؤساء ، وبعدها أطفغتهم وأصلتهم كرهتهم وهم فى حال لذة ملاعبهم ثم أهملتهم مطروحين بغير سلوان .

فإذا رفعتك الى منزلة عالية فأياك والوقوع وكن محترساً فأن الذى عملته مع من تقدمك عمله معك أيضاً . فهى فى تصرفها كالجلاد الذى بعد أن يرفع المجرم الى المشنقة يدفعه برجله و يطرحه مهاناً . فهى إذا أرفعتك لكى تسقط .. وبقدر علوك يكون سقوطك . فالذى يسقط من علو شاهق ليس كالذى يسقط من علو منخفض وهوذا الكتاب الالهى يقول « قد غرك تخوفك كبرياء قلبك ياساكن فى محاجى الصخر الماسك مرتفع الأكمة وان رفعت كنسر عشك فن هناك أحدرك يقول الرب » (ار ٤٩ : ١٦) .

ان العاقل يرى بعينيه العالم واقفاً يضحك على الذين عرقلهم مجده و يظهر سروره واضحاً عندما يصل الى سمعه صوت تأوهاتهم المتواصلة التى سببها لهم غرورهم به ، أنظر بعينى عقلك أيها المغرور بالعالم تراجمادات الثابتة تسخر منك والعالم يلعب بك . الخرائب والاطلال تضحك عليك يامن مر بها عزك وشقاؤك ، سرورك وحزنك ورأت أن كل ما ينتحه لك العالم باطل .

فالأفضل لك أيها الانسان إذا ان تهجر الدنيا قبل أن تهجرك هي . اترك العالم الذى يتحرك تركاً أدياً . اطرح نيره عنك قبل أن يحول ظهره لك . لا تكن أعمى لحفظ مناسخلفه رغماً وقهراً واسمع قول الرسول « وإنما أقول هذا القول لئلا يخدعكم أحد بكلام ملق » (كو ٢ : ٤) فأولى بك أن تضحك على الدنيا ولا تدعها تضحك عليك لأن هم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان كلمة الله فى قلبك (مت ١٣ : ٢٢) أما شهوات الغرور فان بسببها يأتى غضب الله على أبناء المعصية (اف ٤ : ٢٢ ، ٥ ، ٦) .

قد تقول يا أحمى : إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل لنا إذا إلا ترك العالم وهجرانه . فيجيب على ذلك أحد الأفاضل قائلاً « ان الطيور تنزل أحياناً لبعض الحقول لتلثتقط قوتها أو تنحدر على عين ماء لتستقى ولكنها تعلم أن هذه أماكن ليس لها فيها أمان ، لأن فيها ترصد لها الأشراك وتصوب اليها سهام فلا تهدأ إلا إذا صعدت قمة الجو » هكذا ينبغى لنا أن نكون كمن قال عنهم الرسول بولس « والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه » (١ كو ٧ : ٣١) أى أنه يجب أن نعيش فيه مكتفين بقتوتنا وكسوتنا (١ تي ٦ : ٨) وحذرين كل حين لئلا يوقع بنا ويقتنصنا لارادته (٢ تي ٢ : ١٦) وينبغى أن نكون فى العالم بأجسادنا ولكن نتجه الى السماء بأرواحنا وآمالنا وأشواقنا .

قال أحد الحكماء « الزاهدون فى العالم كالنفس فى الجسد فهى فيه وليست منه هكذا هم فى العالم وليسوا منه » وقال آخر « إن المسيحى الحقيقى هو كالسفينة التى فى البحر فلا يفرقها وجودها فى الماء إنما الذى يفرقها دخول الماء فيها .

كذلك المسيحى لا يضره كونه فى العالم بل يضره كون العالم فيه وقال السيد المسيح فى صلاته الأخيرة من أجل تلاميذه « لست أسأل أن تأخذهم من العالم بل أن تحفظهم من الشرير. ليسوا من العالم كما أنى لست من العالم » (يو ١٧ : ١٥ ، ١٦) وقال رسول يولى الذى بذل نفسه لآجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر والشرير، (غل ١ : ٤) .

الفصل السادس

فى ان ظاهر الدنيا خلاف باطنها

«بشفتيه يتنكر المبغض وفى جوفه غشاً إذا حسن صوته فلا تأمنه لأن فى قلبه سبع رجاسات»

(ام ٢٦ : ٢٤ و ٢٥).

«عظم الناس الدنيا وهى حقيرة وأصبح بعضهم يقاتل البعض من أجلها كما تتقاتل الكلاب على الجيفة . حقاً تلوح الدنيا فى الظاهر ذات منظر بهيج يجذب القلوب ولكنها من الداخل مملوءة فساداً وأباطيل . تغريك بأنها جيدة وأن أمجادها حسنة وهى فى الحقيقة تتكلم زوراً وهتاناً . فلا تجعل قلبك إذاً على محبتها ولا يخدعك رونقها فانها تشبه القبور التى تراها من الخارج مبيضة مزينة ولكنها من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نتانة (مت ٢٣ : ٢٧) احترس من أن يخاتلك هذا العالم الغرار، وأن يستهويك يجذب نظرك الى هيئته الخارجية وطلاوته الظاهرة ، لأنك لو تصفحته جيداً وعرفت ما بداخله لشاركت من عرف حقيقة حاله وصحت معه قائلاً «باطل الأباطيل الكل باطل» (جا ١ : ٢).

قال أحد الآباء «لو كان هذا العالم الجميل ينشق بسكين الحق والانصاف ، لظهر أنه زور وباطل بجملته ، لأن كل ما يوجد فيه إما ماض أو حاضر أو مستقبل ، فالماضى لا وجود له ، والمستقبل مجهول غير معروف ، أما الحاضر فهو زمن غير ثابت . إذا باطل الإعتماد عليه ، باطل كل شىء فيه إلا محبة الله والمواظبة على عبادته».

الاناء الفارغ متى ضربت عليه قارعاً يطن بصوت عال . هكذا العالم لو ضربته محتسباً طربه وملذاته فللوقت تسمع رنين أباطيله وطين فانياته ولكنه فارغ عديم الشبث . قال أحدهم «كلما رأيت بناء شاهقاً يناطح السحاب تذكرت الحجر

الصغير المشوه الذى رماه البناء فى الأساس» وقيل ان صنم أبوللون الذى كان فى دلفوس كان مزيناً من خارج بجلى الذهب والفضة وفى رأسه صفائر ذهب مرخية على منكببيه وكان ضابطاً فى يده صاعقة ومسجوداً له من الجميع . إلا أن لوكيانوس عندما عاين قوماً كثيرين يسجدون لهذا الصنم بغاية الورع والاحتشام طفق يستهزئ بهم قائلاً «أيها المساكين انكم إنما تنظرون الذوائب الذهبية من الخارج إلا أنكم لا تدرون أن هذا الصنم الذى أنتم تسجدون له باطنه فارغ وخاو، ترقص فيه الفئران و يعلق به العنكبوت والغبار». هذه هى صورة الدنيا فالناس حولها يسجدون ، وبها يتغنون ، ومجدها يعشقون ، ولا يعرفون أن فى داخلها الفساد والمنون .

ان داود النبى دعا نفسه فقيراً لا لأنه لم يكن له نصيب من مجد العالم ولكن لمعرفته بأن كل شئ دون الله باطل . فهل أدركنا مع داود وهو فى أهة الملك وعلى رأسه التاج الملوكى اننا فقراء ومساكين ؟ لوخير داود بين تاج الملك الأرضى الذى يراه وتاج الملك السماوى الذى لا يراه ، ل طرح الأول وعاش فقيراً ليحصل على تاج السماء لأن ما يرى وقتى وأما ما لا يرى فهو أبدي (٢ كو : ١٨) .

فالحياة واحدة للجميع ليس فى الدنيا طليق وسجين ، ناعم ومعذب ، غنى وفقير . فللطليق من جسده الفاسد أظلم سجن لروحه ، وللناعم من تبكيت ضميره أشد عذاب ، وللفتى من احتياجه للراحة فقر مدقع . هذا على أن الدهر إذا ابتسم لنا يوماً وأضحكنا ساعة فهو يبكينا و يعذبنا الى النهاية . وإذا كنت ترى اختلافاً ظاهراً بين انسان وآخر فتسمع إن هذا سعيد وذاك شقى ، هذا عظيم وذاك حقير ، فاعلم أن هذه الامتيازات ظاهرية فقط ومع أن تاريخ كل انسان يختلف عن تاريخ الآخر وما هو مسجل فى تاريخ كل امرئ من الحوادث يختلف عما هو مسجل فى تاريخ الآخر ، إلا أن أيوب الصديق جمع فى كلمتين ما يصح أن يعتبر تاريخاً لكل انسان إذ قال «الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً» (أى ١٤ : ١) فمن يستطيع أن يقول —مهما كنا نتصوره سعيداً— أنه لم يشع تعباً !

قال السيد المسيح عن العالم «لأنى أشهد عليه أن أعماله شريعة» (يو ٧: ٧) ويحقق لنا هذه الشهادة الاختبار الشخصى الذى يدلنا على أن المظاهر العالمية خلاف باطنها . توجد أشياء كثيرة تلوح للانسان كأنها حلوة وجذابة وهى تطوى فى داخلها موتاً وهلاكاً . توجد أخطار متباينة ونكبات مختلفة مطلية من الخارج بطلاء اللذة والسرور وهى مستعدة أن تفتك بكل من يدنو منها فتكاً ذريعاً . ولكن الكثيرين لا يفحصون تلك الأمور ليروا حقيقتها وما هو كامن فى جوفها ، بل يندفعون إليها بشوق ويلتهمونها بشراهة ، وما تكاد تستقر فى بطونهم حتى يجزوا على الأرض صرعى شهواتهم وأمياهم .

يعلم الجميع أن الموت هو ألد عدو للانسان ، ولكن ماذا نقول إذا كان كثيرون يسعون وراء الموت وهم لا يعرفون . أى أن هذا الموت لا يتمثل لهم بصورة شنيعة تنفر منها الطبيعة البشرية بل يلبس صورة أخرى لينة كما يلبس الذئب ثوب الحمل . والناس يتخذون بهذا الموت المزين المنتكر و يتقدمون اليه غير عالمين أنه عدوهم الألد دون سواه .

يقولون ان الحرب خدعة وكم من مرة سمعنا أن رجلاً قاسياً تزيى باللفظ لكى يهلك عدواً له ، وان جندياً تظاهر لأعدائه بأنه منهم لكى يلقيهم فى بسة لقومه . هكذا الموت يعرض نفسه للناس كل يوم فى أجمل المناظر ، والبشر يجرون خلفه بسرعة ليلحقوه ، وإذا وصلوا اليه أدركوا أنه الهلاك بعينه ولكن بعد أن ينشب أظفاره فيهم و بعد أن يتمكن منهم ولا تبقى لهم وسيلة للخلاص منه .

لقد عهدنا الموت يأتى بشدة وبأس ويجندل الناس فى الحروب بالسيوف والرماح ، وفى المساكن بالأمراض والعلل . ولكنه يأتى أيضاً وهو مطلق بالشور والشهوات فيقبل عليه الناس فيجعل صرعى اللذات والشهوات أكثر عدداً من صرعى الحروب والأمراض . ان الموت يلوح لكثيرين على أسنة الرماح وفى شفرات السيوف فيهربون منه ولكنه يستخدم طريقة أفضل لعدم الخوف منه فإنه يختفى ضمن الشهوات و يتوارى وراء اللذات فيسعى اليه الناس ، وما أكثر عدد قتلاه بهذه الوسيلة الخادعة .

حذار من الطلاء الخارجى والملمس الناعم . احترسوا كل الاحتراس من تلك الأمور التى تخدع قلوبكم وتستهوئ أفئدتكم ثم تفودكم الى العطب والهلاك . هوذا ربيلات ومصائب ونكبات تلبس ثياباً ناعمة . هوذا ضيقات وألام مرة تظهر بمظهر السرور والبهجة . احذروها ولا تقربوا اليها فأنها لا تظهر للطف والكمياسة وقتاً قصيراً إلا لتوقع فى يدها وتعذب الى الأبد من تتمكن من غشهم . قال الحكيم «توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت» (ام ١٤ : ١٢).

يرفع الانسان بصره فى هذا العالم فيرى صورة خارجية تخدعه ولكنه لا يرى له صورة داخلية تنبهه . يرى فى العالم الظاهر وجوهاً مشرقة وشفاهاً تبتسم وألسنة تتلطف وأيدى تمتد للمصافحة وأزهاراً تعبق رائحتها الذكية فيظن أنه سعيد لمشاهدة هذه المناظر، ويخال العالم حبيباً له أتخفه بكل سرور وأهداه كل لذة، ولكنه لو استجلى خوافى هذه الأمور لوجد أن الوجوه لم تشرق إلا لتكبره والشفاه لم تبتسم إلا لتخدعه واللسان لم يتلطف له إلا ليغرره والأيدى لم تمتد نحوه إلا لتتمكن منه والأزهار لم ترسل رائحتها العطرية إلا لتجذبه الى أشواكها وكل منها يكيد له وينصب الأشرار وهو ساه غافل مخدوع، وما أشبه العالم والمخدوع به بالتى وصفها الحكيم بقوله «لأن شفتى المرأة الأجنبية تقطران عسلاً وحنكها أنعم من الزيت . لكن عاقبتها مرة كالافستين حادة كسيف ذى حدين . قدماها تنحدران الى الموت خطواتها تنمسك بالهاوية . لئلا تتأمل طريق الحياة تمايلت خطواتها ولا تشعر» (ام ٥ : ٣-٦).

تأملوا يابنى البشر : أى شئ فى العالم ترونه حسناً غير وعوده الخلابه ؟ نعم أنه يعد بالغنى واللذة والمجد وهكذا يغرى العسل الذباب بالخلاوة . و يعد السراب الايل بالارتواء، وتعذ النار الفراشة بالضوء . ولكن الموت . كائن فى كل هذه لأن الخائن إذا أراد الخداع لا يأتى قاسياً بل ليناً . فكيف قتل قاين هاويل أخاه ؟ اليس بدغوته اياه للتنزه معاً فى الحقل ؟ و بأية وسيلة سقط شمشون فى يد دليلة ؟ اليس لما أنامته على ركبتيها ؟ و بأية واسطة أهلك ايشالوم أخاه امنون ؟ اليس باستدعائه اياه الى وليمة فاخرة ؟ ألا يصح فى ذلك قول القديس يوحنا ذهبى القم «ان من عادة الخائنين أن يقدموا أولاً ما هو عذب لينتجوا منه فيما بعد المر الميت» .

فما أجهل المرء الذى يعرض حياته للخطر مدفوعاً بابتسامة غاشة . و ياغباوة الانسان الذى يهلك ذاته ويحسرنفسه رجاء كلمة مدح ينتظرها . ان آدم وحواء خسرا السعادة بمجرد نظرهما الشجرة . رأياها جيدة للأكل وبهجة للعيون وشهية للنظر فأخذوا من ثمرها وأكلا بشوق مستحسنين هيئتها المنظورة بينما كان فى داخل ذلك الثمر جزاء المخالفة المريع « موتاً تموت » (تك ٢ : ١٧) .

روى أن كليسنوس ملك سكونيا دخل يوماً ليتنزه فى روضة بهجة فوقع بصره على تمشال يحمل بيذة ثمرة ذهبية جميلة يلوح للناظر اليها كأنه يقدمها هدية له . فانشرح صدر الملك بذلك وتقدم ليتناول هذه الثمرة من يد التمثال ولم يكذب يلمسها حتى انشقت وامتد منها سهم حاد كان فى يد التمثال الأخرى ومعداً لهذه الغاية فأصاب الملك أصابة قضت على حياته . لقد كان سبب هلاكه رؤيته الثمرة البهية فى يد التمثال الواحدة فأذهلته عن رؤية السهم فى يده الأخرى . هكذا مواهب العالم وهكذا هداياه فإنه يقدم باليد الواحدة كأساً لذيذاً وباليد الأخرى كؤوساً مترعة بالمر والعلقم ، كما قال الرسول يوحنا « العالم كله قد وضع فى الشرير » (١ يوس : ١٩) .

فاللذة تغدو أمام الانسان كأنها ثمرة شهية ولكنها مقرونة بالأمراض القتالة ، والمال يظهر حسيباً ولكنه يأتى مصحوباً بالقلق المستمر : كذلك الكرامة يخالها الانسان حسنة ولكنها تكلفه احتمال أنواع المشقات . وبالجملة فان العالم يضحك لكى يقسو ، و يتملق لكى يخدع ، ويعفولكى يقتل . وما أحسن قول أحدهم « إن العالم أشبه بالليل ومصنوعاته أضغاث أحلام تستغرق بها النفس وتطفئ بالكذب والغرور . وكما أن الحلم يخدع النفس بالمناظر الخيالية هكذا العالم يخدع الناس بشهواته الباطلة ومقتنياته السريعة الزوال . فقد يتفق لك أحياناً فى الحلم أن ترى نفسك قائماً على عرش الملك متوشحاً بالملابس البهية وحوالك الناس يترضونك ، ولكنك عندما تستيقظ تدرك أن ذلك كان وهماً على هذا المثال يعطى العالم الانسان ما يضل به كالغنى والمجد الباطل وعندما يرقد الجسد رقاد الموت يستيقظ فيتذكر أحلامه ويحجل منها ويمتلئ خوفاً ورعدة » .

أجل : قد تخدع الدنيا بما فيها من جمال ورواء فإذا جالها هو القبح بعينه والدمامة بذاتها . فترى بعينك المرأة المعجبة بجمالها تتحول الى جيفة كريهة ينفر منها الذين كانوا يهيمون بها . ونشاهد الملك العظيم مردولاً من أحقر عبيده . والغنى الموسر يمد يده مستديناً بعد أن دارت الدائرة على كل منهم . فما أقسى تحول الأيام . قال الحكيم « رب ملك معجل فى أوله أما آخرته فلا تبارك » (أم ٢٠ : ٢١).

أى عزيز لم تذله وعظيم لم تحطمه ، وعرش لم تهدمه ، وقصر لم تنقضه وقوى لم تضعفه ، وقلب لم ترمه بسهام أحزانها ، وعين لم تجرحها بالآلها ، وفؤاد لم تصدعه همومها ، وفم لم تذقه مرارتها . أى امرأة لم ترملها ، وابن لم تيتمه ورجل لم تنه ، أى رأس متشاحمة لم تحنها ، وظهر معتدل لم تكسره وشعر لامع لم تبيضه مخاوفها ، فلا بقاء فيها لمجد ولا ضمان لراحة .

قال الرسول بولس « انظروا أن لا يكون أحد يسييكم بالفلسفة وبغرور باطل » (كو ٢ : ٨) فمن يعيش فى الدنيا يحتاج الى من ينبيه دائماً ليستيقظ لئلا يقع فى شركها . لأنها اعتادت أن تظهر الأشياء من الخارج فقط وتخفى ما هو داخلها . تحضر له اللذات بين يديه ولكنها تعمييه عن الشناعة الكلية المخيفة فى باطنها . تبين للبخلاء قيمة الذهب وشرفه ، أما الهموم والغموم الناشئة عنه للأغنياء فلا تترسم اياها ، وقد تعرض بين يدي الانسان كرامات الرياسة وعلو الدرجات ولا تريه ما ينبغى من لوازمها . وهى كابليس حينما أراد أن يجرب السيد فقد كشف له مظاهير الأمور ولكنه أخفى دواخلها ولكن السيد كان يرى ما وراء ذلك المجد الباطل ، وهذا ما يفعله ابليس مع كل انسان وما تفعله الدنيا مع الجميع فهى تريد أن تقدم الخطية للناس ولكنها تعطيها بغطاء اللذة والكرامة لكى تخفى القبح الكائن فيها . أما أنت فالواجب عليك أن تزيح ذلك الغطاء وحينئذ تعلم كثرة غرور الحياة افحص جوف الخطية ترى باطنها أموراً تخاف من مجرد سماعها « فضة زغل تعشى شقفة هكذا الشفتان المتوقدتان والقلب الشرير » (أم ٢٩ : ٢٣).

قيل ان بعضهم اكتشف صخرة عظيمة فى استراليا مكتوب على وجهها « اقلبنى تسعد » فقلها بعد أن قاسى تعباً شديداً فوجد مكتوباً على الجانب الذى

كان محجوباً « اقلبنى ثانية لأخدع جاهلاً آخر ». وهذا شأن الدنيا تطمع في أول أمرها فتخدع فيضيع على الانسان تبعه في طلب ما كان يظنه في أول أمره حلاوة فيجده في نهايته مرارة ، ولسان حال الدنيا يقول « اكنتم أمرك لأخدع جاهلاً آخر مثلك » .

قال سليمان الحكيم « يابنى أن تملك الخطاة فلا ترض » (ام ١ : ١٠) ان أضمن طريق لنجاتنا من مخالب الشرك المنصوبة أمامنا هو أن نهرب منها حينما نراها حسنة أمامنا ولا نقف حتى نسمع كلماتها الناعمة ولا نتنظر حتى نتطلع الى جمال وجهها . جاء في أساطير اليونان عمن يدعى عولس أنه في أثناء تيهانه في البحار رأى أنه سيمر هو وقومه بالصخور التي كان السيرين يغنين عليها غناء مطرباً يجذب المارين بهن فيقتلنهم . فاحتاط لذلك بأن سد آذان من معه بالشمع لكي لا يسمعونهم وأوصاهم أن يربطوه الى سارية المركب ربطاً شديداً وأن يشدوا الوثاق كلها ألح عليهم أن يجلوه ، ففعلوا كذلك . ولما مروا بهن وسمع عولس صوتهن الجميل حاول الافلات ليصل اليهن فشد عليه من معه الوثاق ومروا بهن سالمين فخلص هو وقومه من الوقوع في فخ السيرين والسقوط في تجارهن .

وبمثل ذلك يوصى الرسول بولس تلميذه تيموثاوس قائلاً « وأما أنت يا انسان الله فاهرب من هذا » (١ تي ٦ : ١١) وقال له أيضاً « أما الشهوات الشبابة فاهرب منها » (٢ تي ٢ : ٢٢) وقال الرسول بطرس هاربين من الفساد الذى فى العالم بالشهوة « (٢ بط ١ : ٤) .



الفصل السابع فى أنه لا سعادة فى العالم

«لماذا خرجت من الرحم لأرى تعباً وحزناً فتفنى بالهزى أيامى» (ار ٢٠: ١٨)

يشتهون حياة وبها لا يفوزون . و يتوهمون سعادة ومكاناً لها لا يجدون و يذكرون لذة وهم بها لا يشعرون . أولئك هم بنو البشر الذين رأوا الموت يتهددهم فقالوا حياة ولا حياة . وشاهدوا الشقاء يزعجهم فقالوا سعادة ولا سعادة ، وألفوا المرارة تعذيبهم فقالوا لذة ولا لذة .

أين الحياة والسعادة واللذة فى الدنيا أيها البشر لنسعى وراءها وفى أى مكان توجد فنسير إليها ؟ قولوا لنا فإننا نشتهى الحياة لتعيش والسعادة لتبتهج واللذة لتطرب . أنتم واهمون تعيشون فى الموت فتخيلتم أن هناك حياة حتى تأمنوا قليلاً إذا ورد ذكر الموت على خاطركم وتدومون فى الشقاء فظننتم أن هناك سعادة حتى يهدأ روعكم إذا علمتمهم أنكم أشقياء . وتنشأون فى العذاب والألم فأدى بكم الخيال الى ذكر اللذة لعل ذكراها تلاشى شيئاً من اضطرابكم . قال ارميا النبى عن أمثال هؤلاء « يشفون كسر بنت شعبى على عثم قائلين سلام سلام ولا سلام » (ار ٦: ١٤).

فكل هذه العبارات التى ابتدعها الناس . سعادة . راحة . نعم . لا توجد فى الدنيا ، وأما ما يوجد فى العالم حقاً فهو الخوف والشر والضعف ، وأما تلك الألفاظ المشتهة فقد توهمها الخلق ليزيحوا بالوهم شيئاً مما يلزمهم من العذاب . الحياة لا تصاحب الانسان بل يرافقه الموت . والسعادة مفقودة و يكتنفه الشقاء . واللذة غائبة ونصيبه الألم . إذا سمعتم بواحد يولد تسمعون بألوف يموتون . وإذا ذكر أمامكم

غنى واحد ذكر أمامكم كثيرون من الفقراء وإذا وصل إليكم خبر رجل سعيد طرقت آذانكم أسماء أشقياء لا يحصى عددهم . إذا رأينا قصراً شاهقاً وجدنا حوله ألوفاً من الأكواخ والبيوت الحفيرة .

فالحياة ليست داراً تتم فيها أسباب السعادة بل أن من يتأملها جيداً يجدها مديح . من دموع وأنان وزفرات . من أوجاع وآلام وعذاب . من زلازل وزواجع وعواصف وبراكين وحروب تقضى ممالك برمتها . بلاء في البحر وشقاء في البر . موت شره لا يشبع يرسل رسله الى القصور والأكواخ . أرض تنبت شوكاً وحسكاً واتعاباً وبلايا . فكل ما تراه يلزمك بأن تشهد بأنه « لا سعادة في الحياة » .

ولو أردنا أن نتعرف هل في الدنيا سعادة حقاً فليتنا أن نسأل الأعضاء التي تحسب فينا لنرى ماذا يكون جوابها . ماذا تسمع آذاننا ؟ انها تسمع ما يصدعها أكثر مما يطرها . تسمع في فترات قليلة أصوات ضحك وسرور ولكنها في أغلب الأوقات تسمع بكاء الباكين ونحيب المنتحبين ونشيج الحزانى وعويل المتألمين . صوت الغناء يردها كصوت غريب ، وصوت الأنين يصلها كشئ ألفتة وتعودت سماعه . ماذا ترى عيوننا ؟ ليس في العالم ما يبهجها فإذا شاهدت ما يروق مرة شاهدت ما يجرح مراراً . إذا وقعت على ما يسر دفعة وقعت على ما يحزن دفعات . وماذا يذوق لساننا ؟ أنه إذا تمتع قليلاً بطعام يستطيه وشراب يستلذه فلا ينسى ما يتذوقه من المرارة في إبان الأمراض وفي أوقات الأحزان حيث تتحول حلاوته الى مرارة وارتواؤه الى عطش ويبوسة محرقة . لنسأل القلب مستودع الأسرار . حدثنا عما يدخل اليك من السرور . آه لو فحصنت قلوب الناس جيداً ولو فتحت ليرى ما استقر داخلها ورسب في أعماقها من أنواع هموم مختلفة وغموم متباينة . لو شاهدنا كل ما تطويه : قلوب الناس وتضمه أفئدتهم من آلام وحسرات لصحنا قائلين « أين السعادة ؟ » بل لقال كل منا مع يونان النبى « موتى خير من حياتى » (يونان ٤ : ٨) .

ان الفحمة السوداء إذا اتحدت بالنار صار لونها جاذباً للأطفال ، فإذا لمسوها احترقت أيديهم . إن الرذيلة الشوهاء تتحد باللذة التي هى كالنار فتكتسب بها لونها

لا ينفر الناس منها فيتخذونها سبباً للبهجة وأصلاً للسعادة وإذا بها تحملهم الى الهاوية والهلاك . يخال للواقف على سطح السفينة إنه على شئ ثابت راسخ وهو لا يدري أنه يعوم على سطح الماء ولونفذ قليل من الماء الى السفينة التي اتخذها موطناً له لغاص هو والسفينة في جوف البحر : إن « لالفريد دى فيني » لما وجد كثيرين يتوهمون في الطبيعة عزاء وسلوى خاطبها قائلاً « انهم يسمونك أما حنوناً وما أنت إلا قبر » .

فالانسان إذاً يسير في الحياة ويتوهم السعادة وهماً بينما يحيط به الشقاء وحده من كل ناحية . لذا ترى أفكاره وآماله مزدهمة بمطامع واسعة ومنها تتوقع الفرح والبهجة . ياللعجب هل كل ما تسمعه من المحزنات وما تشاهده من المكدرات وما تحسب به من المولمات غير قادر على اقناعك بأنك تعيش في أرض ليس فيها سرور؟ .

فقل لى بحقك بماذا يتنعم الناس ؟ أبالغنى ، أليس الأغنياء هم الذين يعيشون دائماً فى هم وغم وخوف ووجل ؟ أبالكرامة ؟ ومن يستطيع أن ينكر أن إنعكافه على طلب الكرامة كان داعياً لاضطرابه وقلقه ، وإن سعيه المفرط فى رخاء العيش وزخرف المعيشة ونعومة المجلس كان سبباً لارتبائه وضمك أفكاره باللذة ؟ فليتأمل الخاطئ فى ما تسببه له لذاته من الأحزان الشديدة وما تنتجها شهواته من الهموم المذيبة وما تشمره تنعماته من المخاوف المزعجة . قال اشعيا النبى « لا سلام قال الرب للإشرار » (اش ٤٨ : ٢١) .

وقد سئل أحد محبى الخطية « هل كنت تجد راحة بحصولك على الملذات التي تشتهها ، فأجاب « كنت كلما أجد ملذات وأحصل على منكرات أشعر بأن شهوتى تزداد وتتضاعف ولم أجد راحة . وما كنت استغرق فى الملذات إلا لكى أتسلى عن ذلك القلق الذى كان يعذبنى ليلاً ونهاراً » .

كثيرون يسكرون بالليل والأخطار الهائلة تعترض سبيلهم وهم لا يشعرون . الحشرات تحت أقدامهم ، والحفر فى سبيلهم ، والوحوش تكمن لهم يمينا وشمالاً وهم

مع ذلك يسلكون طر يقهم الوعرة مطمئين غير مهالين بأى خطر من الأخطار . هكذا الذين يسرون فى هذا العالم بعمى القلب والمرضى ينتظرهم والخوف يتهددهم والموت جاثم لهم فى كل بقعة من بقع الأرض قاصداً افتراسهم ومع ذلك يسرون ضاحكين كأنهم لا يرون شيئاً .

ان النائم تمر بجانبه الأفعى ولا يشعر بها إلا إذا لدغته . كثيرون ينامون والخطر جاثم فى قلبهم ، لا يرتعبون ولا يشكون ولا يتألمون بل يرفعون أصوات ابتهاجهم وطربهم . إن الذى يسير فى أرض مملوءة بالأخطار ولم يكن قد طرقها من قبل لا يكون خوفه شديداً لأنه لا يدري أهى أمينة أم خطيرة فالذين يسرون فى العالم بقدم ثابتة هم بعيدون عن معرفة حقيقته ، إنهم يعيشون فى أرض لا تثبت فيها إلا أشواك البلىا والمصائب ولا تكاد تعبر طر يقاً إلا وتجده محفوفاً من كل جانب بأنواع المخاوف .

ان ساعة سرور واحدة تعقبها أعوام من الكدر والكآبة بل ان الفرح يعتبر علة للحزن . وذكر السعادة هو مصدر الشقاء ، ولا يتعذب فى الحياة إلا القوم الذين يعتبرون الدنيا دار فرح ونعيم لهم . ولا يبتهج إلا القوم الذين يتأكدون أنها دار حزن عميق . أن الذين يطلبون السعادة من الدنيا إنما يطلبون المستحيل وهم كمن يطلب البرد من النار والحلاوة من العلقم . قال اسكندر الأكبر المكدونى فى خطابه لأمه عندما شعر بموته : « لا تدخلى اليك إلا من لحفته مصيبة لترى أن المصائب تصيب جميع الناس حتى تتعزى على موتى » ولسان جميع البشر على اختلاف أنواعهم لا يحسن النطق بغير كلمة التذمر والشكوى من أتعاب هذه الحياة .

فحق لك إذن إذا استيقظت من نومك أن لا تفكر فى ما ستصادفه من السعادة بل فى ما سيحل بك من الشقاء لأن مجئ السعادة بعيد وقدم الشقاء قريب . قال أحدهم « إن أبعد سفر هو ما كان فى طلب السعادة ولكن عبثاً نهرب من الشقاء » وهوذا ارميا النبى يسأل نفسه قائلاً « لماذا خرجت من الرحم ؟ » وإذا سأل كل منا نفسه هكذا لسمعنا أجوبة مختلفة فن قائل خرجت من الرحم لأتنعم . ومن قائل لأتعظ . ومن قائل لأفوز بالغنى . ولكن هذه الأجوبة قد أملاها على الناظرين بها .

روح الوهم والغرور. فلنسمع الجواب الصحيح الذى يحققه اختبار كل منا وهو « لقد أتيت الى هذه الحياة لأرى تعباً وحرناً فتفتنى بالحرى أيامى ».

طلبت فتاة صغيرة من شيخ أن يتنبأ لها عن مستقبل حياتها فأجاب بما يعلم عن مستقبل كل انسان « ستملاً حياتك الآمال والأحلام ولكن مالك فى الحياة باطلة وأحلامك فيها خائبة ولن تستطعين الحرص على من يحبونك ولا نيل ما تحبين وستجربين وراء السعادة جرباً تدمى منه قدماك . وستريها فى متناول اليد منك حتى إذا مددت يدك لتقبضين عليها قبضت على الفضاء وسقطت يدك فى الهواء وستجثين عند ذلك على قدميك وتضعين رأسك فوق ركبتيك وتبكين منتحبة حتى يكاد يقضى عليك وتموتين مائة مرة فى أمل خائب ».

فيا لتفاقم جهل الأشرار وغباوتهم . فإذا دخل انسان غابة نصبت فيها أشراك مختلفة وشاهد جثث كثيرين من الذين هلكوا فيها ففى الحال يهرب لينجو بحياته ، وإذا ولج الغابة بعدما شاهد ذلك دعى غيباً جاهلاً . لعمري أنك لأشد جهالة وغباوة منه لأنك ترى صاحبك الذى أحب الغنى وقد مات كئيباً ، والذى أحب اللذة وقد مات تعيساً ، والذى ارتفع الى أسمى درجات المجد وقد انطوى فى القبر البلقع وانهاه عليه التراب ، وأنت مع ذلك تسلك طريقهم كأنك أكبر من أن يصيبك ما أصابهم ويحل بك ما حل بهم . وكثيرون هم الذين جروا وراء مشتياتهم ولما فازوا بها لم يشعروا أنهم أسعد مما كانوا من قبل .

فأى مكان تطؤه قدماك ولا تدوس فيه أشواكاً عرسها العالم لأذية الناس ولا تعثر بجثث الموتى الذين أخذوا بحبه فأهلكهم . قال الحكيم « لأنه ماذا للانسان من كل تعب ومن اجتهاد قلبه الذى تعب فيه تحت الشمس لأن كل أيامه أحزان وعمله غم أيضاً بالليل لا يستر يح قلبه هذا أيضاً باطل هو » (جا ٢ : ٢٢ و ٢٣) فكل شئ فى العالم يسر لا بد أن ينقلب الى ضده فلا غناه غنى ولا خيره خير . إن سعة العيش تنقلب الى الفاقة ، والافراح تتحول الى أحزان . اليوم ترى ذينك العروسين فرحين بحفلة عرسها وغداً يفرقها الموت . فالجزن التابع يفوق الفرح

السابق ، ومن يرفل بالملابس الفاخرة و يزهو بها كالطاووس سيكسوه القبرنسيح العنكبوت .

فهذا المجد الذى نراه بهياً عظيماً يجرى كساع وإذا ركضنا وراءه فاننا نركض وراء الموت وإذا بلغناه فما أعظم شقاءنا . قال القديس أوغسطينوس « ان الخيرات الزمنية من دأبها أن تديننا شوقاً اليها وهي مستقلة . وتشغلنا وتعبنا وهي حاضرة . وتعذبنا إذا بطلت واضمحلت . فإذا انتهت عزت وكبرت ، وإذا إمتلكت صغرت . وإذا فقدت بطلت واضمحلت » .

قالت « ماري انطوانيت » امبراطورة فرنسا « اننى أبحث عن الراحة فلا أجدها » فما أحقر ذوى التيجان وما أشد فعل العواصف بضخام الأشجار وقال بسمارك السياسى الألمانى « لا يمكن أن نجد رجلاً سعيداً فى أحد الأيام : ولو اننى أحصيت الدقائق التى أصبت فيها السعادة لما زادت فى مجموعها عن أربعة وعشرين ساعة » .

جلس أحد ملوك أسبانيا المشهورين العظام على عرش الملك زمناً مديداً بعز عظيم . وقد قال قبل موته لأحد أخصائه « اننى قد قيدت أيام السعادة التى قضيتها مدة ملك ستين سنة وعند اطلاعى على القائمة لأرى كم كانت السعادة انذهلت . فكيف تظنها يا صاح ؟! انها بالحقيقة لم تزد عن يوم واحد كما أن نلسن القائد الانكليزى العظيم الذى كان مولعاً بالشهرة والمجد والعظمة لما تحصل عليها قال يوماً الى أصحابه « اننى رجل عظيم ولا مثيل لى فى العظمة والاكرام ولكننى أتمنى من كل قلبى أن أعود صبياً كما كنت » .

هذا على أن سعادة العالم اذا أمكن الحصول عليها — وذلك بعيد — فكم من الزمن تظنها تدوم ؟ ما أسرع تقلب الأيام وتلون الأوقات : نحن نعلم ما أرق الخيط الحريرى الذى ينسجه العنكبوت حتى أنه العظم دقته يكاد لا يرى ومع ذلك فانه أقوى من الرباط الذى يربط به غنى العالم وما فيه . وهب أن لك حقولاً جميلة وقد هبطت بها الطيور تلتقط منها فتظن أنها أصبحت طيورك لأنها فى حقلك ولكن هل

يمكنك أن تؤكد كم من الزمن تبقى في أرضك؟ ربما بعد قليل تصعد طائرة الى حيث لا تعلم . هكذا مجد هذا العالم وغناه . قال الحكيم «لا تتعب لكي تصير غنياً . كف عن فطنتك هل تطير عينيك نحوه وليس لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء» (أم ٢٣ : ٤ و ٥).

كان سيسوستريس أحد ملوك مصر جباراً عنيداً وفتحاً منصوراً ففى أحد حروبه التى انتصر فيها غلب أربعة ملوك واتخذهم أسرى . ولما كان راجعاً الى عاصمة مملكته منتصراً كان هؤلاء الأربعة الملوك مقطورين فى مركبة يجرونها مكان الخيل . وفيما هم داخلون لاحظ الملك الظافر أن أحدهم يراقب دولاب إحدى المركبات بنظر وانتباه عظيمين وعيناه كانتا شاخصتين ، وبان من أمره أنه غريق فى لبحج الأفكار والدموع تسيل بغزارة على خديه فأمر سيسوستريس بأن توقف المركبة وسأل الاسير ما بالك وماذا تقصد بالنظر الدقيق الى ذلك الدولاب؟ أجاب «انسى وأنا ناظر هذا الدولاب ألاحظ التغيير الدائم والدوران غير المنقطع وانتقال أعلاه الى أسفله وأسفله الى أعلاه يمثل أمامى حالة حظوظ الناس فى هذه الدنيا وتقلب العالم بهم من حال الى حال فاننى كنت بالأمس فى أعلى الدولاب والآن أنا فى أسفله» فلما سمع الملك الظافر هذا الكلام تأثر تأثراً عظيماً وفى الحال أمر بحل الأسرى من المركبة وأطلق سراحهم .

فإذا كانت للعالم علاقة بالملذات فلائنه مقبرتها لا لأنه منبعها وأى مدفن للذات غير العالم؟ ففى المكان الذى تولد تموت وفى المكان الذى تذوق حلاوة الفرح تذوق مرارة الأسى . على الفراش تتلقى القبلة الأولى وعلى الفراش نلفظ النفس الأخير ، والأرض التى نختال فوقها متكبرين نصبح تحتها مذلين . وفى القصر الذى يرتفع فيه صوتك بالضحك يرتفع فيه صوتك أيضاً بالأين . فيه قلت أول كلمة وفيه يحصل صمتك الأخير . فكم من قصور كانت تغلوفها أصوات الأغاني صارت الآن قاعاً صفصفاً وقد اختفت الأصوات وتوارت الأشباح . مظاهر الحياة وقتية فلا ينبغى ان تأبه لها . فالكرمة التى تخضر فى الصيف تيبس فى الشتاء . والبيت الذى ترى منه النور يسطع تأمله بعد حين فإذا به قد انطفأ نوره وغاب سرور أهله . فكم من بيوت مرت بها عائلات متعددة فرأت كيف يدوق أفرادها كؤوس السرور

وكؤوس العلقم شاهدتهم وهم يولدون وأبصرتهم وهم يموتون .

فالنفس اذاً لا يمكنها أن تصادف راحةً أو تحس بسعادة طالما كانت تطلبها من
أعجاب هذا العالم الزائلة والذين يطلبون ذلك يناديهم الله قائلاً « قوموا واذهبوا لأنه
ليست هذه هي الراحة » (مى ٢ : ١٠) فإذا أردنا أن نكون سعداء حقاً فليكن لنا
الايمان درعاً ، ولتكن لنا الفضيلة سلاحاً نصد بها كل ما يعترضنا من صعوبات
هذه الحياة « يأكل الودعاء ويشبعون . يسبح الرب طالبوه . تحيا قلوبكم الى
الأبد » (مز ٢٢ : ٢٦) « فى مراع خضر ير بضىنى . الى مياه الراحة يوردنى »
(مز ٢٣ : ٢) فاء اللذات الدنيوية ممزوج دائماً بالأكدار وأما مياه الراحة الإلهية
فهى صافية نقية لا يعكرها شئ . بل أن ما يجزن أهل العالم ويخيفهم يكون للمؤمن
سبب راحة ومسرة . فإنهم يجدون فى الصبر حلاوة وفى الضعف فرحاً ، وفى
التجارب سلاماً ، وفى الاضطهادات بركة عظيمة . قال الحكيم « التابع العدل
والرحمة يجند حياةً حظاً وكرامة » (أم ٢ : ٢١) وقال أيضاً « بركات على رأس
الصديق ... وشهوة الصديق تمنح .. منظر الصديق مفرح »
(ام ١٠ : ٦ و ٢٤ و ٢٨).

الفصل الثامن فى سرعة زوال هذه الحياة

«أيامى أسرع من عداء . نفر ولا ترى خيراً» (أى ٩ : ٢٥)

لو أد رنا الطرف وتأملنا أحوال البشر لوجدنا حياة الانسان عزيزة عنده بهذا المقدار حتى أنه يفديها بأعز شىء لديه كما نرى أن الذين كانوا مسافرين الى ترشيش ومعهم يونان النبي طرحوا كل ما كان معهم من غال وثمانين فى قاع البحر بغية نجاه نفوسهم (يونان ١ : ٥) .

ولم تعز الحياة على الانسان هكذا الا لتوهمه أن عمره يطول ومدة عيشه على الأرض لا تنتهى حالاً فتراه يحلف برأسه !! وعندما يرى نفسه ذا صحة وعافية يفكر أن الموت بعيد منه ولا يقدر أن يقترب اليه . هذا وأمثاله هم الذين قال عنهم يعقوب الرسول انهم لا يحسبون لانتهاى حياتهم حساباً فيقولون نذهب اليوم أو غداً الى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر ونربح . عوض أن يقولوا ان شاء الرب وعشنا فنناداهم الرسول قائلاً «ما هى حياتكم انها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل»

ومما يدل على جهل الانسان ، أنه ينظر دائماً للذين عاشوا طويلاً ولا ينظرون للذين عاشوا قصيراً . فلماذا تحسب نفسك مع الذين يعمرن للشيوخه ولا تحسبها مع الذين راحوا فى مقتبل العمر ؟ قد يكون خيط هذه الحياة الذى أنت متعلق به شيئاً وثابتاً وقد لا يكون كذلك فتأمل كيف تتخلص مما لا تضمن . حكى أن أحد الأمراء كان ذات يوم معذباً من عسر البول عذاباً أليماً فتنشاور الأطباء فى أمره وأجمعوا على أن يعالجه بالشق فأراد الملك أن يرى التجربة فى غيره قبلاً ، ففتشوا

على من كان مصاباً بهذا الداء حتى وجدوا عشرين شخصاً فعالجهم الجراحون بالشق فشفى منهم تسعة عشر ومات واحد . فعاد الأطباء للملك بفرح يبشرونه بحسن النتيجة ، أما هو فاعتم وقال لهم « ومن أدراى أن لا أكون أنا كالواحد الذى مات لا كالتسعة عشر الذين نجوا » فن غباوتنا اذا ونحن نرى ألوفاً ينقلون الى المقابر فى عنفوان شبابهم أن نعتقد بأننا سنعيش حتى الشيخوخة .

قال أحد الحكماء « الذى لا بد منه ينبغى أن نقبله بفرح وسرور » فكثيرون يخافون من الموت و يظنون أنه يمكنهم بواسطة حذرهم أن ينجوا منه حتى أن بعضهم يسألون المنجمين كيف يموتون لكي يحتاطوا لها و يقضوا أوقاتهم بالاحتياط من الأخطار والتحرز من أسباب الهلاك الى حد يورثهم الوسواس والجنون فيحاذرون ويحرمون أنفسهم لذة الطعام والشراب و يتوهمون ان فى كل جرعة غصة و يتخيرون لهم أنواعاً خاصة من الغذاء الى أن يملكهم الخوف حتى ينتهى بإضعاف أجسادهم فيستعملون الأدوية وهكذا تحل بهم الأمراض التى حاولوا الهروب منها فلم يفلحوا .

والغريب أنهم لا يكتفون بمقاومة ما فى طوقهم مقاومته بل ينصرف همهم الى دفع ما لا دافع له من القضاء المحتم . فمنهم من لا يركب البحر خشية العرق ، وفى البر مصادمة القطارات ، وقد بلغ الحمق برجل يدعى أرتيمون أنه كان يجعل اثنين من عبيده يحملون فوق رأسه دائماً ترساً خوفاً من أن يسقط عليه شىء من العلاء فيقتله .

أمثال هؤلاء يستبعدون الموت و ينكرونه فلا يكادون يصدقون موت الفجأة ، فإذا أخبرتهم بجاذة من هذا القبيل أخذوا يتعللون لذلك العلل و يتحملون الأسباب و يستحلون للميت أمراضاً كامنة وأدواء مزمنة لم تكن به . واذا أخبرتهم بموت شاب فى ريعان شبابه و غضاضة سنه أخذوا يز يدون ما شاءوا من السنين فى عمره ، ومن هذا القبيل ترى كثيرين ولعوا بإخفاء حقيقة أعمارهم والاجتهاد دائماً فى تنقيص سنينها ومنهم من يصبغ شعره الذى بيضه طول الأجل بالأصباغ السوداء ليوهوا ذواتهم وليعشوا أنفسهم وليطرحوا من فكرهم إمكان مفاجأة العدو الألد لهم على حين غرة منهم وهم فى مظهر القوة والشباب وليطمئنوا على هذا التراخى الموهوم .

غير أن تحرز واحتياط من هذا القبيل لا يجدى نفعاً ولا يغنى في حفظ الحياة . وهوذا أيوب الصديق يقول « إذا مضت سنون قليلة أسلك في طريق لا أعود منها » (أى ١٦ : ٢٢) ويقول أيضاً « لأننا نحن من أمس ولا نعلم لأن أيامنا على الأرض ظل » (أى ٨ : ٩) ويوضح ذلك أيضاً ما قاله داود النبي « عرفنى يارب نهايتى ومقدار أيامى كم هى فاعلم كيف أنا زائل . هوذا جعلت أيامى أشباراً وعمرى كلاشئء قدامك أئماً نفخة كل انسان قد جعل . سلاه . إنما كخيال يتمشى الانسان » (مز ٣٩ : ٤ - ٦) وقد شبه الكتاب حياة الانسان بريح تذهب ولا تعود (مز ٧٨ : ٣٩) .

كل البشر يعلمون انهم سيموتون ولكن كثيراً منهم خدعوا فتصوروا أن الموت بعيد عنهم بعداً شاسعاً كأنه لن يدنو منهم ، فلا يغشنا هذا الخداع ، وأيوب ينهنا قائلاً « الانسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً . يخرج كالزهر ثم ينحسم ويرح كالظل ولا يقف » (أى ١٤ : ١ و ٢) وقال اشعيا النبي « صوت قائل ناد . فقال بماذا أنادى . كل جسد عشب وكل جماله كزهر الحقل . يبس العشب . ذبل الزهر لأن نفخة الرب هبت عليه » (اش ٤٠ : ٦ و ٧) .

ان الأيام تتمر بسرعة وأنت تسير نحو الموت فلا تتكل على شئء حتى تأمن لحياتك وتجهز طعام السنين المقبلة . لا تفرنك صحتك الجيدة وأعضاؤك القوية فكم من كثيرين ذوى صحة وعافية ودم الشباب يجرى فى عروقهم ولكن الموت لم يخف منهم بل سطا عليهم وأرداهم وأذوى غصن صباهم . ولا تعتمد على غناك لأن الموت لا يقبل رشوة « لا ينفع الغنى فى يوم السخط » (ام ١١ : ٤) ولا تظن أن أهلك يتمسكون من إنقاذك « فالأخ لن يفدى الانسان فداء ولا يعطى الله كفارة عنه » (مز ٤٩ : ٧) .

أعتبر أيها الانسان بمن تراهم معك الآن ثم يفارقونك فى لحظة ولا تعود تراهم فما أنت إلا واحد منهم ولا بد أن يحل بك ما حل بهم . فنهار أمس قد مضى ونهار غد لا نعلم هل نخطى به أم لا وقد عبرت عدة ساعات من اليوم الجاضر وزالت منا .

والساعات الباقية لا نعلم هل نبغ اليها أم لا لأن الموت ينازعنا فيها . وكما قال أيوب « روحى تلفت . أيامى انطفأت انما القبور لى » (أى ١٧ : ١) .

وينكل صدق وصواب يسمى الكتاب هذه الحياة (ظل الموت) (مز ٢٠ : ٤) وهالك المرتل يقول أيضا « أيامى كظل مائل وأنا مثل العشب يبست » (مز ١٠٢ : ١١) وقال أيضا « الانسان أشبه نفخة . أيامه مثل ظل عابر » (مز ١٤٤ : ٤) فملك أن تختبر أيها الانسان خيالك الذى لا يثبت فى موضعه دقيقة واحدة . ضع حداً وقف مكانك ثابتاً وانظر الى خيالك لتشاهده وقد انتقل عن الحد المعين . فالظل لا يبرح متنقلاً من الصباح الى المساء ، والعمر يواصل انتقاله من صباح الميلاد الى مساء الموت .

أجل ان حياة الانسان أسرع زوالاً من جميع الأشياء . يمكنه أن يضمن بقاء ثروته أو ثيابه للصبح ولكن لا يمكنه أن يضمن حياته . لأن الأرزاق والثروة وما يضاهيها قد تبقى موجودة بعد موت الانسان وتنتقل الى سواء ، أما الحياة فانها معرضة للزوال بسبب قليل من البرد أو الحر أو من مقدار ذرة من السم ، فثل هذه الأشياء اليسيرة تكفى هدمها وازالتها : ومن يتأملها جيداً يجدها أسرع عطياً من الزجاج لأن الزجاج لا يكسر الا بلامسته . أما الحياة فلا يمكننا أن نحفظها من الهلاك .

لم نسمع عن كثيرين قد ماتوا بالسكته القلبية فى الوقت الذى كانوا يتباهون بقوتهم واعتدال قوامهم ، ان الانسان أشبه برجل نائم فى غابة وحوله ألوف من الوحوش والحشرات وكلها تجد فى طلب الفريسة وهو لا يدري أن كل شىء فى الوجود يسعى لافتراسه ، بل لو تأملت أيها المرء لوجدت أن جسدك مركب من العناصر المضادة التى يجارب بعضها بعضاً ويجد بعضها فى اباده البعض الآخر أى فى اباده الحياة . ففى داخلك ما يناديك بقضاء الموت المحتوم عليك عاجلاً . قال أيوب « فى لحظة يهبطون الى الهاوية » (أى ٢١ : ١٣) وقال أيضا « بغتة يموتون » (أى ٣٤ : ٢٠) وقال الحكيم « الكثير التوبخ المقسى عنقه بغتة يكسر ولا شفاء » (أم ٢٩ : ١) .

هذا على أن الانسان إذا عاش طويلاً فهو عند موته لا يدري بحياته التي مرت .
ولا يعتبرها أكثر من لحظة ، وعند حلول الموت وانقضاء الزمان لا فرق بين من عاش
عشر سنين ، ومن عاشت ألف سنة .

ان حياة كليهما ابتدأت بالولادة وانتهت بالموت . فكلاهما ولد ومات فالألف
سنة تعتبر عند الموت كيوم واحد . قال أيوب البار الذي عاش مائتين وخمسين سنة
« أليست أيامي قليلة » (أى ١٠ : ٢٠) فعنده ان الحياة التي تدوم ثلاثة قرون
ليست بشيء ، وهاكم يعقوب البار إذ سأله فرعون كم هي أيام سنى حياتك ؟
أجاب « أيام سنى غزبتى مائة وثلاثون سنة . قليلة وردية كانت أيام سنى حياتى
ولم تبلغ الى أيام سنى حياة آبائى فى غربتهم » (تك ٤٧ : ٩) .

فقل فى نفسك اذا أئين رفاقى وخلانى الذين كنت منذ وقت قصير العب معهم
وأتلذذ واطرب . لقد جازوا وتركوك وحدك . كثيرون منهم اضطجعوا على أسرهم
وهم يفكرون فى الملذات التى يستمتعون بها وزارهم الموت بغتة فحملوا من
مخادعهم الى المقبرة اغمضوا عيونهم ولم يفتحوها . ضموا أيديهم ولم يبسطوها . احنوا
رؤوسهم ولم يرفعوها . قال هوميروس « حياة الانسان أشبه شئ بورق الشجر الذى
لا يدوم أكثر من فصل سنوى » وقال أحد القديسين « انه لا عدو الأسد ولا طيران
الباشق ولا مروق السهم فى الهواء يعبر أتم تعبير عن قصر هذه الحياة وزوالها » .

فكل هذه الأقوال توضح لنا جلياً ماهية الحياة ومن يفحصها أكثر يجدها على
هذه الصفة . يوم يطرد يوماً وسنة تهزم أخرى . فكما أن يوم أمس طرد الذى قبله
كذلك هذا اليوم دفع أمس و يوم غد يدفع يومنا هذا وهكذا فالأيام يودع بعضها
بعضاً ويمر الواحد بعد الآخر وتسوقنا سرعة مرورها الى الموت . يوم يظهر وليل
يختفى . يوم يختفى وليل نجىء ونحن بين لذة النهار وأمل الليل نعيش فى غفلة
ولا نعلم أن النهار سينقطع ظهوره ونبقى فى ظلمة القبر . قال المرتل « ترجع الانسان
الى الغبار وتقول ارجعوا يا بنى آدم . بالعادة كعشب يزول بالعادة يزهر فيزول . عند
المساء يجز فيبيس . أيام سنينا هى سبعون سنة وان كانت مع القوة فثمانون سنة
وأفخرها تعب وبلية لأنها تقرض سريعاً فتطير » (مز ٩٠ : ٥ و ١٠) .

فهذه الحياة وان ظهرت لنا طويلة فهي قصيرة جداً حتى أنه لا يمكننا أن نضمن
عمرنا دقيقة واحدة . وكما أن الضباب الذى يرتفع الى الجو تذيبه أشعة الشمس
كذلك حياتنا التى نرغب فيها ونوهاها والتى تظهر لنا عظيمة وغالية بهذا المقدار فانها
بعد قليل تزول وتمضى كقول المرتل « افنينا سنينا كفضة » (مز ٩٠ : ٩) فلا تسلم
إذاً عن الانسان كم يكون عمره بل سل كم سنة مرت من حياته لأنه بمقدار ما تنمو
الأشجار فانها تميل الى السقوط ، كذلك حياة الانسان كل ما يمر منها فانه يقدمها
الى الفناء .

قال حزقياس النبى « مسكنى قد انقطع عنى كخيمة الراعى لفتت كالحائك
حياتى . من السنول يقطعنى . النهار والليل يفينى » (اش ٣٨ : ١٢) فهو يشبه
حياته بالنسيج لأنه كما أن النسيج يتكون بكثرة الخيوط هكذا الحياة تتكون بكثرة
الأيام . قال أيوب أيضاً « أيامى أسرع من الوشيعة وتنتهى بغير رجاء » (أى ٧ : ٦)
وشبه سرعة أيامه فى مكان آخر بأكثر من سرعة العداء أو الراكض غير أن العداء لو
أسرع الجرى بما يفوق قوته فلا بد من الوقوف بعض الأحيان للأكل والنوم وما يضطر
ليه الجسد . أما أيام الانسان فلا تزال هاربة على الدوام وتجرى الى الموت سريعاً .

قال أحد الأفاضل « لو أردنا أن نعرف حياة الانسان فيلزمنا أن نجتمع نقائص
البرية كافة وجميع حقايرها وكل نوع من شقائها لنشبه بها فناء هذه الأجساد فنأخذ
من الزهور ذبونها ومن الشمس غروبها ومن كافة الكواكب خسوفها ومن الفصول
تغيرها ومن كل شئ اضمحلاله وزواله » ولذلك نحن نجد أن جل كتبه الكتاب
المقدس اجمعوا على تشبيه حياة الانسان بزهر الحقل . وقد أراد بذلك أن زهر الحقل
أكثر الأشياء تعرضاً للأخطار ، فالشمس تيبسه . والريح الباردة تجففه . والناس
تدوسه والحيوانات تأكله ، والماء يفرقه ، والحريذبله . وهكذا أى لسان يستطيع أن
يحصى كثرة الأخطار المحيطة بالانسان المهددة لحياته ؟ ومن ذا الذى يمكنه أن يعد
الأمراض المتباينة التى تصادفه وهو لا يشعر بها ؟ .

وقد شبه أيوب حياته بالسفينة فى قوله « تمر مع سفن البردى » (أى ٩ : ٢٦)
وذلك لأن السفينة مع كونها تسرع فى جريها فانها معرضة لأخطار كثيرة لا تلافيها

فإذا صدمت صخراً انكسرت ، أو رملاً انفرست . هيجان يفرقها والرياح العاصفة تحطمها . قال أحد القديسين « من يركب سفينة و يسافر في البحر لا يزال سائراً مع كونه لا يتحرك . وأنت على هذا القياس ولو ظهر لك أنك واقف في الدنيا فأنت سائر بسرعة الى الموت ومحاط بمجرذين أحدهما أبيض والآخر أسود ، وهما النهار والليل اللذان يقرضان العمر على الدوام » ولهذا لا يمكننا أن نسر ونتمتع بخيرات حياة كهذه .

أية لذة يجدها من ينظر أسداً آتياً نحوه بسرعة البرق فاغراه لافتراسه . وهكذا أى سرور يحصل عليه من يعيش في هذه الدنيا وهو يرى الموت هاجماً عليه كالوحش الكاسر في كل لحظة . إن الله في جعله حياتنا سريعة بهذا المقدار كأنه يقول لنا « استعدوا للموت بالايان الحى والعمل الصالح فى كل حين » .

* * *

الفصل التاسع فى فناء المجد العالمى وبطلانه

« لا تخش إذا استغنى انسان إذا زاد مجد بيته لأنه عند موته كله لا يأخذه . لا ينول وراء مجده .»

(مز ١٦: ٤٩ و ١٧)

كثيرون من بنى البشر إذا لاحظتهم فى تصرفاتهم ترى أن كل ما تنطوى عليه أفئدتهم وما ترغبه قلوبهم هو « المجد العالمى » فله وحده يكرسون حياتهم و يبذلون كل قوى نفوسهم للحصول عليه و يعرضون ذواتهم للخطر فى السعى وراءه وهم فى كدهم هذا وجدهم يقولون بلسان حالهم « لا نشتهى إلا مجد العالم وليست لنا أمنية سواه ومحبتنا له لا تسمح لنا بالتفكير فى غيره .»

ولكن وا أسفاه فاننا والعالم الى الباطل ، وهوزائل بزوالنا وهوذا المرتل يقول « يذخر ذخائر ولا يدري من يضمها » (مز ٣٩ : ٦) ليت شعرى ما هو الغنى الذى يعتد به الانسان ولأجل الحصول عليه يرمى بنفسه فى مخاطر الموت ؟ وما هذه المراتب والوظائف التى تسلب عقول البشر وتستوى أفئدتهم وما هذه الخيرات العالمية التى عندما نفوز بها فى هذه الحياة فسرعان ما تفارقنا عند ولوجنا الدار الأخرى ؟ لأجل هذا ينهنا الكتاب الالهى قائلاً « لا يفتخرن الحكيم بحكمته ولا يفتخر الجبار بجبروته ولا يفتخر الغنى بغناه » (ار ٩ : ٢٣) .

حقاً ينبغى أن ندعويوم الموت « يوم الخسارة » ولو سألتنا أقرباءنا وأصدقائنا الراحلين لأجابونا محذرين إيانا قائلين « احترسوا من ضياع أعماركم فى خدمة هذه الأُمجاد الكاذبة لاننا لم نأخذ شيئاً منها بل خسرنا كل تعبنا لأجلها . وقال أحد الأفاضل : اننا لا نقدر أن نعتبر هذه الأشياء ملكاً خاصاً بنا لأننا لا نقدر على

أخذها معنا الى العالم الآخر» ما الذى بقى من قدرة اسكندر الكبير وغنى كروزوس وجمال الملكة كليوباترة؟ لقد انذهل الناس منهم فى حياتهم وتحدثوا عنهم بعد مماتهم، بينما هم الآن تعساء أشقياء. قال القديس أوغسطينوس «أنهم يدحون حيث لا يوجدون ويعذبون حيث يوجدون».

ان كثيرين من البشر يشتهون لو ذاع صيتهم واشتهر اسمهم بين الملأ ولكن مهمل طارصيت الانسان الى أقاصى الأرض فعلم قليل يموت ويصبح أمره نسياً منسياً. فن الغباوة اذاً أن نخسر الخيرات الأبدية لأجل هذه الأشياء الدنيئة ما اشبهنا بعيسو الذى باع بكور بنته بأكله من العدس. فلا تشته العظمة العالمية ولا تنبغ اللذة الأرضية فإنه سيأتى وقت فيه يتساوى العطاء والأذنياء، الأغنياء والفقراء، المتنعمون وغير المتنعمين ويصبح «عال ودون، أغنياء وفقراء سواء» (مز ٤٩: ٢).

أجل ان الغنى فى هذا العالم يتنعم أكثر من غيره ولكن هل عند حلول المرض تخفف عنه القاعات المرينة الأوجاع، هل يزيل الذهب والفضة مرارة القلب؟ وهل الثروة والمجد يطردان عنه الآلام؟ وعند احتضاره وانطفاء نور عينيه ماذا ينفعه من الغرور واللذات؟ أين تكون المشتيات والتنعيمات؟ هوذا الحكيم يقول «من يتكل على غناه يسقط. أما الصديقون فيزهون كالورق» (أم ١١: ٢٨).

قد يوسع الانسان مداره ولا يقتنع، مع أنه بعد موته لا يملك من الأرض سوى قطعة صغيرة تجمع عظامه البالية، وقد يجب الانسان علو البناء بينما يد الموت تحفر له فى الأسفل، وقد يلذذ جسمه ولكنه فى الحقيقة يقدمه وثيمة للددود والحشرات. قد يرغب الاضطجاع على فراش ناعمة وثيرة ولكنه فضلاً عن أن ناعم الفراش يكون له شوكتاً فى غضون المرض فإنه يتحول الى لحد وتراب ممزوج بالحصى. فأين الصيت والفخر العالمى؟ قد انتزعا. أين الأمر؟ قد بطل. أين الهيبة والعظمة؟ قد سقطتا.

فلا جمال يدوم ولا قوة تبقى ولا سعادة إلا وتنتهى. فإذا كنت ترى شخصاً قد طلعة بهية ولسان فصيح وقدمين سر يعتنن و يدين عاملتين فتأمله بعد حين تراه قد

انحل و بطلت حركة اعضائه ، فيصمت فه وترتخي يده ورجلاه وتهمد أعضاؤه ،
و يتحول ذلك الجسد النضير الى جثة صفراء خرساء لا يستطيع الانسان أن يثبت
نظره فيها لشناعتها . ولا يقف أمره عند هذا الحد بل يطرح في التراب و يصير مأكلاً
للحشرات فيقول للقبر أنت أبى ولدود أنت أمى وأختى « (أى ١٧ : ١٤).

فحياة كهذه لا دوام لها لا يصح نسيان النفس لأجلها ولا يتبغى التباهى بها .
يملك الانسان كل ذهب العالم وليتمتع بكل بطل الشهوات وليسكن أعلى القصور
ويلبس أفخر الثياب ولكن ما هي قيمتها إذا كان لا يضمن بقاءه للتلذذ بها . ما
أصدق وصف الرسول لها « لأن كل جسد كعشب وكل مجد انسان كزهر عشب
والعشب يبس وزهره سقط » (١ بط ١ : ٢٤).

ينعمون أجساداً ستفسدها أحقر حشرات الأرض . و يزينون قواماً سينحى
رغمماً . و يتمايلون بأعناق ستكسر يوماً و يفتخرون بعيون سيغلقها الموت . فحب
العالم جاهل ومغرور . لنفرض أنه فاز بجميع ما يشتهى فكف من الزمن يمكن أن تدوم
سعادته على الأرض ؟ هل يمكن أن تدوم له أكثر من مدة حياته ؟ و بعد وفاته لا
يستطيع أن يأخذ قصره معه ولا يمكنه أن يقول للمال تعال اصحبني ، ولا يلتمس
من المجد أن يرافقه .

ان سليمان الحكيم الذى وفر لنفسه كل أسباب السعادة الدنيوية لما أفتر أنه
لا بد من أن يماتيه الموت على حين عطفة فيطرحه من أعلى مجده الى الخسيس
و يربط يديه عن العمل ورجليه عن المسير و يسد فاه عن الكلام ويملاً عينيه من
الظلام ويحرمه من كل ما عملت يده ولا يبقى بعد ذلك فى بيته بل يدفع الى القبر .
لما رأى كل ذلك دعا ملكه وكنوزه وملذاته حتى حياته باطلاً (جا ١).

وقيل أن أوغسطس وهو يجود بأنفاسه الأخيرة قال « يا فارس رد لى جيوشى
الجرارة لأودعها بنظرة إذ لا أستطيع قيادتها بعد فإن أوامر الهية تتخلل دماغى »
وحكى أن صلاح الدين الأيوبي سلطان العرب المشهور الذى دوخ أنبلاء بفتوحاته
وغزواته لما دنا أوان موته أخذ وهو على فراش المرض يتن و يتهد . ولما اجتمع حوله

الأمرء والأعيان وكبراء المملكة أمر أن يؤتى بالكفن الذى كان مزماً أن يلف داخله وأشار الى أحد الموظفين أن يأخذ الكفن و ينصبه على رأس رحه الظافر و يسلمه لأحد سعاته ليطوف به فى جميع شوارع المدينة و ينادى قائلاً « ان سيد الشرق لم يستطع أن ينزل القبر الا برداء واحد ».

كان فى بلاد الروم مما يلي أرض الأندلس مسيحي تقى رغب عن العالم وزهد فيه ثم وفد على المستعين بن هود فى بعض الأمر فأكرمه ثم أخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائن أمواله وما حوته من النفائس وأوقفه على ما لديه من الخدم والحشم والعبيد والجوار وأقام على ذلك أياماً فلما انقضت قال له : كيف رأيت ملكى ؟ قال له رأيت ملكك عظيماً ولكنه يعوزه شئ واحد إن أنت قدرت عليه تم انتظامه . وإن لم تقدر عليه فيكون هذا الملك كلا شىء . فقال وما هو ؟ فأجابه أن تصنع غطاء حصيناً قوياً تكون مساحته قدر مساحة البلد ثم ترفمه على البلد حتى لا يجد ملك الموت اليك سبيلاً . فقال المستعين : سبحان الله . أيقدر البشر على مثل هذا ؟ فقال الرجل « لماذا إذاً تفتخر بأمر تتركه غداً ؟ فان مثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه فى النوم ».

وقد قيل ان سراى ملوك النمسا التى لبثت قائمة ٧٠٠ سنة حولت بعد طرد الملك منها الى مكاتب للحكومة والشركات ، والحديقة العظيمة التى لم تطأها إلا أقدام كبار الضباط قد قسمت الى دكاكين صغيرة لمعارض وقتية ودائمة لا يسمع فيها إلا أصوات التجار ومساومات الباعة والمشتريين . فسبحان من يغير ولا يتغير . كيف لا وهو القائل لسبوخذنصر « لك يقولون يانبوخذنصر الملك . ان الملك قد زال عنك . ويطردونك من بين الناس وتكون سكناك مع حيوان البرو يطعمونك العشب كالشيران فتمضى عليك سبعة أزمنة حتى تعلم أن العلى متسلط فى مملكة الناس وأنه يعطيها من يشاء » (٤١٥ : ٣١ و ٣٢) .

يوجد كثيرون يحسدون الملوك على ملكهم والأغنياء على غناهم و يشتهون لو يكونون نظيرهم ، ولكن أنظر يا هذا الى أولئك المجدين كم يدوم مشهد مجدهم هذا ؟ غداً يموتون و يصبحون محقرين مداسين بالأقدام و ينفض عنهم كل التملقين

و يدومون منفردين فى ظلمة القبر. فالموت يعرى الانسان من كل خيرات العالم . وهو لا يخلع الانسان من الدنيا فقط بل يسلخه منها . ما أعظم الفرق بين خلع الثياب وسلخ الجلد فإذا رأيت محب العالم وهو يموت أقيته يبكى بدموع سخينة وإذا سألته لم تبكى ؟ أجابك كيف لا أبكى أسفاً على مفارقة ما قد اكتسبته بجد وعناء مستحيلين . كيف لا أبكى وأولئك الذين يحبوننى و يشفقون على هم أول من يسلموننى الى القبر و يتركوننى فى ظلمته وحدى ، وإذ يرى نفسه محمولاً لترك كل ما أتكل عليه فن يستطيع أن يصف مقدار حزنه وحرقتة وندامتة ؟.

فياله من منظر محزن أن يشاهد ذلك العظيم خارجاً من قصره الى قبره دون أن يكون له أمل بالرجوع الى القصر مرة أخرى فيأتى غيره و يستولى على كل ماله ، وأهله ينقلونه بالبكاء مستوراً ببعض الملابس التى لا تحفظ جسده من الفساد . فلا يجد بعد من يواسيه أو من يجالسه ، ولا يبقى اعتباراً لأوامره و يتساوى بأحقق حقير فى الأرض و يصبح فى عداد المهملين فلا يذكر بعد و يتم عليه القول « الغنى والفقير يتلاقيان صانعهما كليهما الرب » (ام ٢٢ : ٢) « كلاهما يضطجعان معاً فى التراب والدود يغشاها » (أى ٢١ : ٢٦).

قيل ان ديوجينيس الفيلسوف اليونانى مثل يوماً أمام الاسكندر الأكبر وأظهر أنه مهتم جد الأهتمام بفحص إحدى جماجم الموتى . فسأله الملك قائلاً « علام تفتش هكذا بعناية فيما بين هذه الجماجم » فأجابه ديوجينيس إنى أفحص عسى أن أجد حجممة أبىك الملك فيليس ولكنى ما قدرت أن أميزها عن باقى الجماجم فإن كان يمكنك أن تعرفها فأرنى إياها » وقال سينكا الفيلسوف : ان البشر يتميز أحدهم عن الآخر فى المولد ولكن بعد الموت يتساوى الجميع » وقال أوراثيوس ، ان الموت يجعل صولجانات الملوك مماثلة لمعاول الفلاحين ».

وقال القديس افرام السريانى « مررت يوماً على قبر فى قفر فسألت : لمن هذا القبر؟ فقيل لى هو : لأحد الملوك العظماء وقد دفن فيه رجل صلوك بجانب الملك . تعال وانظر لعلك تستطيع أن تميز جثة أحدهما عن الأخرى . فوقفت على باب القبر المفتوح ولوائح الحزن على وجهى فنظرت أولاً جثة الفقير مطروحة فى التراب ونسج

العنكبوت نجيم على رأسه وأسنانه عارية من الجلد وفيه مملوءاً تراباً وعظامه مجردة من اللحم الذى استحال الى تراب وتنانة . فقلت واحسرتاه على الفقير كيف تغير حاله ! وظننت أن الملك يمتاز هناك كامتياز ههنا ويكرم مثواه حيث حل ، وتوقر جشته فى القبر كما كان شخصه موقراً فى العالم . غير انه قد خاب ظنى لكونى رأيتة وقد اعتاض عن عرش الملك والاعتبار بمكان الذل والاحتقار وعن الطيوب الزكية بالتنانة الرديئة ، وعن كرامته فى هذا الزمن بهوة الرسم والدمن .» .

قال حكيم لأحد أصحابه : أترىد أن أريك الدنيا ؟ فقال نعم . فأخذ بيده وانطلق حتى وقف به على مزبلة فيها رؤوس آدميين ملقاة وبقايا عظام نخرة وخرق وقد تمزقت وتلوثت بنجاسات . فقال هذه رؤوس الناس التى تراها مثل رؤوسكم ، كانت مملوءة من الحرص والاجتهاد على جميع الدنيا وكانوا يرجون من طول الاعمار ما ترجون . وكانوا يجدون فى جمع المال والاهتمام بالدنيا كما تجدون . أما اليوم فقدت تلاشت أجسامهم وتجردت عظامهم كما ترى . وهذه الخرق كانت أثوابهم التى كانوا يتزينون بها واليوم قد ألقها الريح فى مستودع الأقدار . وهذه النجاسات كانت أطعمتهم اللذيذة التى كانوا يحتالون فى تحصيلها واليوم لا يقربها أحد من نتانها . فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى . فمن أراد أن يبكى على الدنيا فليبك فإنها موضع البكاء .

وما أجل قول القديس يوحنا ذهبى الفم : « انك أيها الانسان إذا كنت تفتخر بما تتزين به من حرير ووصوف فأعلم إن هذا كساء الحيوانات الحقيرة التى تمرغت فيه قبلك وأنت تلبس الآن فضلاتها » .

وقال هذا القديس أيضا « تأمل يا هذا الى قصور العظماء والكبراء كيف أنها خاوية خالية وقد انقلبت بكرور الدهور والعصور الى أطلال باليه ينعب فى أرجائها السوم والغراب . ليت شعرى كم من الشرور كان يفعل هؤلاء ! وها هم الآن لا يسمع لهم صوت ولا تذكر أسمائهم : فأين أولئك الذين كانوا يغترون بجاههم ؟ أين الذين كانوا يمدحونهم ؟ أين الذين كانوا يضررون لهم على آلات

الغناء؟ أين المضحك والاستهزاء؟ يا للأسف لقد باد الكل وفنوا وخلت منهم
أماكنهم .

فما أشبه مرور الانسان فى الدنيا بمرور السفينة فى البحر فانها لا تبقى أثراً
وراءها يدل على مرورها ، هكذا حياتنا . حقاً أن الدنيا تغفل عن أهلها وتهملهم
وحدهم . أما حياتهم فقد انصرفت والأيام دفنت ذكراهم . حتى قبورهم الفخمة
هدمت ودفنت ولم يبق لهم أثر ولا اشارة . قال الحكيم « لأن الغنى ليس بدائم ولا
التاج لدور قدور » (ام ٢٧ : ٢٤) .

فيا للأسف على من أحبوا العالم وعشقوا مديح الناس فجدوا وكدوا لنوال المجد
ومع ذلك مروا دون أن يعرف مكان مرورهم . كم من الناس نظيرنا قد عرفناهم
وعاشرناهم وسررنا بمحادثتهم هم الآن مدفونون تحت أقدامنا فالموت قد ساد جميعهم
فلا يرجعون إلينا بل نحن راحلون إليهم . كل الأشياء سريعة الى البوار ونحن قريباً
ننفصل بعضهمنا عن بعض تاركين كل أفراحنا ومسرارتنا وأحيائنا . واليوم قريب
الذى فيه يأكلنا الدود ونستحيل الى تراب ورماد .

فالواجب علينا إذ أن لا نعتد بهذا المجد العالمى و ينبغي أن نزن الخيرات الزمنية
بالميزان الصحيح فحينئذ نجدها عديمة القيمة كقول الكتاب « إن زاد الغنى
فلا تضعوا عليه قلباً » (مز ١٢ : ١٠) حتى قال القديس أوغسطينوس « لا تنظر أيتها
الانسان الى ما كان يملك الغنى بل انظر الى ما أخذه معه » وبحقته قول الكتاب
« كما خرج من بطن أمه عرياناً يرجع ذاهباً كما جاء ولا يأخذ شيئاً من تعبته
فيذهب به فى يده » (جا ٥ : ١٥) وقوله أيضاً « لأننا لم ندخل العالم بشئى وواضح
أننا لا نقدر أن نخرج منه بشئى » (١ تي ٦ : ٨) .

فإعتبر أيها الانسان بأنه لا يرافقتك درهم واحد من أموالك ولا أحد من عبيدك
ولا ثوب واحد من ملابسك لتتمتع بها فى الأبدية . إنما يرافقتك شئ واحد هو إيمانك
بأهلك وثمر إيمانك أى عملك الصالح فهما اللذان يكونان لك سراجاً مضيئاً ينير لك
سبيل الأبدية المظلم .

الفصل العاشر

فى سرعة اضمحلال أمجاد العالم

« السحاب يضحمل و يزول . هكذا الذى ينزل الى الهاوية لا يصعد . لا يرجع بعد الى بيته ولا يعرف مكانه بعد » (أى : ٧ و ٩ و ١٠).

كضباب الصباح الذى يكسور فؤوس التلال ليلاً ، وكالبخار الذى يغطى الأودية ولكن يضمحل حانئاً تسطع عليه أشعة الشمس فتبدو من تحته تلك التلال والأودية ، هكذا مجد العالم يمضى فلا ينظر أيضاً . كالرعود والبروق والسحب والصواعق تنحدر بشدة على العالم فى فصل الصيف و يعقبها هطول الأمطار والسيول العظيمة ولكن بعد قليل جداً يبطل هذا الهيجان و يعود الجلد الى صفائه ، هكذا كرامة هذا العالم وأمجاده الفارغة تسرع الى الزوال والانهلال بعد علوها وانتفاخها ، فحاشية الملك تفرقت ومجلسه العظيم انحل ، ومجد الغنى باد « كيف صاروا للخراب بغتة اضمحلوا فنوا من الدواهى . كحلهم عند التيقظ يارب عند التيقظ تحقر خيائهم » (مز ٧٣ : ١٩ و ٢٠).

كظل باطل لا مادة له ولا وجود سوى ظلامه ورسمه وحركته ، هكذا العالم فأنه ظل يتقلص فيتلاشى أثره . فهل ترغب أن تطارد ظلاماً . وهل يوجد شئ أسرع زوالاً من أمجاد العالم والانسان الذى يعشقها ؟ « لأن للشجرة رجاء . ان قطعت تخلف أيضاً ولا تعدم خراعبها . ولو قدم فى الأرض أصلها ومات فى التراب جذعها فن رائحة الماء تفرخ وتنبث فروعاً كالغرس . أما الرجل فيموت و يبلى . الانسان يسلم الروح فأين هو » (أى : ١٤ : ٧ - ١٠).

كسجوج البحر يصعد و بهبط ولم يعد ينظر . هكذا تاريخ هذا العالم كتاريخ
الموجة صعود و هبوط ثم انحلال الى الأبد . فهل تروم أيها الانسان أن تجعل نصيبك
فى الحياة موجة ؟ .

كقوس سحاب . أرسلت الشمس أشعتها على غيوم ممطرة فتكسرت تلك
الأشعة الى ألوانها السبعة فبدت للناظر قوساً غاية فى الجمال . ولكن تلك الغيوم
مرت بسرعة فزال للوقت جمال القوس . هكذا أيضاً المجد الذى يتألف من فانيات
هذه الحياة فإنه تدهم غيوم الأخطار فينحل و يتم الافتراق بينه و بين الانسان
فلا يعود يراه الى الأبد .

كصورة جميلة رسمت فيها مدن وقلاع و ممالك و بحار و انهار و جبال ولكن متى
لحقها قليل من الماء غميت بسرعة و تشوهت ، هكذا الدنيا تظهر لك بصورة جميلة
مزخرفة ولكنها تتمزق و تتلاشى بأقل الأشياء . و قلب الانسان المملوء بالمطامع
و الآمال فى وقت و جيز ينسحق و يفقد الحياة « لذلك يكونون كسحاب الصبح
و كالندى الماضى باكراً . كعاصفة تحطف من البيدر و كدخان من الكوة »
(هو ١٣ : ٣) .

كزهرة نضرة تسر من يراها فيقتطفها و يشم رائحتها الزكية ولكن بعد برهة
قصيرة تذوى و يذوب جمال منظرها . هكذا العالم يذبل أمام عيوننا فبينما نحن ننظر
اليه بسرور إذا به يمضى ولا يبقى له سوى قليل من الغبار . فهل تحب أن تجعل
نصيبك ما لا تزيد مدته عن ساعة من الزمن ؟ .

كسفينينة ترى أمامنا تنشر قلوبها و تسرع فى سيرها فتوارى عن الأنظار . أو
كقاطرة قامت للسير فغابت عنا فى لحظة . هكذا العالم فإنه فى لحظة يتوارى و فى
وقت قصير يغيب . قال يوحنا الرسول « العالم يمضى و شهوته » (١ يو ٢ : ١٧) قال
ذلك لأنه عاصر اثنى عشر امبراطوراً وهم أوغسطس و طيباريوس و كاليغولا
و كلوديوس و نيرون و غلبى و اثو و فيتاليوس و يسباسيانس و تيطس و دوميتيانوس
و نرفا ، وكانوا كلهم يظنون أن العالم لهم و مات أكثرهم أسوأ ميتة .

كخيمة فى البرية ينصبها السائح أو الراعى عند المساء فتراها بقعة بيضاء كأنها بزغت من الرمضاء . وعند شروق الشمس تختفى تلك الخيمة وساكنها وترى البرية مقفرة كما من ذى قبل . هكذا العالم ينظر اليوم وغداً يتوارى عن النظر ، وقد قال حزقياس الملك « مسكنى قد انقطع وانتقل عنى كخيمة الراعى » (اش : ٣٨ : ١٢) و يوحنا اللاهوتى يخبرنا عن زوال الأرض بقوله « ورفع ملاك واحد قوى حجراً كرحى عظيمة ورماه فى البحر قائلاً هكذا بدفع سترمى بابل العظيمة ولن توجد فى ما بعد . وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنيين والمزمرين والنافخين بالبوق لن يسمع فىك فى ما بعد . وكل صانع صناعة لن يوجد فىك فى ما بعد » (رؤ ١٨ : ٢١ و ٢٢) فهذا هو اليوم العظيم الآتى على الأرض حيث تنحل العناصر وتتلاشى المسكونة التى طالما كسرت قلوباً وأورثتها من الأحزان والأكدار ما لا يحتمل . فإعلمى أيتها الدنيا مكردة صفاء الحياة وهادمة أركان السعادة ومورثة الشقاء والأحزان لكل بنى الانسان أن الله قد أعد لك يوماً فيه تطرحين بدفع فى ظلمات العدم والاضمحلال الى الأبد . هذا هو جزاؤك العادل أيتها الغرارة الشنيعة .

إن أحد السياح الأتقياء بعد أن طاف العالم ورأى كل عجائب الدنيا وغرائب الانسان حتى شاخ وأوى الى فراش الموت صرخ عند موته قائلاً لابنه « الأشياء زائلة ! الأشياء زائلة ! » وهذا هو صراخ كل من عرف حقيقة العالم وخبر أحواله . والرسول بولس يقول « فأقول هذا أيها الاخوة الوقت منذ الآن مقصر لكى يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم والذين يبيكون كأنهم لا يبيكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشتررون كأنهم لا يملكون . والذين يستعملون هذا العالم كأنهم لا يستعملونه . لأن هيئة هذا العالم تزول » (١ كور : ٧ : ٢٩ - ٣١) .

فما أشبه العالم بالتمثال الذى رآه نبوخذنصر الملك الذى كان رأسه ذهب وصدرة وذراعاه من فضة و بطنه وفخده من نحاس وساقاه من حديد وقدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف إلا أنه حطم أخيراً وانسحق الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصار كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان (٢ دا) وهذا إشارة الى ممالك العالم التى يرتفع شأنها وينتفى أمرها أخيراً

إن يونان النسبى فرحاً عظيماً عند معاينته تلك اليقطينة التي نبتت بغثة وامتمدت ونمت حتى صارت فى يوم واحد كأنها نظير خيمة تظله ولكن الله أعد لها دودة فضربتها فيبست . تألم لأجلها يونان وطلب الموت لنفسه فوبخه الله لأنه حزن على يقطينة بنت ليلة كانت و بنت ليلة هلكت (يون ٤) . ليت شعرى أليست على هذه الصفة كرامات هذا العالم وأمواله وأمجاده وملاذاته فإنها فى ليلة واحدة تأتى وكثيراً ما تفقد فى تلك الليلة نفسها . أيجال لك إنك ساكن ومستريح فى ما تملك ؟ أظن إنك فى أمن وسلام ؟ لعمري أنك نائم ومغرور لأنه تحت ظل اليقطينة النضرة استقرت دودة الفناء وهى تأكل فيها من غير أن تشعر ، وبغثة تخسر لذاتك . الزمان يبس كراماتك وغناك ، والريح يكس مجدك وعظمتك « أيضاً فى الضحك يكتب القلب وعاقبة الفرح حزن » (أم ١٤ : ١٣) .

ألم يسمع بيلشاصر الملك وهو على مائدة السرور وسراريه وعظماء مملكته حوله معه دانيال النبي يقول له « أحصى الله ملكوتك وأنهاه » وقال الكتاب « فى تلك الليلة قتل بيلشاصر ملك الكلدانيين » (دا ٥ : ٢٦ و ٣٠) ألم يسمع الغنى عقب تأمله فى سعادة مستقبله الصوت « ياغبى هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التي أعددتها لمن تكون ؟ » (لو ١٢ : ٢٠) . هوذا الكتاب يقول « واضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة يقول الرب » (عا ٣ : ١٥) .

إننا نجد كثيرين قد ساقهم العلم بزوال الأرض وما فيها الى رفض كل خيراتها ومقنناتها . فيوسف الصديق الذى كان بمصر سيداً عظيماً لم يذكر الكتاب عنه أنه خلف بمصر ثروة ومالاً وذلك لأنه كان متيقناً أن بنى اسرائيل اخوته سيمتكون مصر يوماً . كذلك موسى النبي مع علمه أنه الوريث لعرش مصر فقد رفض هذا المقام السامى مفضلاً بالأحرى أن يذل مع شعب الله على أن يكون له تمتع وقتى بالخطيئة حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر (عب ١١ : ٢٤ - ٢٦) .

وقد أوصانا مخلصنا الصالح قائلاً « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض » (مت ٦ : ١٩) وذلك لأن كنوز الأرض قصيرة المدة كما أنها تعيق الانسان عن السعى فى طريق السماء . ليت جميع البشر يتأملون ولوساعة واحدة فى سرعة زوال هذا العالم ومقتنياته فإن هذا يكفى لأن نزرى ونستخف به « إن هتاف الأشرار من قريب وفرح الفاجر الى لحظة » (أى ٢٠ : ٥).

إن الأشجار فى فصل الصيف تظهر ميتة خالية من الثمر والورق ولكن أصلها حى وكل قواها محفوظة . وأما المروج الخضراء فتظهر فى الشتاء خضراء حية ولكن عندما يوافق فصل الصيف تذبل وتيبس . أما الأشجار فتزهر وتثمر : وهذا ينطبق تمام الانطباق على أحوال هذه الحياة الدنيئة فهى شتاء مكرب محزن قليل الربيع ولكنه ملآن بالأعشاب التى تزهر قليلاً والتى يتنعم أهل العالم بنضارتها ورونق خضرتها زماناً ما . ولكن عند مجئ صيف الحياة الأخرى الدائمة البقاء حينئذ يذبلون ويبسون فيحصد الموت العشب اليابس ويضرم فيه النار .

فلا تغرنك خضرة أجماد العالم ولا رونقها الحاضر فإنها تذبل حالاً وتزول فى أسرع وقت . لا تحب العالم الذى تراه مسرعاً فى مروره جداً . قال الحكيم « كعبور الزوبعة فلا يكون الشرير » (أم ١٠ : ٢٥) وما أحسن قول أحد المؤمنين « إن الانسان الذى يتفانى فى خدمة هذه الحياة أشبه بالحيوان الذى يخرج الماء من السواقي ولا يشرب منه ».

ومن يتأمل جيداً يجد لذات هذه الدنيا قصيرة لا ثبات لها ، وكل ما تقدمه لمحبيها فهو زائل . نعيمها وقتى ، مجدها وأفراحها بمنزلة مرور الدقيقة الواحدة من الزمن وكل ما فيها من الأباطيل يتلاشى سريعاً ويطير كالدخان وينسى كأنه ما كان « وأبيد منهم صوت الطرب وصوت الفرح وصوت العريس وصوت العروس وتصير كل هذه الأرض خراباً » . (ار ١٦ : ١٠ و ٢١) . قال القديس كبريانوس « لذت- قضى على العالم بأن كل ما هل قل وكل ما زاد نقص ، وكل ما قوى ضعف ، وكل ما كبر صغر وعند ذلك يزول كل شئ ».

لقد رأينا مع مرور الزمن تلاشى شئ كثير مما كان معنا . أين الأشياء التي رأيناها بالأمس ؟ لقد بادت وتلاشت كالدخان . أين المآكل والمشرب الطيبة ؟ لقد اضمحل الكل ولم يبق شئ . باطل هو فرح الطيور بأكل الحنطة وهى فى شرك الصياد . وباطل هو سرور السمك بالطعم الموجود فى الصنارة (جا ٢٩ : ١١) .

هكذا باطل هو فرح الانسان بسعادة الدنيا ، والموت قريب . فكل انسان سيصير الى التراب وكل ما يشيد سيؤول الى الخراب . ارفعوا عيونكم الى السموات وانظروا الى الأرض من تحت « فإن السموات كالدخان تضمحل والأرض كالثوب تبلى وسكانها كالبعوض يموتون » (اش ٥١ : ٦) .

حسبك أن تفتش أيها الانسان على الخيرات التي لا يفنيها طول الزمن ولا يبليها تقادم العصور ولا يغيرها شئ . ان كرامة المسيحى الحقيقية ليست إلا فى المسيح يسوع المصلوب ومجده وافتخاره فى مكابدة الضيقات والمشقات من أجل اسمه القدوس . والشرف الحقيقى إنما هو فى فضيلة النفس التي لا تهلك بالسعى الباطل ولا تفتنى بالدراهم ، قال أحد كتبة سيرة القديس انبا بولا أول السباح « إنى أسأل الآن الأغنياء الذين لا يعرفون مقدار ثروتهم لكثرتها والذين يسكنون المنازل الفسيحة المزينة بالزخارف والنقوش ، ما الذى أعوز هذا الشيخ القديس المتعري من كل غش . فأنتم تشربون فى كؤوس من فضة وذهب وهذا بولا يطفى عطشه بكف يده . أنتم تلبسون الحرير وهذا كان مرتدياً بثوب من نخل . غير أنه لا يكون الأمر هكذا دائماً ، وهذه الحال تنقلب الى حال أخرى . فها أن السموات قد انفتحت لبولا المسكين ، وأما أنتم فستهبطون الى جهنم مع جميع كنوزكم . وهو قبر فى لحد ليقوم الى المجد وأنتم تدفنون فى قبور من الرخام والمرمر لتحترقوا الى الأبد » .

أيها القارئ العزيز .

أيها أحب لديك . محبة أمور الحياة التي تزول مع زوالها . أم محبة يسوع التي بها تدوم الى الأبد ؟ قال الرسول بطرس للمؤمنين عن مجدهم فى السماء « لميراث لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل محفوظ فى السموات لأجلكم » (١ بط ١ : ٤) .

الفصل الحادى عشر فى ضرورة الاستعداد للموت

« أوص بينك لأنك تموت ولا تعيش » (اش ٣٨ : ١)

الاستعداد للموت أمر ضرورى ، لأن الانسان لا يموت إلا مرة واحدة (عب ٩ : ٢٧) بعد ذلك يكون الانسان أمام أمرين إما سعادة أبدية أو شقاء أبدى فليس لنا مجال إذاً بعد الموت لتصلح ما وقع منا هنا من الخطأ . فن هذا الوجه الرجاء مقطوع والأمل مفقود فينبغى إذاً أن نتأكد أن أمر خلاصنا أو هلاكنا متوقف على حالتنا قبل الموت . فكما نعيش نموت وندان . الحياة التى نحياها والأعمال التى نعملها هى التى تكسبنا الحياة الأبدية أو تقضى علينا بالموت الأبدى .

قال عاموس النبى « استعد للقاء إلهك » (عا ٤ : ١٢) إن كنا نتوقع أننا ستمثل أمام أحد ملوك الأرض العظام فإننا نستعد بكل ما يمكننا من الاستعداد للمثول بين يديه . وإن كنا ننتظر دعوة للوقوف أمام أحد القضاة لاستجوابنا فى أمر ما فإننا نهى إجابتنا على كل سؤال نتوقع توجيهه إلينا . وإذا أردنا أن نذهب الى رجل غنى مقتدر لنطلب منه نوالاً فإننا نستعد لتلك المقابلة . ولكن ما أكثر الذين لا يفكرون أبداً بأن يستعدوا للقاء إلههم ، فإنهم يهتمون بقاء من أحسن إليهم من أهل الأرض أكثر مما يهتمون بقاء الله تعالى و يسلكون مع الناس الذين هم مثلهم باحترام أكثر مما يسلكون مع الرب ، مع أنه ملك الملوك ورب الأرباب ، وهو الذى يحكم علينا حكماً أبدياً بحسب حالتنا هنا ، فإما أن يصعدنا الى الأفراح السماوية أو يطرحنا فى أعماق الجحيم .

فما رأيكما إذا؟ أليس من الضروري علينا أن نستعد لمقابلة الله دائماً؟ ألم يجعلنا الله نجهل ساعة الموت لكي نكون متأهين ومستعدين له في كل حين؟ قال القديس يوحنا ذهبي الفم «إن الله قد أخفى عنا ساعة الموت لثلاث غايات: أولاً لتعزيتنا. ثانياً لصيانتنا. ثالثاً لكفالتنا. فأما لتعزيتنا فكما يفعل الطبيب الجراح فإنه إذا أقبل إلى المريض ومعه الآلات التي ينبغي أن يستعملها في جسده فإنه يسترها ويخفيها عنه. ثم أنه قد جرت العادة بأن يوضع على عيني المحكوم عليه بالموت حجاب لئلا يبصر ما قد أعد لتعزيه. وأما لصيانتنا فإنه لو علم الإنسان أنه إذا أخطأ لا يفاجئه الموت فما أكثر المساويء التي كان يتهاوت عليها! بل كان للشريير أن يقول إنى أجد أمامي فسحة من الزمان لأصرفها في التوبة والتكفير عن خطاياي فلماذا لا أتبع اليوم شهواتي وأهوائى؟ فعدم معرفة يوم نهايتنا هو كاللجام الذي يسكننا عن التدهور في الشرور. وأما لكفالتنا فنعتقد يقيناً إنه في كل دقيقة يمكن أن تنقضى حياته لا يتهاون في أن يصرف كل دقيقة في عمل ما يستحق عليه الأجر الحسن من الله ولا يبرح مجتهداً ليزداد حسنة على حسنة وفضيلة على فضيلة. قال القديس أوغسطينوس «أن الله بإخفائه عنا يوم انتهاء حياتنا قد حصننا برحمة جليلة إذاً أنه بذلك يلزمننا المواظبة والسهر والتيقظ على نفوسنا بلا ملل».

قال السيد المسيح «اسهروا إذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة» (مت ٢٣: ١٥) إذا قيل لك إن هناك كنزاً قد أعطى لك أن تسعى لتناله في زمن معين غير معروف مقداره فهل كنت تتوانى عن أن تعدو بسرعة البر لتفوز به؟ وإذا قيل لمن حكم عليه بالاعدام أن أمامه فرصة قصيرة للنجاة فهل كان يتأخر عن أن يطلق ساقيه للريح لينجو بحياته. وفي العهد القديم كان للقاتل سهواً أن يجرى إلى مدن الملجأ لينجو ممن يطالب بثأر المقتول. فهل كان يتباطأ عن السعي للخلاص من القتل؟ (عد ٣٥) فأمامك الآن فرصة لا تعلم مقدارها لتستعد لاستقبال ساعة الموت وبعدها تقابل إلهك لتعطى حساباً في يوم الدين عن كل ما قدمت يداك خيراً كان أم شراً فلماذا أراك متفاسساً ومهمللاً ومتأخراً. أنظن أن المجد المدفئ السماء للمستعدين بأقل من كنوز العالم؟ أو أن العقاب المجهز للمهملين بأقل شدة من

عقاب الاعدام؟ أو أن يد العدل التي تعاقب الخطاة ليست باقسي من يد من يسعى ليأخذ بثأر قريبه؟ يا الغباوتنا هل هكذا أصبحنا عديمي الفهم حتى إننا نجد وراء الفاني ونهمل أمر الباقي ونخشى المخاطر الخفيفة ولا نهتم بالبلايا الجسيمة . أيها البائسون أن المنية تدعوكم بعد هتيمات والديان الرهيب متأهب لمحاكمتكم فلماذا تتلهون وتضيعون هذا الوقت القصير في الاهتمام بالأموال الباطلة؟ قال الرسول بولس «مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة» (١٨ : ٥) وقال أحدهم « أن أياماً قليلة تستطيع أن تنال حياة أبدية ».

اعتبر أن في استعدادك للموت تريح ثلاثة أمور :

أولاً : تريح التعزية في هذه الحياة : فالمؤمن يسير في الحياة بقدم ثابتة لا تروعد الكوارث ولا تزعجه البلايا ، ولا يذيق فيه ذكرى الموت مرارة شديدة . بينما ترى الخاطئي مضطرباً خائفاً من تلك الساعة الهائلة التي لم يتبها لها فيرتعب من أقل مصيبة و ينزعج لأهون خطر . وجد رجل في الغابة مضرباً بدمائه لأن نمراً مفترساً قابله وانتزع بعض أعضائه وعلى الرغم من ألمه فقد سمعه يقول : « أشكر لك أيها الاله العظيم فضلك . إنى أتألم من جراح النمرا من وخزات الضمير ».

ثانياً : تريح التعزية حين الموت . فاحلى الموت للمستعدين وما أهبجه للمنتظرين . وما أحسن تشبيه السيد المسيح لساعة الموت باللص بقوله « طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين .. وإنما إعملوا هذا أنه لو عرف رب البيت فى أية ساعة يأتى السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب » (لوقا : ١٢ و ٢٧ و ٣٩) ، وذلك لأن اللص إذا سطا على بيت ورأى صاحبه نائماً فإنه يقتله وينهب أمواله . هكذا الموت إذا جاء وراك مستيقظاً منتظراً قدومه على الدوام فإنه يخاطبك بلطيف الكلام ، ولكن ان رآك راقداً بنوم الخنيفة سلب نفسك منك وأماتك موتاً أبدياً . قال الحكيم « الشرير يطرد بشره أما الصديق فواثق عند موته » (أم ١٤ : ٣٢) .

ثالثاً : تريح المجد الأبدى فى السماء . قال بطرس الرسول « بل كما اشتركتم فى آلام المسيح افرحوا لكى تفرحوا فى استعلان مجده أيضاً مبتهجين » (١ بط ٤ : ١٣) .

تأمل أية خسارة تحل بك إن لم تكن مستعداً ؟ انها ليست خسارة أموالك أو قصورك أو حلك الهية ، لأن هذه . يمكن أن تعوضها إذا فقدت ولكنها نفس واحدة لك إذا فقدت لا يمكنك أن تجدها : إذا خسرتها لا يمكنك أن ترحبها . كل غنى العالم لا يرد لها سعادتها . هوذا المخلص ينبه قائلاً « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . أو ماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه » (مت ١٦ : ٢٦) قال أحدهم « يظهر المخلص بهذا القول كأن بيده ميزاناً عظيماً دقيقاً يصل الى السموات ارتفاعاً وقد وضع فى كفته الواحدة . النفس . النفس الأبدية . نفسى ونفسك . وفى الكفة الأخرى العالم كله وهو يزنهما أمام أعيننا ليرينا أيهما أثقل وأعظم قيمة . فإنظر يا صاح إن الكفة التى فيها النفس تنزل بثقلها حالاً وأما التى فيها العالم كله فإنها تصعد بخفة كلية حتى تلحق قائمة الميزان كأن فى الأولى سبيكة عظيمة من الذهب وفى الثانية ريشاً لا ثقل له » .

إن الربان الذى يمخر بسفينته عباب البحر إذا سمع أن فى طريقه صخراً عظيماً غير معين مكانه إذا اصطدمت به سفينته تحطمت فلا يمكنه أن ينام أو يغفل ، بل تراه يلتفت بانتباه عظيم ليعرف مكان ذلك الصخر حتى ينحرف بسفينته عنه . وأنت على هذا السبيل تسير فى غمرات لجج هذا العالم الشرير بينا صخرة الموت مرفوعة على الدوام فوق رأسك وهى مزمعة أن تنزل فى كل لحظة . فلماذا لا تلتفت وتحترس لكى تضمن لنفسك الوسائل التى تخلصك منها إذا ما سقطت عليك ؟ .

إذا قيل لك إن عدواً شديداً البأس سيأتى بغتة للانتقام منك أما كنت تخافه وتسرع فى استدعاء أهلك وأصحابك ليوقفوا معك حتى إذا فاجأك العدو وتصرونك عليه ويخلصونك منه ؟ فلماذا لا تخاف إذ تسمع أن ألد أعدائك وهو الموت (١ كو ١٥ : ٢٦) هاجم عليك فى كل حين لينفذ الحكم الإلهى فىك ؟ هذا فضلاً عن أنك فى تلك الساعة التى يفاجئك فيها لا يقوى أخ أو صاحب على الوقوف

معك لمقابلته ، ولا تستطيع أن تطلب معونة أحد فهو يأتي لينازلك وحدك ولا يمكن أن يسندك حينئذ إلا استعدادك الحسن لمقابلته : قال الكتاب « طوبى للانسان الذى يسمع لى ساهراً كل يوم عند مصاريعى حافظاً قوائم أبوابى . لأنه من يجدى يجد الحياة وينال رضى من الرب » (أم ٨ : ٣٤ و ٣٥).

فلا تتصور أن هذا العدو بعيد منك أو أن زمان اقترابه لك لم يأت بعد حتى تنام وتتغافل بل قل فى نفسك ها أنى شرعت فى أمر فعللى لا آتى الى آخره . وهأنذا أعود الى بيتى وأدخله فلعللى لا أخرج منه إلا محمولاً على أيدي من يشيعوننى الى القبر . وها قد اضطجعت على فراشى فرميا لا أقوم منها مرة أخرى وها قد أغمضت عيني فرميا لا أفتحها ثانية فى هذا العالم بل تفتحها يد اللحد فى القبر ليلأهما تراباً . ها قد لبست ثيابى ولكنى لا أعلم هل أدخلها بيدي أو تخلعها يد أخرى . ها قد رفعت قدمى لأضعها عند خروجى من باب بيتى ولا أدرى هل أضع الأخرى على حافة البيت أم على حافة القبر؟ فبذلك تنهياً للاستعداد للموت وتكون كالمسافر الذى يكون على استعداد حتى إذا دق جرس القطار يكون مستعداً للمسفر قال المخلص له المجد « لتكن أحقاؤكم ممنطقة وسرجكم موقدة . وأنتم مثل أناس ينتظرون سيدهم متى يرجع من العرس حتى إذا جاء وقرع يفتحون له للوقت . طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين . الحق أقول لكم أنه يتمنطق ويتكلمهم ويتقدم ويخدمهم .. ولكن إن قال ذلك العبد فى قلبه . سيدى يبسطى قدومه فيبتدى يضرب الغلمان والحوارى و يأكل ويشرب ويسكر . يأتى سيد ذلك العبد فى يوم لا ينتظره وفى ساعة لا يعرفها فيقطعها ويجعل نصيبه مع الخائنين » (لوقا ١٢ : ٣٥-٣٧ و ٤٥ و ٤٦) فكما أن اللابس الثوب الطويل بلا منطقة يكون غير متأهب لسفر أو مستعد لعمل ، هكذا المسيحى المرتبك فى الأمور الدنيوية فانه لا يكون مستعداً للسفر السماوى أو الخدمه الألهية .

إن الكثيرين يهملون الاستعداد على أمل أنهم يستعدون عند الموت ومن أدرانا اننا لا نموت فجأة؟ وهب أننا مرضنا طويلاً فهل توقن أيها الانسان أنك ستموت عقب ذلك المرض؟ ألسنت دائماً تمنى نفسك بالشفاء مهما كان المرض شديداً؟ ألا تجد حولك أهلك يطمنونك بأن صحتك جيدة ألا تجد الطبيب يهدئ روعك قائلاً لك

« انك كل يوم تتقدم الى الشفاء ؟، ألا تجد من نفسك ميلاً لتصديق من يقول لك انك ستشال الشفاء أكثر من ميلك الى تصديق الفكر فيك بأنك ستموت ؟ وبعد ذلك ماذا يتم ؟ ها أنت تسلم الروح وترى بأن الذين هم حولك قد خدعوك . قبل هنيهة كانوا يعدونك بالشفاء ولكنهم كانوا كاذبين لأنك الآن تموت فكيف تستعد إذا ، وأين الوقت الكافي لاستعدادك ؟.

قبل إن غزالاً أعور لا يبصر إلا بعين واحدة كان يطارده الصيادون ويتبعون أثره فى كل مكان توجه اليه حتى لم يدعه فى أمن مطلقاً الى أن بلغ يوماً بقعة بجانب البحر فاطمأن ووقف يرعى محولاً عينه الصحيحة الى جهة البر حيث يخشى الصيادين ، وعينه التى لا تبصر الى جهة البحر . وانفق حينئذ مرور سفينة فأخذ أحد راكبيها سهماً ورماه فى قلب الغزال فأصابه . أنه نجا من جهة البر حيث كان يخشى الموت ولكنه مات من جهة البحر حيث كان يرجو الحياة . كم من كثيرين حسبوا أنفسهم بعيدين عن خطر الموت والهلاك ولكنه أتاهم من حيث ظنوا الأمان .

فلا تفكر فيما مضى من حياتك بل فيما بقى من عمرك . ولا تفكر كيف تعيش حسناً بل كيف تموت حسناً . ورد فى ميثولوجيات القدماء حكاية عن مغارة كبيرة فيها ٣٠٠٠ خباء بعضها داخل بعض متشعبة كثيراً ومتعرجة فإذا دخلها أحد لا يقدر على الخروج منها بل كل من يدخلها يموت فيها . فإذا حكموا على أحد بالدخول اليها دار متنقلاً من غرفة الى أخرى فى الظلام الى أن ينتهى الى آخرها . فإذا قصد الرجوع لا يعلم أى الطرق يختار فيجئ فى طريق ثم يدور ويرجع ويسير فى غيرها وربما أحس بأنار دوسه فظنه قريباً من باب المغارة فيتبعه فإذا به يدوس عظام وجاجم الذين دخلوا قبله وهلكوا فيرتعب ويرتعد ولا يزال على هذه الحال الى أن يهلك جوعاً وتعباً وحسرة وموت كمدأ . فحدث أن حكم على شخص بالدخول الى هذه المغارة فأخذ معه كبة من الحرير الرقيق ، ربط طرفه بالباب ودخل وهو ممسك الكبة بيده ينشر الحرير عنها حتى إذا جاء آخر المغارة أخذ يلف الخيط على ركبته كما كان وهو يتبعه الى أن عاد الى حيث دخل بسلام ولم يضل

فى ظلماتها المدلهمة . فاحترس وأنتبه وفكر فى كىف تخرج من العالم ، لافى كىف تبقى ، لأن البقاء فىه غير مضمون ، أما الخروج منه فؤكد ولا ىختلف فىه اثنان .

فلىس علىك إذاً إلا أن تستعد للموت بالإيمان العامل ، وذلك ىقوم أولاً بترك الخطىة التى أحببها « لىترك الشر ىر طرىقه ورجل الاثم أفكاره ولىتب الى الرب فىرحمه والى الهنا لأنه ىكثر الغفران » (اش ٥٥ : ٧) وثانياً بتقديم الأثمار الجيدة « وأما الآن إذ أعتقتم من الخطىة وصرتم عبداً لله فلكم ثمركم للقداسة والنهاية حىاة أبدية » (روم ٦ : ٢٢) .

وهنا نأذر الجمىع مما ىمكن أن ىغدعوا به ذواتهم وأخص ذلك أمران :

الأمر الأول عملهم فقد ىغدعون به لأنهم ىظنونهم حسناً وهو قىبح . كم من كثرىن ىظنون أن أعمالهم الرديئة صالحة . ومىل الانسان الى عدم نسبة أى شر الىه ىجعله ىتصور فى خطىته براً وفى إثمه صلاحاً . ألم ىكن اليهود فى زمن المخلص ىظنون أن كبر ىاءهم براً وفساد قلوبهم غيرة وسفاهتهم دفاعاً ! ولذلك قال لهم وأنتم الذىن تبررون أنفسكم قدام الناس ولكن الله ىعرف قلوبكم » (لوقا ١٦ : ١٥) .

والأمر الثانى الذى ىنخدع فىه الانسان هو ثوابه . فقد ىتوهم بأن له ثواباً صالحاً وهو ىذخر لنفسه غضباً لىوم الغضب . كم من كثرىن سىطرقون باب السماء كأنهم من أخص أهلها فىسمعون الصوت من داخل « لا أعرفكم » .

كثىرون ىعىشون فى الخطىة وإذا سألتهم أى نصىب لكم فى الآخرة ىكون جوابهم « السماء » ومىل الانسان الى وجوده فى أماكن السعادة ىصعب علیه الاعتقاد أنه من أهل جهنم ولو كان خاطئاً . ولكن لكل مقدمة نىتجة ، ونىتجة الخطىة الموت ، ونىتجة البر حىاة . فإذا أردت أن تعرف أى مكان سىكون مقرك فى العالم الآتى . فلا تسأل أمىالك ولا تسأل الشىطان الذى ىحاول أن ىأذر أعصابك

بالأوهام الفارغة . بل أسأل أعمالك . وعن أعمالك أسأل كتاب الله . فإذا كانت
أعمالك تمدح من كتاب الله وبها يتمجد اسمه فأعلم إنك مستعد وأنك من أهل
السماء .

استعد إذا لدخول السماء بالقداسة التي بدونها لن يرى أحد الرب .

الفصل الثاني عشر فى عبر الموت

« لأنه إن عاش الانسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها وليتذكر أيام الظلمة لأنها تكون كثيرة . كل

ما يأتى باطل » (جا ١١ : ٨)

إن كثرة التفكير فى الموت تكبح جماح الانسان وترد مطامعه وتلجم شهواته ،
وبقدر ما يتعمق الانسان فى التأمل فى الموت تكثر حكته وتزداد فطنته . فبالموت
ينتهى كل ما فى هذه الحياة الزائلة فإذا ما سعى الانسان جهده فى جمع الخيرات
وتذخيرها وكان اسم الموت مكتوباً أمام عينيه اكتفى بحاجته ورجع وهو يهتف
قائلاً وأما التقوى مع القناعة فهى تجارة عظيمة » (١تى ٦ : ٦).

لقد اعتاد قوم من الفلاسفة أن يأكلوا ويشربوا فى جماجم الموتى لكى يكون
ذكر الموت بادياً على الدوام أمام عيونهم . وهذا كانوا يداون كل شهوة عالمية .
وقد ذكر مثل هذا عن كثيرين من الملوك والعظماء الذين اتخذوا ذكر الموت دواء
لكبيرياتهم الأرضية وحتى لا تغرهم العظمة على فعل ما لا يليق . فقد أمر الملك
فيلبس المكدونى أحد خدامه بأن يكرره كل صباح هذه الكلمات ثلاث مرات
« أذكر يا فيليبس أنك بشر وانك بالموت الذى لا بد منه ستترك كل شئ » والملك
مكسيمانوس الأول صنع نعلشاً لنفسه قبل موته بأربع سنين وحيثما توجه كان يأخذه
معه وذلك لكى يسمع على الدوام صوتاً يقول له بلسان حاله « أذكر أنك ستموت
لا محالة وأنتك ستفارق كل شئ » . لقد كان فلاسفة الهند المعروفون بالبراهمة
يحفرون أمام بيوتهم قبوراً مفتوحة لكى يتذكروا الموت عند خروجهم ودخولهم على
الدوام وذلك لأنهم كانوا يعلمون جيداً أن ذكر الموت يفيد جداً فى اصلاح السيرة .

وكثير من ملوك الشرق كان لهم من جملة اعلام غزتهم الملوكية كتاب من ذهب يحملونه باليد اليسرى القريبة من القلب اسمه « البر » وكان هذا الكتاب مملوءاً تراباً وغباراً وكانوا يشيرون به الى أن الانسان مائت . وكان من عادة الأجباش عند تتويج أحد ملوكهم أن يحملوا أمامه وعاء مملوءاً تراباً وجمجمة ميت . وقد وجد على مكتبة أحد الفلاسفة جمجمة كتبت عليها هذه الكلمات عن لسان الميت يخاطب بها كل من قرأها « كما أنت الآن قد كنت أنا أيضاً » .

وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم قاعدة أجروها مجرى العادة الى اليوم في وجوب تذكر الموت في كل حين ، فإذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً ووضعوه بجانب المهدهم يجدونه كل شهر على مقدار نمو جسم الطفل ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا شب واشتد وضعوا النعش بجانب السرير الى أن يتم نمو الغلام فيبقى النعش بجانبه حتى يحل يوم أجله فيحمل فيه .

قال ابيكتيتوس الفيلسوف « فكروا في الموت دائماً لأن هذا الفكر يمنعكم من أن تفتكروا فكيراً دنيئاً أو تفتكروا شيئاً بافراط بالرغبة والشوق » وقال أفلاطون « انه بقدر ما يتعمق الانسان في التثبث بفكر الموت يكون ثبات حكمته » وقال أحد القديسين « كل من أراه الآن من حسان البشر وسائر الحيوان سيصبح جيفة تنسفر منها العين وفريسة يعترها الفساد والفناء . وكل ما أحدثه الآن سيصير تراباً ويمحى ذكره ويصير مأكلاً للدود . بالى الكفن فاني البدن ، عديم النفع . مجهول الأصل والفرع فإذا كانت هذه هي نهاية الانسان ؟ لماذا إذاً نراه يهرع خلف المال والجمال والمناصب ؟ » .

وحقاً فقد أمسى ذكر الموت عندنا من الأمور الهينة . فكف من التوايبت تمرربنا في كل ساعة ولا نتعظ . وكف من الموتى نشيع في كل آونة ولا نعتبر ؟ أجل قد نسير وراء الراحلين من هذا العالم حتى مدافنهم وهناك نتأثر قليلاً . هناك عندما نرى آباءنا وأمهاتنا وأقرباءنا وأصدقاءنا الذين كانوا يأكلون ويشربون معنا قد استقروا في ذلك المكان الموحش وسكنوا القبور المحيطة تنادبهم فلا نسمع منهم جواباً وتدعوهم فلا يردون . حينذاك نقف أمام القبر معتبرين وتلاشى من نفوسنا العظمة

الآن وقفنا نبكى ونتحجب ونحن خائفون من الموت . غارقون في بخار من الأحزان . قد ملأ الرعب قلوبنا خوفاً من الحفرة الضيقة المظلمة التي تساق إليها مرغمين . الآن تضاءلت الحياة أمام أبصارنا . وملأ الوجع مكان الغرور فانصرف عنا . وتحققنا اننا لا محالة مائتون وتعهدهنا أمام ضمايرنا مشهدين على أنفسنا سكان القبور أن نعمل عملاً صالحاً ينفعنا يوم نموت .

سمعنا الملحد يقول « قد أغلق باب القبر » وبدأ المشيعون ينصرفون وكلما خطونا بعيداً عن المقبرة قل البكاء . وكلما غابت عن مخيلتنا أشباح الأموات عدلنا عن الحزن والكآبة .

الآن دخلنا بين المنازل والخوانيت واختلط الرائح بالغادى . وغابت الأحداث عن عيوننا ونسينا ذلك الميت الذي بكيناه . عند ذلك ضحك العبوس المتصنع وابتسم الباكي المرائي ورجعت الغفلة الى القلوب وتناسينا الموت . الآن رجعنا الى الطمع والشرة والحسد واحتقار المساكين والتهجم على الأعراض والتباهى بالألقاب والتفاسخ بالمال . وهكذا نفعل في كل أدوار حياتنا . فإذا مرضنا أو فوجئنا بموت عزيز تنهيننا وتبسننا . وإذا شفينا من المرض أو تقادم عهد الميت رجعنا الى سابق عهدنا حتى تدهمنا سكرة الموت وقد أغلق باب التوبة .

من غباوة الانسان وجهله أن يتخذ في كل منبت شعرة من جسمه حبل من الأمل يعلق به النفس بطول البقاء ويمحو من ذاكرته كل سبب يذكره بالفناء . يوجد من لا يرد له ذكر الموت على خاطر بل قد رسخ في ذهنه أن لا فناء مع البقاء ، ولا يحس بحقيقة الموت إلا إذا أصابه مرض أو مات له قريب أو صاحب ولكن عندما تطرأ عليه مشاغل الحياة يعود الى ذهوله الأول وعماه المستديم . وقد يظن أولئك الأغبياء أن في عدم ذكر الموت راحة ، مع إن هذه الساعات الوجيزة التي يتذكر الذاهل فيها الموت عند اشتداد المرض أو عند موت حبيب له يصيبه فيها من أنواع الجزع والفضزع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلها ، و يكون هذا التذکر

لديه بمنزلة زلزال يهدم جميع ما بناه فى رأسه من الآمال وما زخرفه من الأمنى وربما أثر ذلك فى أعضائه فيجعله يلحق بقريه الى جوف القبر، فكم من الناس من يعمل على إبعاد ذكرى الموت عن فكره و يدأب فى محو المذكرات به . فلا يمشى فى جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة ولا يبصر آلة من آلات الدفن أو الكفن إلا وهرب ببصره عنها . ومنهم من يهجر بيته إذا مات فيه ميت حتى لا تذكره جدرانها بخروج الميت منه . ولو أنك أهديت اليه صورة جمجمة من ذهب ليشع منها واستنكرها وسخط عليك لأنك أردت تذكيره بذلك الشر العظيم والأمر القطيع . وإذا شاهد رجلاً ممن اعتادوا غسل الموتى هرب من رؤياه خوفاً من أن يتذكر ما كان يباشره من القيام بغسل الموتى أو يفتكر فى أنه سيغسله هو يوماً .

أمثال هذا يعيشون فى عمى القلب فيستطيع الشيطان أن يجرهم الى حباله بكل سهولة . غير أننا نوصى من يريدون أن يعيشوا حسناً ومن يهتمون بخلص نفوسهم أن يتأملوا دواماً فى الموت ، فإن الذين يتأملون فيه يتصرفون حسناً فى أعمالهم ويتحكمون جيداً فى أفكارهم وأقوالهم إذ إن التفكير فى الموت يبدد من المرء الأخلاق الرديئة ويفصل قلبه من التعلق بحبة العالم كما قال أحد الأتقياء « إن التفكير فى الموت يجعل الانسان لا يجد شيئاً فى العالم يستحق المحبة » فخيرات العالم كلها قائمة فى ملذات الحواس وفى التمتع والتعظيم ، فن يفكر جيداً أنه بعد قليل من الزمن هو عتيد أن ينتهى ويوضع فى اللحد تاركاً كل مجد وغنى ، فإنه يحتقر كل خيرات العالم وموجوداته .

حقاً إن كثيرين من الذين شغلوا عقولهم بذكر الموت فى ابان الحياة استطاعوا أن يهذبوا من أنفسهم ما لم تهذب العظمت المؤثرة والتوعيدات الرهيبة . وقد قال أحدهم عند وفاته « انى لكونى فى مدة حياتى حفظت على الدوام أمام عينى الموت وجعلته حاضراً فى عقلى فالآن عندما جاعنى الموت لم يجد فى شيئاً يمكنه أن يجهزنى به » وقال آخر « إن ذكر الموت يبين أن مسرات العالم جميعها باطلة . فلو تصورت ذلك الكفن الحقيق المزمع أن تلف به وذلك القبر الذى توضع فيه فلا ريب فى أنك كنت تحتقر كل ما فى العالم من غنى — وإذا ذكرت أنهم سيوارونك فى التراب وتكون مديساً بالأقدام ومنسياً من الناس على الدوام

لأصبحت لديك كل أجداد العالم ومراتبه كلاشنى ، وإذا تأملت ملياً فى الدود الحفير الذى يأكل لحمك وتصورت الحالة الشنيعة التى سيتحول إليها جسمك لكننت تطرح كل ملاذ الدنيا الحاضرة وأفراحها تحت قدميك .

إن السجين إذا نقل من سجن الى آخر لا ينبغي أن يعتبر نفسه وهو فى الطريق بين السجين أنه حر طليق هكذا الانسان يؤخذ من التراب و يرد الى التراب ومدة وجوده فى هذا العالم هى المسافة التى بين البداية والنهاية . فلوعرف الانسان من أين أتى والى أين يذهب لأتضع . فهو أتى من التراب «لأنك تراب» و يذهب الى التراب «والى تراب تعود» (تك ٣ : ١٩) وهذا الفكر استطاع ابراهيم أن يعالج نفسه حينما كان يحاطبه الله محاطبة الصديق لصديقه فإنه لم يتعالم و يتخذ من تنازل الله لمحاطبته سبباً للكبرياء بل أمعن فى احتقار ذاته وقال «انى قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد» (تك ١٨ : ٢٧).

إن أحسن دواء نعالج به غرورنا هو أن نعتبر الموت ملازماً لنا ونقيم معه دالة ونفكر فيه حينما نعزم على القيام بأى عمل من الأعمال فلا يوجد فى العالم من يقضى حسناً و يشير بالتوفيق والحكمة كالموت . ولا يوجد واحد منا إلا وشاهد كثيرين يموتون ، منا من دفن أحد أبويه ومنا من دفن زوجته ومنا من دفن أحد أولاده ومن دفن أخماه أوأخته أوصاحبه . ألا تتذكر حينئذ كيف كانت أفكارنا حسنة وبأى شئ كنا نسر ولأى شئ كنا نخزن . وكيف اختلفت أحكامنا عما كنا نحكم به ونحن فى غفلةتنا . كيف أصبحنا نقدر الفضيلة ونعتبر الصلاح ونمدح ونطوب القداسة والكمال ونزدرى بالانهماك فى العالم ونحتقر الانشغال بأجداده والسعى وراء ملاذه . حقاً اننا حينئذ ندمنا على كل خطية ارتكبتها وفرحنا لكل حسنة أتيناها . كم حزناً لأننا كنا نطلق للنظر الشهوانى العنان وهذا الميت قد أصبح مغلق النظر— كم تألمنا لأننا أنكرنا خالقنا وتعبننا فى سبيل جمع أشياء كثيرة . وهذا الميت أماننا لم يأخذ معه شيئاً مما جمع . فما أحسن ذكر الموت .

لندم النظر إذاً الى صورة الموت ولنتصوره على الدوام . أعتقد أن ذلك اليوم الذى يوافقك فيه قد أقتررب . أعتقد جيداً أن القبر هو مثواك ومقررك ، فإذا يكون

أمرك إذاً مع هذه الضائبات التي تهتم بها؟ فالأجدر بك أن تضحك عليها وتهزأ بها لأنه ما الضائبات أن تجاهد حتى تصيح غنياً ثم تلقى في القبر مجرداً من كل شئ مدفوعاً الى الفساد والفتاء . يا لشقاوة أولئك الذين يطوفون البر والبحر طلباً للدرهم والدينار وهم لا يعلمون متى يلجون القبور الضيقة الكربة حيث يكون مسكنهم فى الظلام الى الأبد .

لو أن محبى الرياسة وطالبي النفوذ والسلطان ينظرون للحال الذى صار اليه من تقدمهم لكبح ذلك جماح شهواتهم ولتنهت نفوسهم وتقومت تصرفاتهم وخذت نيران شوقهم للدنيا . ياليت هذا الفكر لا يبرح من باك أحد لكى يعيش الجميع بطهارة ضمير ويشعرون بشدة مرارة الدنيا ويلفظونها وخيراتها لفظ النواة . قال أحدهم « كما أن الماء يزيل أوساخ الثياب وأقذارها هكذا ذكر الموت يزيل عن القلب صداً عجيبة هذه الدنيا » قل لمن سار منهمكاً مريداً أن يجمع ذهب العالم كله الى حوزته « الموت الموت ! » قل لطالب الغنى « الأغنياء يموتون » قل لعاشق العظيمة « العظماء يموتون » قل لمحبه الشهوات . إن من سبقك فى هذه الطريق مات . قل للمولع بجمال هذه المرأة : تمثل هيئتها بعد أن يستولى عليها الموت ! ليت الناس يذكرون ذلك فتتقف مطاعمهم عند حدها .

تصور أيها الغافل أن أمامك قبراً سوف تستقر فى جوفه . فعليك أن تعمل كل ما هو صالح لترافقك أعمالك الى الحياة الأبدية . قال أحد الأفاضل بجزت العادة أنه إذا ما أريد إدخال جواد فى حلبة ميدان السباق أن يمرن أولاً على السير فى ذلك الميدان ليختبر أرضه جيداً حتى لا يصيبه وقت السباق أذى . وأنت على هذا المثال إن أردت أن تسير فى طريق الموت مطمئناً فعليك أن تختبره جيداً وتطلع على أحواله ما دمت فى الحياة ، وقبل مماتك تفرس فى الموت وأختبر الأرض التي أنت مزعم أن تعود اليها . وقد يليق بك فى حال مسيرك فى اضطرابات الحياة أن تعمل كما يعمل ربان السفينة الذى يجلس فى مؤخرها و يديرها ، هكذا اجلس أنت فى مؤخر سفينة هذه الحياة مفكراً فى الموت وبذلك تدبر حياتك حسناً . وكما أن المسجونين الذين حان وقت اطلاق سراحهم يكونون وقوفاً بباب السجن فى انتظار ساعة

الخروج منه هكذا ينبغي لك أن تحصر ففكرك وذهنك وعقلك في باب الموت الذى أنت مزعم أن تمر منه ، وكما أن الرماد يحفظ النار من الانطفاء هكذا ذكر الموت فإنه يحفظ التقوى و بصونها .

فإن فكرت في ظلمة الموت قبل مجيئها تنتصر على الموت قبل حلوله لأنك تكون مستعداً لمقابله ، فإن أهل نينوى لما سمعوا بحكم الموت عليهم رجعوا وتابوا الى الله ونجوا من مرارته ، هكذا أنت متى كنت مثابراً على ذكر الموت ، فلا تفاجأ إذا أتى ينفذ حكمه عليك .

الموت مرآة حياة الانسان فإذا كانت حياتك شريرة فوتك شريروا إذا كانت صالحة فوتك صالح . فإذا أردت أن تحول مرارة الموت الى حلوة فأذكره كل يوم .

قال القديس أنطونيوس وهو يخرج أنفاسه الأخيرة لتلميذه مكار يوس وأماتاس « عيشا كأنكما مزعمان أن تموتا كل يوم . فإذا هاجت فيك محبة العالم فأذكر أنه يمضى وشهوته . وإذا ثارت فيك الآمال للمجد الدنيوى فأذكر ساعة الرحيل . وإذا آنست في نفسك جنوحاً الى الكبرياء فسلها « لماذا وعلام يتكبر التراب والرماد ؟ » وهكذا أذكر الموت إذا أراد الشيطان أن يجربك . أذكره عندما يبيل بك الحقد الى الانتقام . اذكره عندما يحول الكسل بينك وبين الذهاب لسماع كلام الله . فكرفيه عند نومك وعند يقظتك ، تصوره إذا أتت اهانة أو لحقت بك تهمة . ارسمه أمام عينيك عند كل تجربة . فكل ذلك يصدك عن الوقوع فى الخطية ، وعدم الوقوع فى الخطية هو التأهب لاستقبال الموت . وهذا يجعل خاتمتنا سهلة ونهايتنا فرحاً أبدياً .

الفصل الثالث عشر فى عبرة زيارة المدافن

«الذهاب الى بيت النوح خير من الذهاب الى بيت الويلمة لأن ذاك نهاية كل انسان والحق يضعه فى

قلبه». (جا ٧ : ٢)

يقيم الناس النصب والتماثيل للمشاهير والعطاء ولكن هذه التماثيل لا تمثل الحقائق بل الفانيات لأنه بينما يكون التمثال قائماً يكون الممثل به ثاوياً فى جوف الشرى . يصور الناس صوراً شتى لمختلف الأشياء ولكنها صور الزائلات . فبينما ترى صورة الزهرة فتبتهج تجد الزهرة ذابلة ومثورة ؟ أما تمثال الموت « القبر » فهو صورة لحقيقة لا تفتى ، صورة لذلك الجبار الذى يجول العالم كله دون أن يضعف أو يكل .

ما أكثر تعطش الناس للذهاب الى البساتين والمنتزهات ومنتديات اللهو واللعب وما أعظم زهدهم فى التوجه الى الاماكن التى سوف ينتهون اليها ويرقدون فيها الرقدة الأخيرة فهم أشبه بأطفال يصرخون طالين الجمرة ، والحلوى بأيديهم . فخير للانسان أن يزدري بكل ملهى أو محل سرور لأنها ونظائرها جمرات للنفس ، ومن الحكمة أن يقضى المرء أوقاته حيث توجد أحداث الراحلين الذين سيلحقهم يتخذ له منهم عبراً ودروساً يتمكن بها من السير فى الحياة بعقل وفضيلة . فإن رؤية القبور تلاشى الكبرياء والعظمة ، وتبدد الميل الى الشر ، وتذهب بكل إثم راسب فى أعماق القلب . قال الحكيم « الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب » (جا ٧ : ٣).

حقيقتان واضحتان فى تاريخ الانسان بالواحدة منها يتندى و بالأخرى ينتهى وهما « الولادة والموت » وإذا راق لنا أن نقف حين الولادة بجانب سرير الطفل نهزه

بغبطة وابتهاج وجب علينا أيضاً أن نقف أمام القبر لنذكر الحقيقة الثانية كما أدركنا الأولى وحق لنا أن نقرن كلمة الولادة بكلمة الموت وحتى لا ينسينا السرور بالوجود في هذا العالم الحزن بالخروج منه . فيوم الولادة و يوم الوفاة أمران متلاصقان وحبلاّن متصلان والانسان يمى فى الدنيا كأنه عابر فى الطريق ، عن يمينه الموت وعن شماله الحياة ، وانه كما يدب بنموه فى الحياة يدب بأفاسه نحو الممات فى آن واحد ، ولا بد للعاقل أن يحضره ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة وأن اليقين فى أعواد النعش والشك فى أعمدة القصر .

قال أحد القديسين « إن السفينة لا تسافر إلا فى الوقت الملائم فتتشرقلوعها وتأخذ فى المسير بين فرح ركابها وابتهاجهم ولكن متى صدمها صخر تحولت الأفرح الى أحزان . كذلك وقت ميلاد الانسان يكون فرح جزيل للأهل والأقرباء والأصدقاء ولكن يجب أن نعلم أن هذا المولود سيموت يوماً فينقلب الضحك الى بكاء و يتغير الفرح حزناً» .

· والحزن عند ذكر الموت أفيد من السرور عند ذكر الميلاد لأن الطرب يخلف فينا الأمل الكاذب والأمل الكاذب يسبب انغماسات فى الشهوات . أما الحزن فانه يولد العبرة والعبرة تجعلنا نستعد ليوم الرحيل بانتباه تام . ولكننا أهملنا أن نذكر أننا سنرحل وحصرننا كل أفكارنا فى البقاء والوجود ، وضح فى ذلك قول لارشفوكو « شيطان لا يستطيع الانسان أن يحدق ببصره فيها الشمس والموت » فلا نتبجح لأن مجدنا ابتداء بل علينا أن نذكر يوم انتهائه .

الانسان جسد وروح ، فالجسد ينزع الى الشر ، والروح الى الخير . والجسد شديد الالحاح على الانسان ليرضيه فلا يمكنك أن تكبح جماحه وترد مطامعه إلا إذا أخذته الى حيث يقيم الأولون وتقول له « كم من هؤلاء أرضوك فأذلتهم ولبوا نداءك فأهنتهم وهم اليوم فى مضاجعهم لا يشعرون بلذة ولا يدرون ابتهاجاً» .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن كثيرين يبتون المدافن والأرمس تجاه المدن والقرى لتكون عبرة لهم ، كلما ينظرون اليها يتحققون من ضعف طبيعتهم

وزوالها . ولذا ينبغي أن نسمى القبور «مدرسة التواضع» حتى إذا أراد أحد أن يمضى الى مدينة عظيمة ليتخذ له فيها مركزاً سامياً أو رتبة عالية . فإنه قبل أن يلج المدينة لينال فيها ما يبتغى يجد على أبوابها القبور والمدافن ومملوءة جثثاً وعظام أموات مفعمة دوداً وبتانة فتتكسر حدة مطامعه و يرجع عن كبر يانه .»

إن زينون الفيلسوف لما أراد أن يجد واسطة فعالة مؤثرة لتهديب حياته وضبط حركاته الحسية كان يذهب كل يوم ويمكث بين القبور مدة يرجع بعدها صاحياً عاقلاً : ولما سئل عن سبب ذلك قال «لأننى لما أرى وأتأمل حال الأموات الذين عدموا كل ما كان لهم بزوال حياتهم فانى استخف بالخيرات الزائلة وأحبس بنفسى عن الافتخار بها .»

والقديس مكارىيوس المصرى الكبير جاءه ذات يوم أخ قائلاً يامعلم قل لى كلمة أتعظ بها . فقال له امض الى القبور واشتم الموتى الذين فيها . فضى الأخ وشتمهم ورجهم بالحجارة وعاد فأخبر القديس بما حصل فقال له أما خاطبك أحد بشئ ؟ فقال : لا . فقال امض غداً وامدحهم ، فضى الأخ ومدحهم قائلاً يا قديسون أنتم أبرار وأطهار . وظل هكذا دون أن يسمع مجيباً وعاد فأخبر الشيخ فقال له هل أجابك أحد بشئ ؟ فقال لا . فقال له الشيخ «إن كنت حقاً قدمت عن العالم مع المسيح ودفنت معه فاصنع هكذا لأن الميت لا يحس بكرامة أو باهانة وهكذا تستطيع أن تخلص .»

وإذا أردنا أن ندرك مقدار التأثير الحسن الذى تخلقه فينا زيارة المدافن فعلياً أن نشذكر كيف نكون مكتئبين ونحن ذاهبون اليها بأقدام تتلوى وقلوبنا تشعر بالخوف كأننا منطلقون الى مكان الاعدام . ولنتخيل مع ذلك السرور الذى يملأنا عندما نعلم أننا ذاهبون الى مكان اجتمعت فيه أسباب اللهو والسرور . فنحن نخشى أن نرى ضريحاً خشبية الحزن ولو كان نافعاً ونحب مواضع اللذة والسرور ولو كانت مضرة ، مع أن الحكيم يقول : «سمع الانتهار من الحكيم خير للانسان من سمع غناء الجهال» (جا ٧ : ٥) والسيد المسيح يقول : «طوبى للحزانى لأنهم يتعزون» (مت ٥ : ٤) وقال أيضاً «أنتم ستحزنون ولكن حزنكم سيتحول الى فرح»

(يو ١٦: ٢٠) وقال الكتاب عمن يفضلون فرح العالم «واحول أعيادكم نوحاً
وجميع أغانيكم مراثى» (عا ٨: ١٠).

فهناك فى المضاجع الأخيرة نشاهد سكوناً عميقاً وصمتاً بليغاً لا جلبة
ولا صياح ولا ضحك ولا أنين ، وقد كان بين الراقدين من ازعجوا العالم بأصواتهم
العالية ومن كان ضحكهم يقرع الآذان ، ومن كان أنينهم يقطع نياط القلوب
ولكنهم جميعاً صمتوا عندما علموا أنهم كما أتوا الى العالم غرباء رحلوا عنه غرباء
أيضاً . تشرق الشمس وتغرب وتتجمع السحب وتتبدد وتتعرى الأشجار عن أوراقها
ثم تعود مخضرة والأموات لا يدرون بشئ من ذلك كله . تأملوا جيداً فى تلك القبور
كم طوت من أدب وعلم وعظمة وحكمة . كم وارت من همم عالية وآمال كبيرة ،
وكم ذوت تحت ترابها من أجسام نضرة وبسمات عذبة وعيون ساحرة .

ايه أيها الأموات : ما بالكم ترقدون ولا تقومون ، تنامون ولا تستيقظون .
ما بالكم لا ترجعون الى أوطان لم يكن يطيب لكم البعد عنها ليلة واحدة ؟ فكيف
بكم وقد ابتعدتم عنها السنين الطوال ! أين أرجلكم التى كانت تقفز كالأيائل !
فلانسما الصبح الباردة ولا تغريد الطيور الصادحة ولا صياح الديكة ولا زرين
الأجراس ولا هتاف الرعاة يوقظكم من رقدتكم . هذا صوت الطرب الذى كانت
تعشقه آذانكم وهذا وجه الفتاة الجميلة التى كانت تحب التطلع اليه عيونكم .
ها محلات الرقص والخلاعة استوحشتكم وأماكن السرور واللهوقد خلت منكم
وتدعوكم . ما بالكم لم تهتموا بهذا الخبر وقد كان أحب الأخبار لديكم . آه أنكم
ما أصبحتم تهلون تلك الأمور إلا لأنكم فقدتم تلك القوة التى كنتم تقوون بها عليها !

فلنحذق بأبصارنا فى كل قبر من تلك القبور عند ذلك تتمثل لنا ذنوبنا وتلوح
أمامنا خطايانا : وكلما نذكر ذنباً جديداً يزيد ارتعابنا حتى نشعر بأن الخطية
الواحدة أثقل على أعناقنا من جبل عظيم بعد أن كانت كل خطايانا كلاشئ
أمامنا . لننظر جيداً فنتصور كأن كل قبر من تلك القبور قد وقف أمامنا خطيباً ليبين
لنا بفصاحة يعجز عنها أبلغ الخطباء مقدار الجهل والغرور السائدين علينا لأننا ملنا
للعالم وأحببناه ، ثم مقدار الخطأ والتهور لأننا سمحنا لأجسادنا الفانية أن تنتصر على

أرواحنا الخالدة .

كأننا نسمع تلك الأصوات المنبعثة من جوف القبور قد تعالت حتى وصلت الى الجوف ففاقت قدرة خطبائنا ومرشديننا لأن هؤلاء يخشون أن يشبوا للعظاء فساد عظمتهم ولذوى الأجداد بطلان مجدهم أما أولئك فلهم بسالة فى النصح وشجاعة فى الانذار لو كانت تصل قلوب ملوك العالم لصعدوا فى قصورهم من الوجل .

أسمعهم يقولون : أما زلتم تذكرون مجداً وعظمة وملكاً ! وما علة شقائكم إلا المجد والعظمة والملك ؟ مضمحل ذلك المجد . حقيرة تلك العظمة . زائل ذلك الملك . « باطل الأباطيل الكل باطل » (جا ١ : ٢) مجد كالزهر وعظمة كالتراب ومنك كالعشب جميعاً تذروها الرياح و يكفى للماشاتها من الزمن ما بين المساء والصبح . تأملوا هنا هل ترون فرقاً بين عظيم وحقير، ملك وعبد، غنى وفقير . قد انتهى أمر التفاضل بينهم وتساوى الجميل بالشنيع والشيخ بالشاب ومن تمتع بالملذات بمن لم يتمتع بها .

تعالوا هنا أيها المخدوعون بالحياة اقتربوا أيها المتكبرون المتشامخون . تعالوا لتعرفوا مقدار غروركم وعظيم جهلكم . فهنا تنتهى آمالكم وهنا يذل تشامحكم وهنا يحل بكم الفقر المدقع وهنا يختفى كل مجد لكم وتغيب جميع ابتساماتكم وينطفئ مجالكم « قلت للمفتخرين لا تفتخروا وللأشرار لا ترفعوا قرناً . لا ترفعوا الى العلى قرنكم ... ولكن الله هو القاضى . هذا يضعه وهذا يرفعه » (مز ٧٥ : ٤ و ٥ و ٧) .

فليقف فوق رمال هذه القبور المبعثرة وعلى جوانبها المنهدمة المتساقطة أرباب المطامع فى الحياة وطلاب العظمة خاشعين مستكينين خافضى رؤوسهم إجلالاً واكباراً ويمسكوا قليلاً عن التدلل بعزهم وجاههم والتفاخر بفضتهم وذهبهم وليخفوا فى أعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترفقة على شفاههم وليعلموا أن طريق المجد والعظمة التى يسرون فيها وان كانت مخضرة جميلة مفروشة بالأعشاب محفوفة بالأزهار الأريجبية، إلا أنها تؤدى فى نهايتها الى هذا المصير الذى صار اليه المقبورون .

تعالوا أيها الأحياء وقلوا لنا بماذا تفتخرون؟ هوذا الأموات يتكلمون فاسمعوهم لأنهم عرفوا ما لم تعرفوا أنتم واختبروا ما لم تختبروا. ها هم يسألونكم. بماذا تفتخرون علينا؟.

أبجمالكم؟ عما قليل سيتحول إلى شناعة ليتكم فقدتم هذا الجمال الغشاش الذى جرکم الى الاثم. جمال يظهر اليوم ويختفى غداً أنه لجمال باطل.

أبتظركم؟ ماذا تنظرون؟ أليست الشرور والآثام؟ ليته ما كان لكم نظر وما كنتم تطلعون به الى الخطية التى أهلكتكم. عيون تنظر اليوم وتكف غداً لا يحق الافتخار بها.

أبسمعكم. ماذا تسمعون؟ أليس صياح المستهزئين وتجديف الخطاة وتملق الأشرار؟ ليته لم تكن لكم آذان لتسمعوا بها ما يضرکم وينتهى بكم الى الويل. آذان تسمع وتضم غداً لا يصح التباهى بها.

أبمنطقكم؟ بماذا تتكلمون؟ أليس كلاماً ملؤه الافتخار والخداع والسب والوقية. ليته لم تكن لكم ألسنة تتكلمون بها ما ستحاسبون عن كل حرف منه (مت ١٢: ٣٦). لسان يتحرك اليوم ويخرس غداً لا ينبغى التطاول به.

بماذا تفتخرون علينا؟ أبقدرتكم على التنقل من مكان لآخر؟ مهلاً. ستخلدون الى الخمول. وستفقدون قوة الحركة مثلنا. أبالغنى والجاه والمجد؟ ستعدمون كل ذلك كما عدمنا قبلكم. أبسكنى القصور؟ القبور متأهبة لاستقبالكم. أباللباس البهى؟ ستحرق كل حلالكم وتترزون بكفن كما اترزنا. أبالمضاجع الوشيرة الناعمة التى تضطجعون عليها؟ لا بد من افتراش الحصى كما افترشناه نحن. أبالروائح الزكية التى تنبعث من ثيابكم؟ ستخرج منكم يوماً عفونة زائدة ينفر منها محبوبكم كما حدث معنا. فنا من كان قبلاً يتطيب واليوم ينقل الريح نثانته الى أنوف محببته. أبعلموا كركم؟ سيدلكم الزمان. أبارتفاع كراسيكم؟ لا بد لكم من أن تدرجوا فى أعماق الأرض.

فلا نفتخروا علينا إذا فأنتم ونحن أشبه برجلين محكوم عليهما بالاعدام ، نفذ الحكم في أحدهما وسينفذ بعده في الآخر فلا ينبغي للثاني أن يفتخر على الأول إذ سيجرى عليه تماماً ما جرى على صاحبه وسيلحق به عما قليل .

كم منا كانوا مثلكم ! ألم يكن فينا العطاء وأصحاب الجاه والفصحاء وذوو الوجوه الحسنة ؟ وبالأمس فقط كنا مثلكم نفكر في لذة نتمتع بها ومال نكسبه ، وليال في اللهونفضيها ، فدهمتنا الحمام وسلبتنا كل موجود ومأمول فلم يبق ولم يذر . فدعوا عنكم الغرور واستعدوا للقاء ربكم بالايان الصحيح والعمل الصالح فهما وحدهما يتفعانكم يوم يحل بكل ما حل بنا .

قال أحدهم تحت عنوان « عند منازل الأموات » : حينما أنظر الى مقابر العطاء تموت عاطفة الحسد في قلبي . وحينما أقرأ أساء أولئك الذين ذهبوا تتلاشى أمام عيني كل مظاهر العالم الفاتنة وتبدو مكانها النهاية المحزنة .»

اعتاد الكثيرون أن ينقشوا أساء أمواتهم على صفحات قبورهم فلو قرأت تلك الأساء لزدت احتقاراً لهذه الحياة وازدراء لهذه الدنيا . قيل ان دوميتيانوس قيصر إذ شعر بأن رجاله يضمرون له شراً دعاهم الى مأدبة بقصره وادخلهم الى غرفة مظلمة عليها شارات الحداد وفيها مصباح ضعيف الضياء ووضع في وسطها نعشاً بدلاً من الخوان ، وآلات تعذيب وقتل عوضاً عن الاطباق والملاعق ، وأوانى مما يحفظ فيها رماد الأموات في مكان أقذاح الشراب وكتب على كل أناء من أوانى الرماد اسم واحد من المدعوين بجروف سوداء . ولم يكن هناك سوى بعض من العبيد يشخصون أفضع الميتات وموسيقى تعزف بألحان محزنة تذيب القلب كمدماً . فأى خوف وجزع وهلع ملك حينئذ قلوب أولئك الرجال . انهم عندما أمرهم القيصر بعودتهم الى منازلهم لم يصدقوا بالنجاة بعد أن شاهدوا الموت أمام أعينهم وأدركوا أن الملك قد مثل أمامهم صورة العذاب الذى تستحقه خيانتهم وهو الموت الزؤام فعاشوا ما بقى من الحياة محترسين مما يؤدى بهم الى ذلك المصير المشؤوم .

تعالوا نتأمل فى تلك الحكمة عليها تبدد ما تسلط على قلوبنا من الأوهام ولنصفحص ما كتب على ظاهر المدافن فإذا نرى ؟ هذا قبر كتب عليه اسم ملك

وتاريخ ملكه و يوم موته . لتجبل بخاطرنا عظمة ذلك الملك وجلال حضرته ، وكيف كان الألو ف تحت أمره ، وكيف كان يزين التاج رأسه والذهب الوهاج يلمع على صدره وكيف كانت كلمة واحدة منه ترفع ، وكلمة واحدة منه تذل ، وكيف كان الجميع يطلبون رضاه و يتمسحون بأعتابه ، ولنجزع إذاً عندما نذكر تلك الضجة الذليلة التي انتهى إليها بعدئذ ذلك الملك العظيم والمجد الفخيم .

وهذا قبر آخر . ماذا كتب عليه ؟ اسم ثرى عظيم اقتنى ثروة لا عد لها . فلنذكر كيف واصل ليله بنهاره فى جمع المال وكيف حرم نفسه لذة الراحة والنوم فى سبيل كنهزه وتدخييره ، وكيف عادى الناس وظلمهم وكيف استلب حقوق الأامل والأيتام ليرضى طمعه الذى لا يشبع . ولننظر كيف ترك كل ما جاهد فى جمعه ورضى بقيد ذراعيه بعد أن كانت الدنيا على سعتها ضيقة أمامه . أنظر كيف خرج من العالم بدون شئ كما دخل اليه بدون شئ وكيف دخل القبر عرياناً كما خرج من بطن أمه عرياناً (أى ١ : ٢١) كان لو وهب ذهب العالم كله لا يعرف للفنائة معنى والآن تراه يترك ما ناله بتعبه وجهاده ليتمتع به من لم يتعب فيه . ذخر ذخائر ولا يدري من يضمها . (مز ٣٩ : ٦) .

وهذا قبر آخر . كتب عليه اسم واحد ممن اشتهروا بمحبة الشهوات . لتتخيل كيف كان يسعى وراء ارضاء شهواته . وكيف كان يختفى عن عيون الناس ليبلغ وطره وإذا به الآن قد فقد كل ميل للشهوات وكل رغبة فى اللذة ، وما عاد يشعر بالخطية التى اترفها ولا بالاثم الذى ارتكبه ، ولم يبق لها من الأثر إلا ما يلمح سمعته و يندس صيته ويجلب عليه اللعنة والعار .

وهنا قبر آخر يجمع العظام النخرة البالية التى بقيت من ذلك الهيكل الانسانى البديع . هنا وجه لامرأة كانت ذات جمال رائع وذلك الوجه كان من أيام قلائل يسبى القلوب و يستهوى الأفئدة بجماله الجذاب ، وذلك القم الأرجوانى الذى كان يتسم فيخلب الأبواب ، قد تحول كل ذلك الى شكل يحيف من يراه و يزجج من ينظر اليه . لقد تحولت الابتسامة الحلوة الى عبوسة دائمة .

تأمل . هنا قبر مراب سلب كثيرين أموالهم بما أخذه منهم من الربا الفاحش ثم مات دون أن يرد المسلوب وترك أمواله لبننيه فأنفقوها فى وقت قصير فى الملاهى والمنكرات . وهناك رمس حقير يجمع عظام رجل كان يعاقر المسكر فمات وهو سكران . وبالجملة تجد هذه القبور المتجاورة تجمع رفات شيوخ وشبان ورجال ونساء وأطفال وعظماء وأقرباء وعلماء وأغنياء وفقراء وجهلاء وأشقياء ، لأن الكل تحت سلطان الموت على حد سواء .

أتريد أن تتعلم أكثر . تعال واكشف هذا القبر لترجئة انسان كنت تعرفه كبيراً عظيماً جباراً عنيداً يرفع يده بشدة و يتكلم بقوة . ها قد ضعف . أنظر اليه وقد تحولت عظمته الى هوان ، وقوته الى ضعف ، وصوته الى خرس . تأمل هذا اللسان . كم مرة تكلم بالشر وكم دفعة تفوه بألفاظ العجب والكبرياء . كم من لسان فصيح كان إذا تكلم صمت الناس أصبح الآن طعام حشرة حقيرة . وهذه اليد كم مرة ارتفعت للضرب وكم مرة أهانت البائسين وكم مرة صفعت الوجوه وقبضت الدنانير ولكنك تراها الآن هادئة كم يد هنا يأكلها الدود وكانت إذا ارتفعت خضعت لها الرؤوس . كم من رأس أكلها الفساد كانت لا تسمح لرأس أخرى أن ترتفع أمامهم . وهذه العين كم مرة نظرت الشر . كم من عين كالتي قال عنها الحكيم « لا تشبع من النظر » (جا : ١ : ٨) ملأها التراب وسكن فيها الدود .

كم من كثيرين من هؤلاء أذلوا الناس فأذلم الموت . وظلموا الغير فظلمهم القبر . وأهانوا الآخرين فأهانهم البلى . كم من كثيرين منهم اشتدت آمالهم وعظمت مطامعهم . سلهم الآن عما فى قلوبهم من آمال وفيما يطمعون . لا آمال ولا مطامع . خابت الآمال وذهبت المطامع .

لما وقف الفلاسفة يؤبنون اسكندر الأكبر قال أحدهم « قد كنا أيها الشخص بالأمس نصغى للاستماع منك ولا نقدر على القول فهل تسمع الآن ما نقول » وقال آخر « يامن كان فى غضبه الموت لم لم تغضب على الموت » وقال آخر « عهدى بك وأنت تمنى نفسك فى امتلاك أرحب البلاد فكيف صبرت الآن على ضيق هذا

فها قد رأيت المتكبر ساقطاً والعظيم حقيراً والفتيح فهياً فقل أذن لمن على
شاكلتهم انك الآن رأيت الذين كانوا مثلهم قد فقدوا ما يشبهونهم به اليوم . قل لهم
أيها التراب علام هذا التمام وقد جئتم من التراب وستصيرون الى التراب .

بعد ذلك ماذا ترون في الدنيا يا محبيها . الدنيا التي أنتم تعتبرونها وتعظمونها . ألم
تصغر أمام عيونكم . ألم تصبح قيمتها أمامكم كذرة رماد صغيرة . أليس لكم الآن
أن تفضلوا الحزن الذي يحسب مشيئة الله الذي ينشئ توبة لخالص بلا ندامة على
فرح العالم الذي يسمع كل محب له وقول السيد المسيح «ويل لكم أيها الضاحكون
الآن لأنكم ستحزنون وتبكون» (لوقا : ٢٥).

فيباطلاً إذا نجري وراء السرور في هذا العالم . إن زهرة الحياة لا تنبت إلا في
لترية التى نبتت فيها أشواك الموت . هكذا لا نستطيع أن نكتسب لأنفسنا عظة
تردنا عما نساق اليه بقوة شهواتنا البدنية إلا إذا تأملنا جيداً في ما صار اليه
أسلافنا .

ولكن بينما نرى أولئك الراحلين يعلنون بفصاحة تلك الانذارات نتأمل بين
الأحياء فنرى الشرير مكباً على شره والغنى ساعياً لجمع ماله وعاشق المجد يطلبه
بشدة وهم لا يدرون ماذا يتم لهم في مساء هذا اليوم أو في صباح الغد . وما أحسن
ما قاله بوب الشاعر الانكليزي في هذا الصدد «إن الحمل الصغير يرح و يلعب قبل
أن يذبح بدقة واحدة وربما لحس بلسانه اليد التى ستمتد لتريق دماهه هكذا نحن
لا نعرف شيئاً مما ينتظرنا بعد لحظة واحدة» .

ولهذا يقول الحكيم «قلب الحكماء فى بيت النوح وقلب الجهال فى بيت
الفرح» (جا : ٧ : ٤).

الفصل الرابع عشر فى عبرة الأبدية

« وأيضاً جعل الأبدية فى قلبهم التى يلاها لا يدرك الانسان العمل الذى يعمله الله من البداية الى النهاية » (جا ٣ : ١١).

حياة الانسان لا تنتهى بالموت بل تعقبها حياة أبدية كما صرح الرسول بولس قائلاً « لذلك نحترس أيضاً مستوطنين كنا أو متغربين أن نكون مرضيين عنده . لأنه لا بد أننا جميعاً نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً » (٢ كو ٥ : ٩ ، ١٠) ولقد قال أيضاً أحد الأفاضل . « انى كل مرة أتأمل فى يوم الدينونة أرتعد مرتجفاً . ودائماً أسمع ذلك اليوق الأخير صارخاً فى أذنى وهاتفاً : أيها الأموات قوموا واستعدوا للدينونة ».

فيجب علينا إذاً أن نفتكر دوماً فى الأبدية لأن ذكرها يورث القديسين فرحاً وابتهاجاً ، والخطة خوفاً وارتجافاً ، وكلا الفريقين يجنبى من هذا التأمل نفعاً بليغاً . فهللم بنا إذاً نتأمل فى صورة الأبدية ونحذف فيها ببصرنا حتى إذا كنا على صلاح زدنا فيه نشاطاً ونمواً وإذا كنا على شر خشنا عاقبته وعدلنا عنه . قال القديس أوغسطينوس « إن كثر عليك التعب فاذكر الجزاء » وكان أحد المؤمنين يتشجع فى ضيقاته لأنه كان دائماً يقول لنفسه « انى أتعب لأجل السماء ».

نرى فى كلمة الله أن نبياً من أنبياء العلى لما أهل ذكر الأبدية أوشك أن يزل ويسقط ولكن لما تذكر الأبدية تاب الى رشده وأدرك عظم خطئه . وهو آساف المرتل الذى غار من نجاح الأشرار وتقدمهم وارتفاعهم وازدياد سرورهم بينما يكون أولاد الله واقعين تحت مختلف الآلام فقال « فلما قصدت معرفة هذا إذا هوتعب فى

عينى حتى دخلت مقدس الله وانتبهت الى آخرتهم . حقاً فى مزالق جعلتهم .
أسقطتهم الى البوار» (مز ٧٣ : ١٦ - ١٨).

بل إن الفلاسفة الوثنيين أنفسهم كانوا يرتجفون من تصور الأبدية ولما أرادوا أن يصوروها استعملوا رموزاً وتشابيهها مخيفة ومرعبة . فبعضهم صورها بصورة أشر الافاعى نوعاً أى التى مجرد فحيحها يقتل البشر وصورها آخرون بصورة تين مخيف فاغراً فاه على شفاء حفرة عميقة يرصد الناس ليبتلعهم أحياء . وغيرهم يصورون الأبدية بصورة حفرة عميقة جداً لها عند مدخلها أربع درجات : الدرجة الأولى من حديد والثانية من نحاس والثالثة من فضة والرابعة من ذهب ، وعلى هذه الدرجات أطفال وقوف يلعبون لعباً مختلفة وهم غافلون عن خطر السقوط فى هذه الهاوية . والمراد بذلك اظهار تفاقم جهل البشر فمنهم من يتنزه ومنهم من يضحك ومنهم من يتعلق بحبة خيرات العالم وجواهره وهم غير ظانين أنه من الممكن أن يلقوا الى الأبد فى جهنم .

أيها الأشقياء يا من تسرعون الى الهاوية بخطى واسعة وأنتم لا تدرون ، وتجرون الى الأبدية باطمئنان وأنتم لا تشعرون قفوا هنية قبل ما تهبطون فى أعماق الأبدية . فكروا فيها قليلاً «من منا يسكن فى ناراً آكلة . من منا يسكن فى وقائد أبدية» (اش ٣٣ : ١٤) قل لنفسك أيها الجاهل يا من تخشى من حرارة الشمس هل تستطيع أن تحمل اللهب الأبدى ؟ أيها المرأة المتنعمة يا من لا تحتلمين أن توخر يدك بآبرة هل تستطيعين الصبر فى تلك النار الأبدية ؟ أيها الساعى وراء اللذات يا من لا تقوى على احتمال نفس جارك هل تقدر أن تبقى الى الأبد بين جثث الهالكين الكرهية فى جهنم ؟ ليسأل كل متكبر وطماع وشهوانى نفسه قائلاً «أيها النفس المتمردة العاصية التى أحببت الاثم واشتهيت الخظية . ألا تعلمين أية مجازاة يجازيك الله بها ؟ انها نار حامية وهيب مستعر . فهل تطيقينها ؟ إذا كنت لا تحتلمين المثول أمام يدى الله هنا لحظة لتدبى اثمك وشرك . فكيف تستطيعين احتمال ذلك العذاب المريع ؟».

انظر أيها الانسان كيف تداوى سرتك وتصلحها . ليس من علاج أعظم تأثيراً

من التفكير فى الأبدية . إن ذكر الأبدية هو الذى جعل جميع القديسين يصمون آذانهم عن سماع الشر ويغلقون أعينهم عن النظر الى القبائح . و يسكتون ألسنتهم فلا تنطق بالمكر والخداع . هو الذى حمل جميع الأتقياء على احتمال المكاره حياً فى الفضيلة : هو الذى جعل يوسف يؤثر الطرح فى السجن على العصيان . وهو الذى قوى الثلاثة الفتية على احتمال نار أتون نبوخذنصر بدلاً من احتمال نار غضب الله القدير . جميع القديسين كانوا يهزأون بالآلام الحياة لأنهم كانوا يعتقدون أنها مهما عظمت فانها تنتهى بانتهاء العمر ولكنهم يخشون آلام الأبدية التى لا نهاية لها ، ولذلك فضلوا أن يعذبوا وقتاً بدلاً من كل الأوقات . وهذا ما هددت به القديسة دميانة العذراء أبها عندما أغراه القيصر ليسجد للأوثان إذ قالت له « خير لك يا أبى أن تحتمل العذاب برهة وتموت شهيداً فتحيا مع المسيح الى الأبد من أن تحيا وقتاً وثيباً ثم تموت مع الشيطان الى الأبد » .

ان أخاب الملك إذ سمع من ايليا النبى قوله « فى المكان الذى لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضا » يقول الكتاب انه « شق ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام واضطجع بالمسح ومشى بسكوت » (١ مل ٢١ : ١٩ و ٢٧) فإذا كان الموت الوقتى الهين أزعج أخاب وأرعبه فإذا ينبغى أن يعمل من يسير بشره ليلقى به فى جهنم الى الأبد ؟ قال أحد الأفاضل « ما أكثر الذين يرضون بجهنم ولا يتنازلون عن عشرة رديئة أو عادة مذمومة » .

لقد كان من عادات العصور الأولى عند تنصيب أحد خدام الدين أنهم يحرقون أمامه قليلاً من القطن ، وكان الغرض من هذه العادة أن يتذكر لهيب نار الأبدية . فالطريق الى السماء وعرة المسلك و بابها ضيق وتجارها شديدة و ابليس لا يفتأ يهجم على المسافرين قصد الايقاع بهم . ولا ريب أنه لا يقى الانسان من شر هذه الأمور مثل ذكر الآخرة كما قال رب الجنود « اجعلوا قلبكم على طرقكم » (حج ١ : ٥) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن تأمل العذاب الأبدى هو بمنزلة الدواء المر الذى ينقى النفس من كل الشرور والخبائث ، فإذا كنت متغافلاً فأذكر الخمس العذارى الجاهلات اللاتى لم يأتين بزيت لصايبحهن فسقطن وإن كنت مختلساً

فاسمع سيدنا قائلاً « خذوه من يديه ورجليه واطرحوه فى الظلمة الخارجية . هناك يكون البكاء وصرير الأسنان » وإن كنت سكيراً فاسمع ما يقوله الغنى لابراهيم « يا أبى ارحمنى وأرسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء و يبرد لسانى لأنى معذب فى هذا اللهب » وإن صارتك الشهوة فافتكر فى اضطرام نار جهنم حتى يخذ اشتعالها فيك .

قيل أن ديونيسيوس الملك المعتصب اخترع من حلة أنواع العذاب سجنأ بناه بصورة أذن فيه ثقب صغير يساعده على سماع كلام المسجونين وصرائحهم وتذمرهم . فليت لنا هذه الأذن لنسمع تأوهات الأشرار فى الجحيم وأنبيهم فى جهنم حتى نعلم كم تجلب الخطية من الويلات على مرتكبها ليتأمل محبو العالم كيف أنهم ههنا لا يكرهون ملامسة أى شئ يؤلمهم أم فى الحياة الأخرى فيتراكم عليهم العذاب والآلام بغير انقطاع . وهؤلاء الذين يهابون الموت الآن يندمسون هناك الموت فيهرب منهم . إذا شعرت باحترق منزلك فانك تهرب ولا تقف خوفاً من النار فإن كان خوف العذاب الزمنى مخيفاً هكذا فما بالك لا تهرب خوفاً من نار جهنم ؟ لنستأمل فى ذلك جيداً لأن ذكر نار غضب القديريلين قساوة القلب ويهدى المتسردين والعصاة .

قال المرتل « تأديباً أدبنى الرب والى الموت لم يسلمنى » (مز ١١٨ : ١٨)
فكل ما يقاسيه الانسان هنا من الآلام يعتبر هيناً إذا نجا من الآلام الأبدية .

قال القديس أوغسطينوس « اضرب ههنا . اقطع ههنا . لكى تغفر الى الأبد ابلسنا بالفقر هنا ارسل لنا العار هنا اضنكننا بالأمراض هنا . احزنا واشقنا واتعينا من البلايا هنا لكى نرحنا الى الأبد » .

لنردد فى ذهننا هذه الكلمة المريعة (الأبدية . الأبدية) لنذكر أنه توجد جهنم لا نهاية لها ، وأنه يوجد مجد أبدي لا آخر له ، الشمس إذ تغيب مساء لا يراها الانسان مع أنها موجودة فى كل مكان آخر . هكذا مجد الفضيلة ظاهر والناس لا يرونه . وشر الرذيلة واضح والقوم لا يبصرون . والموت يتقدم اليهم وهم لا يشاهدون وجههم تتحرك تحتهم لا يتلاعهم وهم لا يشعرون لأن الذى يعرف جيداً

مجد الفضيلة ويشعر أنه بعيد عنها ، وشر الرذيلة ويعرف أنه متمسك بها يذوب خوفاً حسرة . وهوذا أحد المتأملين جيداً فى ذلك يقول « من أجل ذلك ارتاع قدامه . تأمل فأرتعب منه » (أى ٢٣ : ١٥) .

ليت جميع الناس يطبعون صورة الأبدية على أعماق قلوبهم لأنهم لو فعلوا ذلك لرأينا فى سيرتهم تحسناً سريعاً وفى أعمالهم صلاحاً عجيماً ، ليتهم يجعلون صورتها ازاء أعينهم على الدوام وصوتها يرن فى آذانهم طول الأيام . قال بعضهم « أيتها التصورات الخفيفة . تصورات جهنم والدينونة . لا تبرحى من أمام عقلى حين يجتهد العالم أن يغوينى لكى أذنب سيرتى بواسطة مكايده وحيله الباطلة . ياتصورات الدينونة وجهنم الهائلة ارتسمى فى أذهاننا ولا تزولى من صفحات ذاكرتنا لنستطيع أن نعرف انتقام العدل الالهى وقيمة النعمة التى أمامنا يا جهنم . يا جهنم . إن ذكرك وحده يربعبنا » .

وكما أنه فى ذكر جهنم وعذابها كل خوف للأشراق فى ذكر السماء وأمجادها كل سعادة للأبرار . وكمن من قديسين عاشوا ولا هذيد لهم ليلاً ونهاراً إلا ذكر فردوس النعيم الذى كانوا يحنون اليه ويهيمون به ويتوقون الى الوصول اليه . كانوا يتسلون بتصوره فى فكرهم حتى يتاح لهم أن يتطلعوا الى الحقيقة كما قال الرسول يوحنا « أيها الأحباء نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يوحنا ٣ : ٢) .

ففى ذكر السماء أعظم تعزية للأتقياء المتفرجين فى هذا العالم وهو الذى يجعلهم يزدرون بكل ما فيه من المشتهيات الحقيرة . فإذا ما دهمتهم الآلام والأحزان يذكرون أفراس مدينتهم السماوية وإذا لست الدنيا أحسن زينتها قالوا أين هذا المنظر الشنيع من مجال بيت أينا الذى لا يقوى على وصفه لسان ويهتفون مع داود النبى قائلين « إن نسيتهك يا أورشليم تنسى يمينى . ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » (مز ١٣٧ : ٥ ، ٦) .

فما بالناس نحن أذن نأخذ فى التحدث عما فى العالم من جمال حقير ومجد باطل وننسى أن نلهج بمحاسن مدينة الله العلى أورشليم السماوية . لماذا لا نذكرنا بلايا

هذه الحياة بسعادة السماء لماذا لا تذكرنا مخاوف الدنيا بأمان الملكوت ؟ لماذا لا تذكرنا أحزان العالم بأفراح النعيم ؟ لماذا لا نرفع عيوننا الى السماء ونتطلع الى ذلك المجد الأبدى ؟ إن نفوسنا تسميل بنا الى التأمل فى مجد الأرض دون مجد السماء ، فعلينا إذن أن نصادر آميالننا إذا انخرقت بنا الى التأمل فى الأرض . ونسر منها إذا رأيناها تنزع بنا الى السماء . فلا يليق بمن خلقوا على صورة الله أن يطلبوا السرور من الأمور الفانية ، بل لنجعل موضوع سرورنا اشتها الأبدية .

ومن لا يسر إذا شعر أنه لأجله قد أعدت أفراح سرمدية وسعادة خالدة . فإذا تأملت فى هذا أخذك الميل الى الشوق الذى يولد فىك العمل لتحصيل ذلك المجد حتى تقول مع القديس أغسطينوس « يا أورشليم يا بيت الله السرمدى أنت بعد الله بهجتنا وتعزيتنا وسلوتنا . لأن ذكر اسمك العذب يخفف حزننا و يلطف عذابنا » .

وتقول معه أيضا « ملكنى ذاتك أيها الخير السامى الذى لا خير سواه وأسعدنى بك يا ينبوع السعادة الكاملة . روحى تتوق اليك جداً ولذلك هى حقاً ذابلة حتى أبلغ اليك يا حياتى المحبوب . فعلام تخفى عنى وجهك . ألعك تقول « لا يرانى بشر ويعيش » امتنى يارب وابصرك دعنى أراك وأموت عن العالم .

الفصل الخامس عشر فى انتقال الصالح

« أيضاً إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى » (مز ٢٣ : ٤).

قد دخل مخلصنا القبر ولكنه لم يمكث فيه بل جاوزه . كان الناس يرون القبر سجنأً أبدياً وأنه مدخل مظلم لا خروج منه ولكن يسوع جعله مجازاً للمفدين من هذه الدار الى ملكوت السماء ، فالموت والقبر بعد قيامة السيد المسيح غيرهما قبلها . وذلك الانسان الذى يصبر الى المنتهى ثابتاً فى الايمان والتقوى ينال الحياة الأبدية « ولكن الذى يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » (مت ٢٤ : ١٣) وقال يوحنا الرسول « وهذه هى الغلبة التى تغلب العالم . ايماننا » (ايو ٥ : ٤) فحياة المؤمن هنا مفعمة بالرجاء والاتكال على الله . فهو به مكثف وعليه يستند حتى الى الموت يصبح قائلاً « فدى نفسى من العبور الى الحفرة فترى حياتى النوع » (أى ٢٣ : ٢٨) ويقول أيضاً « لأن الله هذا هو الهنا الى الدهر والأبد هو يهدينا حتى الموت » (مز ٤٨ : ١٤).

هذا المؤمن يضطجع على فراش الموت منتظراً الساعة التى فيها ينتهى أجله مملوءاً تعزية ، لا يخشى موتاً ولا دينونة إذ لا سلطان لهما عليه كما قال السيد له المجد « من يسمع كلامى ويؤمن بالذى أرسلنى فله حياة أبدية ولا يأتى الى الدينونة بل قد انتقل من الموت الى الحياة » (يو ٥ : ٢٤) وكما قال الحكيم « فى سبيل البر حياة وفى طريق مسلكه لا موت » (أم ١٢ : ٢٨).

معلوم أن الموت هو ألد أعداء البشر ويدعوه الرسول بولس « آخر عدو يبطل » ولكنه هو نفسه يهتف به قائلاً « أين شوكتك يا موت » (١ كو ١٥ : ٢٦ - ٥٥) وذلك لأن الموت عدو لقوم وحبيب لآخرين . عدو للخاطى وحبيب للتقى يقول

الحكيم « مخافة الرب ينبوع حياة للحديدان عن اشراك الموت » (أم ١٤ : ٢٧) فما أسعد الذين يموتون في حال البر والقداسة فهؤلاء قد نالوا الطوبى والغبطة كقول الكتاب « وسمعت صوتاً في السماء قائلاً لي أكتب طوبى للأموات الذين يموتون في الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكي يستريحوا من أتعابهم وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤ : ١٣).

ان ذلك النبي الذي أرسله الله الى يربعام قد أمره أن لا يقبل ضيافة أحد ولا يأكل ولا يشرب عند أحد ولا يدخل بيتاً أصلاً ، ولكنه إذ خالف الرب هجم عليه أسد عند عودته وقتله غير أن الأسد لم يجسر أن يأكله أو يمزقه بل جلس فوق جنته يجرسها من بقية الوحوش الى أن أقبل عليها أشخاص حلوها ودفنوها (١ مل ١٣) هكذا الموت يسمح له الله أن يقترب منا و يأخذنا ولكن لا يعذبنا بل يعملنا بسلام الى أماكن الراحة . لهذا نجد الأبرار إذا سمعت نفوسهم الدعوة الى مفارقة أجسادهم لبوا النداء وسلموا مبتهجين وهم يقولون « لأنك نحييت نفسى من الموت . نعم ورجلى من الزلق لكي أسير قدام الله فى نور الأحياء » (مز ٥٦ : ١٣).

فلا يوجد حينئذ شئ يحزن أولاد الله . لا يكدرهم ترك خيرات العالم لأنهم لم يضعوا قلوبهم عليها . ولا تقلقهم مفارقة الملمات الجسدية لأنهم لم يتعلقوا بها . ولا يؤلمهم اهمال الأجداد والعظمة لأنهم لم يشغلوا بها . فهم يسلمون فى كل شئ بفرح عالمين إن هم مالأ أفضل فى السموات وبقياً (عب ١٠ : ٣٤) ولذلك لم يجبو حياتهم حتى الموت (رؤ ١٢ : ١١).

نعم قد تلالأت للمؤمن الدنيا بزخرفها ونعيمها ولكنه لم ينخدع بها ، وقد أخذ هذا المنظر يتضاءل أمام عينيه وابتدأ جسمه البالى الذى حاربه نفسه وقهرت شهواته على الدوام أن ينحل فيتعزى عزاء أبدياً .

بل إن المؤمن المشرف على الموت إذا رأى أهله حوله باكين يشجعهم ويحثهم على سلوك الصلاح الذى ينجى من الموت . فابراهيم واسحق ويعقوب حين دنو موتهم وشعورهم به لم يرتعبوا بل كانوا يستحضرون أولادهم و يباركونهم و يظهرون

كأنهم لم يكونوا يتوقعون شيئاً جديداً يحل بهم ، و يوسف وهو فى النزح قال لأخوته بثبات « أنا أموت ولكن الله سيفتقدكم و يصعدكم من هذه الأرض » (تك ٥٠ : ٢٤) و موسى حين أخبره الله أنه سيموت لم يخف بل أوصى اسرائيل بوصية الرب و وصف الله بقوله « ان جميع سبله عدل . انه أمانة لا جور فيه صديق و عادل هو » (تث ٣٢ : ٤) و داود حين أنت منيته أوصى ابنه سليمان بحفظ وصايا الرب و قال له « أنا ذاهب فى طريق الأرض كلها » (١ مل ٢ : ٢) و بولس الرسول حين شعر بدنو ارتحاله قال لتيموثاوس « فانى أنا الآن أسكب سكباً و وقت انحلالى قد حضر » (٢ تى ٤ : ٦) و بطرس الرسول يتكلم عن نفسه بلا وجل قائلاً « عالماً أن خلع مسكنى قريب كما أعلن لى ربنا يسوع المسيح أيضاً » (٢ بط ١ : ١٤).

هناك يضع المؤمن يده فى يد ابراهيم واسحق و يعقوب و ينظر وجه بولس الرسول ، و يقف مع بطرس ، و يجلس فى الحفول المختصة مع موسى و داود ، و يصلى فى نور شمس النعيم مع يوحنا و المجدلية . فيا لها من غبطة عظيمة !!

أجل يشعر المؤمن هنا أنه سيخسر ممتلكاته و كل ثروته ولكنه لا يحزن لأنه يكون مشغولاً بالتفكير فى ما سيربح فى السماء . يفكر فى المدينة العظيمة التى لها الأساسات التى صانعها و بارئها الله . يفكر فى المساكن الأزلية التى لا يصح أن تقابل بها أعظم قصور ملوك الأرض . يفكر فى الخيرات السماوية التى تشع شعباً أديباً و تملأه اكتفاء لم يشعر بجزء منه لو امتلك كل الأرض هنا .

فما أعظم راحة المؤمن وهو على فراش الموت و ما أسمى هدوء باله و سكون خاطره و ضميره . لا يقلقه شئ لأن خطاياها قد غفرت له و قلبه اشترك بنعمة الله و صليب المسيح . فهو يشتهي حينئذ أن يظهر محبته الأكيدة ليسوع بشدة . ذلك المخلص الذى كان ذكره فى قلبه مدة حياته ، ذلك المخلص الذى عليه ألقى اتكاله وهو الآن رجاؤه و معتمده الوحيد فله قد عاش و اليه الآن ينتقل . و تظهر على وجه المؤمن لوائح السلام الداخلى و التعزية الالهية و هو يتف قائلاً « إن عشنا فللرب نعيش و إن متنا فللرب نموت إن عشنا و إن متنا فللرب نحن » (رو ٨ : ١٤) و يصيح

أيضاً « جعلت الرب أمامى فى كل حين لأنه عن يمينى فلا أترزعزج لذلك فرح قلبى
وابتهجت وروحى جسدى أيضاً يسكن مطمئناً لأنك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن
تدع تفيك يرى فساداً . تعرفنى سبيل الحياة . أمامك شبع سرور وفى يمينك نعم الى
الأبد » (مز ١٦ : ٨ - ١١) .

إن كثيرين من القديسين كانوا فى أثناء عذابهم مبهجين وما سبب ذلك إلا
أن النفس كانت تزداد قوة كلما كان الجسد يزداد ضعفاً . وقوة الروح كانت تقوى
إيمانهم ، وقطرة واحدة من النعمة الالهية التى كانت أنفسهم مرتوية بها كانت
تسكرهم وتحتفظهم عن الخواس .

وهكذا جميع القديسين فى كل العصور لا تستطيع المخاوف التى تتجمع عند
الموت أن تزعجهم وإذا رأى المؤمن ما يؤله منها فانه يرفع عقله و يتفرس به فيجد
مخلصه مصلوباً فيخجل ويتشدد عزمه ويخاطب سيده قائلاً « لقد تأملت قلبى
يا مخلصى وقد تأملت أكثر منى بما لا حد له » وقد قال الأنبا موسى أسقف أوسيم
عندما قام ليدافع عن المسيحيين أمام مضطهديهم وحاول المؤمنون أن ينعوه « انى
لا أستحق أن أسفك دمى الدنس من أجل من سفك من أجلى دمه الطاهر » .

وكيف يشعر المؤمن بألم بينما رغبته فى مشاهدة مخلصه تنسيه جميع الآلام وهوذا
المخلص يقول عن الأتقياء . « ومن يد الهاوية أفديهم . من الموت أخلصهم . أين
أوبواك ياموت أين شوكتك ياهاوية » (هو ١٣ : ١٤) فحينئذ تكون عيننا البار
مرفوعتين الى السماء تشيران الى أن قلبه وأمياله المقدسة تنوق الى الوصول الى ذلك
المكان والحصول على تلك السعادة والتطلع الى الأبدية .

إن التأمل فى الماضى والحاضر والمستقبل ، كل هذا يملأ قلب الصالح فرحاً
وسلواناً فهو ينظر الى الماضى فيجد أنه قد استراح والى الحاضر فيرى فيه كل
ما يسره . يفرح بقرب تركه شقاء العالم . يفرح بقرب دخوله باب السماء وما أحلى
ذكر المستقبل عنده لأنه يرجو أن يجتمع باله الذى أحبه دون أن يراه كقول الرسول
بطرس « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨) .

فمن يستطيع أن يصف مقدار فرح الانسان الصالح وقت الموت عندما يعلم أن ساعة جهاده وتجاربه قد انتهت . إن السلام الذي يملأ قلوب المؤمنين حال موتهم يجعل فراشهم وثيرة لينة كريش النعام فلا يمكن أن تشاهد في الأعراس ولا في ولائم الأعياد ولا بين الذين أدركوا ساعة النجاح أناساً مبهجين مثل المرضى المؤمنين . إن سلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبهم وأذهانهم .

وعند ورود ساعة الموت يمتلئ المؤمن فرحاً وهو يقول « يا ابتاه في يدك أستودع روحى » (لو ٢٣ : ٤٦) وملاك الرب يستلم روحه ليحملها الى الأفراح الأبدية أمام عرش الله والخروف . فما أبهج وما أسعد نهاية ذلك الانسان الذى استحق أن يرى المسيح وجهاً لوجه كما هو ويشترك معه فى المجد والقداسة مشابهاً له فى ذلك ويشكره لأنه يرفعه من أبواب الموت (مز ٩ : ١٢) فمن يستطيع أن يتصور تلك الحالة السعيدة بل ويتصور أقل جزء من بهجتها .

تلك هى نهاية المؤمن الذى جاهد وغلب ، الذى احتمل الضيق والآلام بصبر غير ناظر إلا الى رئيس الايمان ومكمله يسوع (عب ١٢ : ٢) والآن قد انضم الى زمرة الأبرار ليتمتع بحياة سعيدة لا يعقبا موت ولا تعب وهو يرغم بترنيمات سماوية بدون انقطاع ولا ملل حتى صار يحق لنا أن نهتف مع القائل « تمت نفسى موت الأبرار ولتكن آخرتى كأخرتهم » (عد ٣٢ : ١٠) كيف لا والكتاب يصف راحتهم قائلاً « وسمعت صوتاً عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهو يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الها لهم . وسيصح الله كل دمعة من عيونهم والموت لا يكون فى ما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فى ما بعد لأن الأمور الأولى قد مضت » (رؤ ٢١ : ٤ و٣) .

إن المرأة الجميلة لا تشعر بجمالها أو تسر به بشهادة الناس لها ولكن سرورها يعظم إذا شاهدت جمالها فى المرأة ، هكذا المؤمن لا يمكن أن يسر بآيمانه وفضيلته إذا مدحها الناس وشهدت لها الألسنة بقدر ما يرى نفسه فى مرآة الموت الصافية . فما أجل ابتهاج نفسه فى ذلك الحين . ومهما كشف الانسان عند الموت من سعادة أبدية

ومجد خالد وميراث لا يفنى فلا يسره ذلك بمقدار علمه أن نفسه مطهرة وأنها عاشت عبشة ترضى الله .

إن الزارع الذى يبذر حنطته لا يفرح إلا إذا رآها قد ماتت لأن موتها يسبق أو ان ظهورها مشمرة هكذا الصديق لا يجيا إن لم يميت (١ كو ١٥ : ٣٦) فللمؤمن إذاً أن يصرخ ليلاً ونهاراً قائلاً « ليأت ملكوتك » (لو ١١ : ٢) فكيف يطيق البقاء فى سجن الأرض وكيف لا يشتاق أن ينطلق الى حضرة الهه ومن ذا الذى يذهب كارهاً الى أخذ أجرته بعد التعب أو الى الحصول على أكليل الظفر وصولجان الفخار بعد أن ينتهى من المعركة بالانتصار .

قال القديس كسبريانوس « إذا كان انسان قاطناً فى بيت جدرانته مائلة للسقوط وطبقاته مزعزعة الأركان ويشعر أنه مادام فى هذا البيت فهو تحت خطر الموت فكم تكون أشواقه عظيمة للخروج منه والابتعاد عنه . هكذا كل الأشياء فى هذه الحياة تهددنا بالخراب الروحى ، والمؤمن الحقيقى الذى يخشى من السقوط فى حزنه يشتهى بكليته أن يخرج منها فائزاً بخلص نفسه ، ولذلك يقول الملاك لدانيال إذ أخذ يسأله عن أموره « أما أنت فاذهب الى النهاية فستريح . وتقوم لقرعتك فى نهاية الأيام » (دا ١٢ : ١٣) .

اننا نرفع أعيننا ونشاهد أشياء كثيرة خلقها الله ولكن لا نعرف عللها أو مصادرها ، الرسول بطرس يقول « لأننا نعلم بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض ، (١ كو ١٣ : ٩ و ١٠) . فعلمنا البسيط بما نرى من شأنه أن يزيد اضطراب أشواقنا دون أن يشبعها من المعرفة فكم يكون سرورنا حينما نرحل من هذه الحياة الدنيا ونفتح عيوننا ونرى كل شئ ونحصل

فى لحظة من الزمن على كل حكمة وعلم ومعرفة نسموها على كل العلماء الذين ظهروا فى الدنيا . روى أن فيلسوفاً حكّم عليه بالموت ففرح لأنه قال « عن قريب أطلع على حقيقة مستقبل النفس » فإذا كان علم حقيقة واحدة حجب الموت لذلك الفيلسوف ، فكم يود المؤمن إذاً أن ينتقل ليشاهد ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يحظر على بال انسان (١ كو ٢ : ٩) .

كيف لا يجب لمؤمن الانتقال وهو يعلم أنه سيشهد الله تعالى . وما دنا نؤمن أن الله تعالى الممجد المخوف ينتظرنا ليكشف لنا وجهه الكريم و يشركنا في أفراحه ويمتحننا بامتلاك كنوزه السماوية فكيف نفكر أن تتأخر في هذه الحياة ؟ إن موسى النبي انتهى أن يرى الله قائلاً « أرني مجدك » فأجابه الله قائلاً « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الانسان لا يراني و يعيش » (خر ٢٣ : ١٨ و ٢٠) قال القديس أوغسطينوس « لماذا أمسك عن أن أقول « أمتني يارب وأراك » ان خسارة كل ما أرى في العالم ليس بشئ أمام رؤيتك فلتغمض عيناي عن رؤية كل شئ زائل . أودعك أيتها الغابات والبساتين والأودية والجبال والبحار والينابيع والأنهار لأنني لست أبالي بعدم رؤية محاسنك لأرى من أبدعك وأعطاك هذه المحاسن . لا أطلب أحداً سواك يارب » .

إنها نعمة عظيمة من الله أن ينقذ نفوس الأتقياء من شرور العالم الحاضر . ورحمة منه لا يعرف قرارها أن يجعل تلك النفس في حضرته المقدسة . قال القديس يوحنا ذهبى الفم « لو اتفق أن ملكاً أعد لانسان ما مسكناً جليلاً داخل قصور بلاطه الملوكي ولكنه قبل أن يسكنه فيه أسكنه في كوخ حقير فكم تكون أشواقه عظيمة الى الخروج من ... الكوخ لكي يذهب و يقيم في ذلك القصر المنيف . والنفس إنما تكون داخل جسدها في هذا العالم كسجين فيه ولا يمكنها أن تخرج منه إلا بالموت لتنتقل الى بلاط الملك السماوي » .

أيها المؤمن هلم اصعد على أجنحة الرياح الى مقر راحتك . الهك ينتظرك . الملائكة تستعد لاستقبالك . باب السماء مفتوح أمامك . القديسون الذين سبقوك ينتظرون قدمك اليهم . فن منا إذا لا يقول مع حبقوق « الرب السيد قوتي ويجعل قدمي كالأيائل ويمشيني على مرتفعاتي » (حب ٣ : ١٩) .

اسمعوا الباربريم في تابوته قائلاً « أودعك يا شمس الحياة لأن الرب سيكون نوري وحياتي الى الأبد . أودعك أيتها الأنعام المطربة لأنني أسمع هتاف المجددين في السماء . أودعك يا فرح العالم لأن يسوع هو فرحي وسلامي . امسحوا دموعكم لا تبكوا على . دقوا نغمة الفرح وأبطلوا نغمة الحزن ، صفقوا بأيديكم . أتبكون على

رأس توجها الله باكليل المجد ، وعلى يد تمسك قيثارات الذهب ، وعلى قلب اغتسل من الخيطية ورقص طرباً ، وعلى من صار في حضن المخلص . أتبكون على فقير لبس ثوب الغنى ، وسقيم صار صحيحاً ، ومحتقراً أخذ مجداً سرمدياً «؟» .

لهذا نسمع آساف النبي يصرخ قائلاً « برأيك تهديني وبعد الى مجد تأخذني . من لى فى السماء ومعك لا أريد شيئاً فى الأرض » (مز ٧٣ : ٥٤) وسمعان الشيخ يقول « الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام . لأن عيني قد أبصرتاً خلاصك » (لو ٢ : ٢٩ و ٣٠) وبولس الرسول يقول « لى اشتاء أن أنطلق وأكون مع المسيح ذلك أفضل جداً » (فى ١ : ٢٣) .

وقد سمعنا عن أتقياء كثيرين صرحوا عند موتهم بأنهم مسرورون وأن سعادتهم فى انتقالهم من هذا العالم : روى عن شيخ تقى أنه عندما شعر بدينو أجله جمع أولاده وحفدته حول سريره وفى الدقائق الأخيرة من حياته تناوم وأخذ يتسم ثلاث مرات وعيناه مغمضتان فلما فتحها سأله واحد من أولاده عن سبب تبسمه المتكرر ثلاث مرات . أجاب الشيخ الورع « فى أول مرة خطر بيالى كل الملذات التى تمتعت بها طول عمري فلم أقدر أن أمنع ذاتى عن أن أبتم ضاحكاً على عمى أولئك الذين يعتبرون تلك الأشياء ذات قيمة مع كونها تشبه فقاقيع الصابون . وفى ثاني مرة تذكرت كل ما نزل بى مدة حياتى من البلايا والهجوم ففرحت لدنو الساعة التى تذهب عنى فيها أشواك تلك الشدائد وأبدأ فى قطف وردها . وفى ثالث مرة عندما أمعنت النظر فى الموت لم أستطع أن أمنع نفسى عن الابتسام لأفتكارى فى الهول الذى يلقيه على الناس هذا الملاك المرسل من الله لكى يضع حداً لآلامهم ويقودهم الى مقر الراحة والسرور الأبدى » .

جاء عن القديس اغناطيوس أنه اقتيد من سوربة الى رومية ليلقى فريسة للوحوش الكاسرة فخشى أن ترفق به الوحوش كما تراءفت على غيره من القديسين وأن لا تمسه وقاراً . فقال « ليت الوحوش تزداد نهماً فإن أسنانها ليست إلا كرحى فإنها إن طحنت القمح لا تفتيه بل تصيره دقيقاً . فلتسحقنى فأصير قرصاً نقياً معداً للسماء » وقيل عن القديس بوليكر بوس تلميذ يوحنا الرسول أنه حينما وضعوه فى نار

الاستشهاد ربطوه بوتد فقال لهم « دعونى من هذا الوثاق فإن من وهبنى قوة على الأتيان الى النار يعطينى أيضاً صبراً على احتمال اللهب » .

والقديس كبير يانوس لما سمع حكم القضاء عليه بالموت قال « أشكر الله لتحريره اياى من هذا الجسد » وجاء عن القديس باسيلوس إن الامبراطور فالنص أرسل اليه قواده طالبياً منه الرجوع عن الايمان ليولييه المناصب ويصله بالخيرات فرفض ذلك وهزأ بهم قائلاً « اعطوا ما تعدونى به للأولاد » فلما هددوه بالعذاب قال لهم « هددوا أعيانكم اللابسين حلل الأرجوان المستعبدين لشهواتهم » ثم هدده موديستوس الوالى بالاستيلاء على أملاكه وبالعذاب والنفى والقتل فقال « لا يخشى فقد المال من لا يملك شيئاً . ولا الغنى من يحسب السماء وطنه الحقيقى ولا العذاب من يسلم الروح بضربة واحدة . ولا الموت من يرى أنه الطريق الوحيد الى حضرة الله » فقال له الوالى انك مختل العقل فأجابہ أرجوان أبقى الى الأبد مختلاً هكذا .

وهذه آخر كلمات القديس انطونيوس لتلميذه « ادفننى تحت الأرض ولا تعرفا أحداً موضع لحدى حتى إذا جاء يوم القيامة اقتبل هذا الجسد من يد يسوع المسيح بكر القيامة خالياً من الفساد » وقال القديس باخوميوس لتلاميذه قبل موته « انسى أشاهد يا أولادى الأعزاء أن الله عن قريب يريد أن يدعونى اليه . أما أنا فمن دون خوف أقبل نحو الموت لأنى واثق بصلاح الله غير المتناهى .

وقال القديس يوحنا ذهبى القم فى رسالة أرسلها من منفاه الذى نفته اليه الملكة أودكسيا « انى لما خرجت من المدينة لم أعد أفكر فى شئ إنما أخذت أحدث نفسى هكذا . إن نفنتى الملكة فالأرض بكماها للرب . وإن أحببت أن تنشرنى فقد نشر اشعياء من قبلى ، وإن أرادت أن تلقينى فى البحر فانى أذكر يونان ، وإن شاءت أن ترجمنى فلى أسوة باستفانوس أول الشهداء ، وإن رامت أن تقطع رأسى فأكون رفيقاً ليوحنا المعمدان ، وإن آثرت أن تغتصب مالى فعرياناً خرجت من بطن أمى وعرياناً أعود الى هناك وكانت آخر كلمة لهذا القديس قبل أن يلفظ النفس الأخير « أشكر الله على كل شئ » .

ورد في سيرة أحد الآباء الناسكين في بركة الاسقيط أنه عند موته اجتمع حوله أصحابه وصاروا يبكون ، أما هو فكان مسروراً ولما سئل عن سبب ذلك أجاب قائلاً « لماذا تبكون مع كونكم تشاهدونني منطلقاً من الاتعاب والشقاء الى دار السعيم والراحة ». وجاء في أخبار القديسين أن صياداً وجد أحد السائحين يرتل في حالة احتضاره ترتيلاً شجياً بنعمة مطربة فأقترب منه الصياد وقال له « كيف إن رجلاً مثلك في ساعة الموت وفي حال الذل والتعاسة يرغم مثل هذا الترنيم الخلو فأجابه السائح « أعلم يا أخى إن ليس بينى وبين ألهى سوى هذا الخائط (وأشار الى جسده) فكلما أراه مائلاً الى السقوط أعلم أنه قد دنا وقت اقترابى من الهى وتركى زمان غربتى وذهابى عند الرب الهى لأتمتع به ».

وقال قديس وهو يحتضر « ياموت أنت آخر أشواقى لأنى بك أكون مع المسيح الهى الذى أحبنى » وسئل غيره أى شئ تحتاج ؟ فقال « السماء » وقال آخر « عندما تسمعون انى مت لا تصدقوا هذا الخبر لأنه لا يعتبر قد مات من سيجيا حياة أفضل . سأكون فى محل أرقى . سأخرج من خيمة هذا الجسد الترابى العتيقة وادخل البيت الأبدى . سألبس جسداً لا يدانيه الموت ولا تلامسه الخطية جسداً مثل جسد مخلصنا الصالح المولود من الروح لا يموت » قال أحد القديسين ينبغى أن نسمى يوم موت الأبرار بيوم ولادتهم لأن فى هذا اليوم يولدون ولادة جديدة لحياة لا يعقبها موت ».

الفصل السادس عشر فى موت الأثيم

« اعطوا الرب المحكم مجداً قبل أن يجعل ظلاماً وقبلها تعثر أرجلكم على جبال العتمة فتنظرون نوراً

فيجعله ظل موت ويجعله ظلاماً دامساً » (ابر ١٣ : ١٦)

إن السواد الأعظم من الناس يرتجفون رعباً و يستولى عليهم الفزع والاضطراب عند سماعهم ذكر الموت ولا سيما عند دنوه منهم لانهم يعلمون بأنه الطريق الذى يفضى بهم الى الدينونة الأبدية ، وإن الانطلاق من هذا العالم يقودهم الى تحمل العقاب عما جنت أيديهم من الشرور التى لم يتوبوا عنها والى نوال العذاب جزاء لما ارتكبوه من المآثم والخطايا التى لم يغسلوا أنفسهم من أقدارها . فهؤلاء يرومون أن يدوموا فى ظلمة هذه الحياة مهما كانت دامسة هرباً من انكشاف أمرهم وانقراض حكم الله عليهم ولكنهم يحاولون المستحيل .

لهذا ترى الانسان غير التائب ينطرح على فراش موته متوجعاً متألماً وروحه ترتعد مقشعرة مملوءة خوفاً وانزعاجاً من الموت وما يعقبه : تراه متروكاً بلا تعزية ولا معونة لأنه لم يؤمن بالله ولم يعرفه ، وقد أنكره وخالف وصاياه . إن الموت حرب شديدة لا يقوى على الدخول فى ميدانها إلا كل جندى عاش متسلحاً بالفضائل : فالخاطئ الذى لم يتورع عن ارتكاب الاثم يحس بمرارة العذاب و يرى الموت كأساً لا بد له من ارتشافها وتشتد الوطأة عليه كل يوم وتضطرب فى كل دقيقة جميع حواسه ولا يشعر براحة ولا هدوء ولا يدرى أين يتوجه ولا من يلتمس العلاج لدائه . وإذا تحركت فيه الندامة يحاول أن يهملها لأنه يريد أن يصور نفسه لنفسه بصورة صالحة .

ها الموت واقف أمامه يهدده بأخذ روحه فى الحال و يندره بأنه سيزيل عنه

كل الأفراح والمجد والملذات وكل ما فى العالم . فينظر بارتباك الى ما حوله فلا يرى إلا ما يوبخه من الخارج وما يبكته من الداخل وهو إذ ذاك لا يسمع شيئاً ولا يقدر أن يستفيد من أحد لأن قلبه قد تصلب من زمن مديد بفعل الآثام التى داوم على ارتكابها بعناد شديد . فيفتش فى صحيفة حياته عله يجد شيئاً يستر به نفسه العارية من الفضائل فلا يزيده هذا التفكير إلا خوفاً وانزعاجاً كما قال الكتاب « نعم نور الأشرار ينطفىء ولا يضىء لهيب ناره النور يظلم فى خيمته وسراجة فوقه ينطفىء . تقصر خطوات قوته وتصرعه مشورته » (أى ١٨ : ٥-٧).

قال أحد الأفاضل « إن التفكير فى كل من الماضى والحاضر والمستقبل يلقي الرعب فى قلب المحتضر الشرير فانه يجد فى الماضى بطلان سعيه وراء لذاته . ويرى وراءه سلوكه وكثرة ما ارتكب من القبائح فيتحسر على ما فرط ولا ينفعه الندم . ويرى فى الحاضر ما يحيره حيرة غريبة . يرى الفراق محطاً به . فراق الأهل والأحباء . فراق الملذات والشهوات . فراق نفسه من جسده . وينظر الى المستقبل فلا يرى إلا اللهغى أعلى السماء قاضياً عادلاً مهيباً ، وتحت قدميه نار لا تنطفىء ».

فماذا يعمل الخاطيء حينئذ وماذا يرى إلا كل ما يملأه جزعاً والتباعاً وبين يستغيث ويستجير ، أبالمجد الذى أحبه وهو الآن يفارقه ؟ أم بأهله وهم عاجزون عن انقاذه ؟ أم بالاله الذى يعتقد أنه عدو له ؟ أجل . يتقلب الخاطيء على فراش مرضه ضحية لأشد الاضطرابات والمخاوف . يحاول أن يهرب ولا يستطيع . يخرج من أعماق نفسه أحر التأوهات التى لا ندرى إن كانت عن ندامة أم عن يأس من رحمة الله ، وإذا لاحت أمامه صورة يسوع الذى صلب لأجله زاد انزعاجه واشتد هلمه فتشخص عيناه وينفتح منه ذلك الفم الذى علته غبرة الموت ويرتجف بدنه وتغادر تلك النفس التعيسة جسمه الترابى لتنال عقاب ما جنت . قال الحكيم « عند موت انسان شر يريهلك رجاؤه ومنتظر الاثمة يبيد » (أم ١١ : ٧).

فأى هدوء يجده أولئك الراحلون من هذا العالم وهو متقلون بالذنوب والخطايا وأى سلام يجد مكاناً فى قلوبهم المملوءة من كل رجس ودنس . وكيف يستريحون من قلق الضمير وهم يتأكدون أن أمامهم عقاباً شديداً وعذاباً مرعباً وانهم

سيحاسبون حساباً عسيراً أمام يسوع المسيح القاضى العادل . ذلك الاله الذى عاندوه لآخر نسمة من حياتهم والذى احتقروه حتى دنت نهايتهم . كيف يستريح الضمير الذى كان ولم يزل فى نومه أما الآن فقد استفاق من غفلته بقوة عظيمة لأن الخوف من جهنم قد أيقظه فأراها فاتحة فاها لا ابتلاعه الى أبد الدهور . قال الكتاب عن الشرير « صوت رعوب فى أذنيه فى ساعة سلام يأتيه المحرب » (أى ١٥ : ٢١) .

إن ضمير الانسان لا يستيقظ ولا يتنبه إلا إذا أيقظته شوكة الموت فيبتدىء يذكر سيئاته التى نسبها . فيقول الآن أذكر انى أهملت العبادة الآن أذكر انى احتقرت الفقير . الآن أذكر انى سميت وراء الملذات . الآن أذكر انى كنت أترك كل ما يختص بالله لأتمم كل ما تطلبه منى أميالى الرديئة الشريرة .

أجل . حينئذك يتصور الخاطيء إن كل ما حوله يوبخه ويهدده بما يجلب به من العقاب وإذا سألته ماذا يقول عن مجده وغروره ؟ فأين إذاً الخيرات التى نسى نفسه لأجل جمعها . أنا أؤكد أنه يهبها جميعها لمن يستطيع أن يربحه من ذلك القلق الذى لا يطاق ولكن وأسفاه فإن ثروة العالم كلها لا تشفع فيه . قال الكتاب « تائه هو لأجل الخبز حيثما يجده و يعلم أن يوم الظلمة مهياً بين يديه » (أى ١٥ : ٢٣) .

قال القديس أوغسطينوس « ستفارقة الخيرات الأرضية التى أحبها وتصحبه الخطايا التى فعلها . أيها الجهلاء يامن أخطأتم بتكثير أموالكم التى جمعتموها بالوسائل المحرمة ستنزع منكم الأموال ، وسيرافقكم ما ارتكبتم فى سبيل حبها من المعاصى ولن تعودوا فيما بعد تتمتعون بمشاهدة الأشخاص الذين تعلقتم قلوبكم بحبهم المحرم بل سيمسكث عوضاً عن ذلك ألم وندم وانزعاج لما فرط منكم من المآثم والمنكرات » .

ومما يزيد رعب الخاطيء حال موته تعلق قلبه بالخيرات التى له فالموت الحد الفاصل بينه وبين أولاده وأهله وأصحابه وملذاته . انه حينئذ لا يسعه إلا أن يصرخ « ما أمر الموت » وكم يكون بكأوه على أمواله التى تفارقه وإذا سألته لما تكبى

أجابك « الهى التى عملت قد أخذتموها مع الكاهن وذهبتم فاذا لى بعد وما هذا تقولون لى مالك » (قض ١٨ : ٢٤) قيل ان القنفذ بعد أن يكون قد أكل وشبع من ثمار الشجرة المتناثرة على الأرض يتبدى أن يتمرغ فوق ما يتبقى من هذه الثمار فيربطها بريشه ويحملها الى وكره محاولاً الدخول بها اليه من بابه الذى يجعله عادة ضيقاً مخافة أن يلججه غيره من الحيوانات فلا يستطيع الدخول فيضطر أن يلقي ما كان حاملاً اياه ويدخل فارغاً كما خرج ويذهب تعبهُ فيما جمع هباء ، هكذا الخطيئء يشعرون حين الموت أن كل ما تعب فيه للعالم كان باطلاً وقد ذهب هباءً منثوراً .

وكم يتمنى الخطيئء المشرف على الموت أن يعود الى الحياة مرة أخرى أو أن يسترجع حياته الغابرة وأيامه التى قضاها فى الباطل أو أن يولد ثانية ليسلك سلوكاً جديداً و ينزل الى ميدان الحياة مرة أخرى ليكسب ما يشعر أنه خسره الآن . ولكن كل هذه الأمانى تشوقات باطلة لا فائدة منها . بل من شأنها أن ترعجه وترزده خوفاً و يبستدىء ضميره ينخسه و يوبخه فيحكم على نفسه بالعقاب قبل أن يحكم عليه العدل الالهى . حينئذ تحذق الشياطين به من كل جانب وهى باذلة كل الجهد فى تعذيب ضميره لأنها ترى أنه لم يبق له فى الحياة إلا برهات وجيزة فهى تريد أن تقلقه حتى لا يفكر فى أمر خلاصه . إنها تصور له جميع الخطايا التى ارتكبتها والأماكن التى ارتكبتها فيها . وتذكره بكل اثم وكان هو قد نسيه وأهمله . قد كان الشيطان قبلاً يجتهد أن ينسى الانسان ما يرتكب من الذنوب و يطمئن باله من جهة العقاب الالهى ويعنه بالرحمة الالهية ، أما الآن فانه بالعكس يذكره بخطايا و يقول له « كيف ترجورحمة الله أنت يامن قضيت حياتك معانداً اياه وكيف يغفر لك خطاياك وهو الذى أوصاك أن لا ترتكبها ؟ » بل يرى الخطيئء أن الخطايا نفسها تنتصب أمامه وتقول له (أحببتنا فى العالم الأرضى فراقفناك الى العالم السماوى) .

إن من يتفرس فى البحر حال سكونه و يشاهده رائقاً صافياً يحكم على عمه أنه خال من الأوساخ . ولكن من ينظر فى حال هيجانه يندهش لما يراه مخفياً فيه من الأقدار والأوساخ الطافية على وجه الماء . هكذا يرى الخطاة فى حال صحتهم وصفه

عيشهم وراحة بالهم ولكن مهلاً حتى تأتي عواصف الموت فترى ضمائرهم تقذف ما حوته من أدناس الخطايا وأقذار الذنوب وتكون لهم شوكةً حاداً ينفذ إلى قلوبهم ولا تستريح مطلقاً .

إن نبيرون قيصر رومية لما أعجب بقصيدة هوميروس التي نظمها على حريق تروادة أراد أن يمثل ذلك أمامه فأوعز بحرق مدينة رومية ووقف على شرفة عالية يقرأ شعر هوميروس والمدينة تشتعل وأهلها يصرخون نساءً ورجالاً كباراً وصغاراً طالبين المعونة ولا معونة . هكذا الشيطان يقف بجانب الخطيء الذي أطاعه وبينما يكون الخطيء معذباً من خطاياهم ومخترقاً من توبيخ الضمير يكون الشيطان شامتاً مسروراً لأنه استطاع أن يخدعه كل الطريق حتى سلمه إلى الهاوية .

الويل لمن لا يتوب قبل حلول ساعة موته فإن ملائكة الله يقبلون وقتئذ عليه والغضب يتقدمهم ونار الله الآكلة تراقهم فيستولى عليه الانزعاج والرعب ويحاول الفرار من فوق سريره احتضاره ولكن أنى تكون له القدرة على ذلك . حينئذ لا يجد لديه وسيلة إلا الندم والتوسل وهل يجدي الندم بعد العدم . يستغيث : ارحمني . رحمني ولا تحضروني أمام الديان ونفسي مدنسة بالشرور والخطايا . ولا تفصلوني عن الجسد وأنا ملوث بالثناة والخطيئة . اتركوني زماناً يسيراً لكي أتوب وأرجع إلى الله . فتسمع نفسه صوت ملائكة الله قائلين لها (أيتها النفس الشقية . لقد صرفت أيامك كلها في الكسل والتواني والآن تريد التوبة والنجاه إن ذلك من المحال لأن نجمك قد أفل وموتك قد دنا واقترب . الله يدعوك لتداني على ما عملت فاخرجي أيتها النفس الخاطئة لتتالي عقابك . لأن وقت الخلاص قد انقضى وحبل الرجاء قد انقطع . وكل هذا اتماماً لقول الكتاب الإلهي « كم ينظفني سراج الأشرار ويأتني عليهم بوارهم أويقسم لهم أوجاعاً في غضبه أويكونون كالتبن قدام الريح وكالعاصفة التي تسرقها الزوبعة . لتنظر عيناه هلاكه ومن حمة القدير يشرب » (أي ٢١ : ١٧ و ١٨ و ٢٠) .

ما أعظم الحزن الذي يلحق الخطيء بعد موته . ولو تجمع كل ذل في العالم لما ساوى أسى الخطيء وحرقة . فما أروع الموت للنفس التي ليست في المسيح إذ

يكون لها مضجع مملوء بالأنين ومنظر يفتت الأكياد وكلمات كلها مرارة وهى ترتعد كلما قربت من باب الجحيم فتسمع صراخ الأرواح المعذبة فيد وتلتفت الى تحت فتسرى الأبالسة فى العذاب الأبدى فى تلك الهوة الملتببة وتتمنى أن تدفع كل ثروة العالم من أجل ساعة تعيشها ، ولكن وقد قبض الشيطان عليها فلا بد لها من النزول ، وهنا من يقدر أن يتصور عويل النفس الهالكة وهى تنحدر الى أعماق الجحيم . إن مقابر الجحيم الهائلة تتعجب وظلمة الليل الخالكة ترتعب حينما تسمع صوت عويل النفس الهالكة وهى نازلة وسط اللهب المتصاعد .

كثيرون من الفلاسفة الكفار الذين عاشوا يدعون الناس الى الكفر والاحاد عندما دنت ساعة موتهم وشعروا بهولها وبمرارة الكأس الحمام التى تقدم لمن يموتون فى الخطية اعترفوا بضلالتهم وشرغواياتهم .

قال شارل التاسع (نيرون الحديث) وقت احتضاره : ما هذه الدماء . ما هذا القتل . هوة عميقة تريد أن تبتلعنى ، ياللهول لقد اتبعت مشورة الأشرار ، انى لا أعرف أين أنا ، انى مرتعش وخائف وركبتاى غير ثابتتين ، ماذا أعمل انى هالك الى الأبد . أنا أعرف ذلك ومتأكد منه !

وفولتير بعد أن قضى حياته كلها فى الكفر والضلال مجدفاً على الله صرخ ساعة موته قائلاً : أيها المسيح ! الرب يسوع ! وكانت نخنقه العبرات و يبكى بكاء مرأ لأنه أصبح متروكاً من الله والناس . ولم يستطع اطباؤه وأصدقائه أن يتحملوا هذا المنظر المؤلم فهربوا من حوله قائلين : إن آلامه وعذابه أشد مما رأينا فى زيارتنا لجميع المرضى .

وتوما بيثى الذى بذل كل جهده فى مقاومة الدين المسيحى ومحاربة من يبشر بالانجيل صرخ عند موته بألم شديد قائلاً : يارب ساعدنى ، يارب ساعدنى . يامن صلبت على عود الصليب ساعدنى .

والسير فرنسيس بنيبورت الكافر أصبح قبل موته بثلاثة أيام هيكل عظام بسبب شدة آلام نفسه لتجديفه على الله ، وكان يقول ساعة احتضاره هالك وملعون أنا الى الأبد لأننى طعننت المسيح بالحربة فى جنبه . جهنم تحتى والهلاك يحيط بى فن

وميرابو — عند موته — تبرع بمبلغ ثلاثة آلاف من الجنيمات لمن يبرهن له على عدم وجود جهنم ، كما أن شاسترس عند احتضاره طلب مخدراً ليزيل مخاوف العقاب من فكره .

كان « اتيان الن » جاحداً وكانت امرأته تفتية فاضلة فلما دنا أجله وانطرح على فراش الموت وقربت ساعة انطلاقه من هذه الدار الفانية سأله أحد الحاضرين قائلاً : أتستهي أن يتدين أولادك بدينك أو بدين أهمهم ؟ فأجاب على الفور (بدين أهمهم) وجرى مثل ذلك مع الدكتور بولس أحد كفرة جرمانيا المشهورين الذي كان ينكر وجود الخالق له المجد و ينكر المعجزات والوحي وخلود النفس ، فانه لما مرض مرض الوفاة قال (انى قريب من الموت وسينتهى وجودى) وبقى ينتظر الفناء بنفس لا تعرف العزاء ، إلا انه قبل موته بقليل بقى بضع ساعات لا يتكلم ولا يبدى حركة . وظن الحاضرون أنه لم يعد قادراً على الكلام ولكنه عاد وفتح عينيه وتطلع الى فوق كأنه يرى ما لا يراه إلا القريون من أبواب الموت وحاول الجلوس ثم قال بهدوء حقاً توجد حياة أخرى ثم أسلم الروح .

وقال أحد العلماء الأشرار عند موته : سأترك جسدى فى القبر وروحى فى أعرق منه . وقال جورج الرابع ملك انكلترا عند احتضاره : ما هذا انه الموت يابنى . لقد خدعونى . فما أرهب أن يرى الانسان فى أخر دقيقة من عمره أنه قضى حياته فى سبيل البطل والضلال وأنه لم يبق له سوى توقع الهلاك المريع وعقاب الله الشديد .

فانظروا وتعجبوا فإن ذلك الذى كان بالأمس ذاهبية وسطوة نراه اليوم مرتعداً فاقده السلطة والجاه وهو يتوسل بقليل من الرحمة ولكن ليس من يرثى اليه أو يعطف عليه ، هاهو بين مخالب الموت أسير ينوح يسكب دموعاً حارة يبكى إذا ما استعرض اهماله وقساوة قلبه وعدم ايمانه . يتألم ويتعذب عندما يتصور العذاب الذى سيحصده . وظلام النار التى سيستقر فيها ، وهينة الشياطين الخفية التى سيجاورها فما يعمل فى تلك الساعة الرهيبة وكيف يتخلص من تلك الحالة المرعبة ؟ فإذا شفاك وأمسك يامن تهاونت فى أمر خلاصك ، انك الآن تتحقق أنك كنت مخدوعاً ومغروراً وانك ستعذب باطلاً .

الفصل السابع عشر

فى أن توبة الخاطئ عند الموت لا تقبل غالباً

« أنا أمضى وستطلبونى وتموتون فى خطيئكم » (يوحنا : ٢١)

« الشريعة الشريفة » (مز : ٣٤ : ٢١)

إن الخطاة الأثمة يقضون حياتهم يعبدون الها غير الله و يسجدون لاله غير الله يحبون الها غير الله ولا يذكرون الله إلا حين شعورهم بقرب ساعة انطلاقهم اليه .. ولذلك لا يسمعون منه سوى القول المريع (انعطفوا الى الأشياء التى أحببتموها والخطايا التى ارتكبتموها واطلبوا منها الغوث والمعونة لأنكم عشتم لها وقضيتم حياتكم فى خدمتها).

آه . إن الناس يخشون الخطيئة ويخافون من عقابها ولكن علة تجاسرهم على السير فيها هو توهمهم انهم يتوبون حال الموت وإن توبتهم تقبل منهم . قبل أن يلفظوا النفس الأخير يقولون لله أخطأنا ، ويعتبرون ذلك كافياً لخلاصهم ولم يسمعوا قول الله الرهيب « فاذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تحيىء السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور » (جا : ١٢ : ١) .

وكأن لسان حال الخاطيء الذى يؤجل توبته للساعة الأخيرة أو الحين الشبخوخة يقول (اللهم انى أعدك بأن أتوب عن الشر ولكن متى عدت قوتى ولم يبق لى وقت لأغظك فيه . وسأخلص اليك المحبة ولكن متى عجزت عن التصرف بها فى ما يلد حواسى . وسأندم على اهانتى اليك ولكن متى ضعفت ولم تعد لى قوة للاستمرار فى اهانتك . وسوف اعترف وأقربأبني أخطأت إذا ما ربطت يداى ورجلاى عن السير فى طريق الخطيئة — ياغبى . انك لا تتهاون إذا دعيت لوليمة أو

إذا فتحت أمامك أبواب للربح . انك تجد لتحصل على كل شيء إلا على رضى الله . فكيف تتلمس الرضى حين موتك ، وأنت لم تسع اليه قط فى حياتك ؟

لو إن حصانا جرح من صاحبه وركض هارباً حتى اعترضه نهر فوقف ، فهل من الصواب أن نظن أنه قصد بوقوفه تمكين صاحبه من مسكه ؟ ألا يطبق هذا المثل على من يركض طول حياته وراء شهواته حتى إذا ما اعترضه الموت طلب الرحمة ؟ . قال أحد الآباء (من تتركه الخطايا قبل أن يتركها لا يعتبر راغباً عنها بمحض اختياره ، بل يعتبر محروماً منها رغم ارادته) والدليل على ذلك إن كثيرين ممن أصيبوا بأمراض خطيرة أظهروا التوبة لأنهم ظنوا أن ساعة موتهم قد اقتربت ، وما إن عادت اليهم الصحة حتى رجعوا الى سابق عهدهم من معاداة الله . فلم تكن توبتهم أذن عن كرهه فى الخطيئة بل خوفاً من انتقام العدل الالهى . وتوبة كهذه لا تقبل مطلقاً . نعم إن الله وعد بقبول الخطاة حين يرجعون اليه تائبين . ولكن توبة الخاطئ فى ساعة موته لا تعتبر توبة حقيقية صادقة مقبولة لأنها إنما هى توبة اضطرارية ناتجة عن الخوف الشديد . إن سمعى الذى سب داود الملك مرة رجع وطلب منه السماح لما وقع تحت يده ، لكن داود مع كونه اطلق سبيله كلف ابنه سليمان بقتله (٢ صم ١٦ ، ١ مل ٢ : ٨ و ٤٦) .

هكذا كثيرون من الناس على هذه الصورة . لما يجدون أنفسهم قد وقعوا تحت يد الله القوية يتوبون توبة اضطرارية ولكنها لا تقبل منهم لأنها جاءت بعد فوات الفرصة وفى ساعة ضيقة لا تمكنهم من الاستعداد لها كما ينبغى .

إن من لا يحب الله فى حالة الحرية وسعة الوقت يكون أقل حياً حين يحضره الموت ويرى جهنم فاغرة فاها لا ابتلاعه . إن مقاساة الأوجاع والأمور الناتجة عن الحزن تؤثر على قوى النفس ولا تدعها تملك عواطفها فكم بالحرى رهة الموت وهى أشد تأثيراً لأنها تهد أركان العقل قال الحكيم « ليس لانسان سلطان على الروح لميسك الروح ولا سلطان على يوم الموت » (جا ٨ : ٨) .

فمن يظن أن توبته فى حالة مرض الموت تقبل منه إنما يتوهم المستحيل . لأن المريض يكون دائماً مشغولاً فى أحوال مرضه . اليوم الحمى شديدة . غداً تنازلت

قليلاً . أمس شعر بخفة المرض ونام مستريحاً . واليوم ثقل المرض عليه وقضى الليل أرقاً . هذا الدواء أفاد وغيره لم يفد ، وهكذا يستعرض أحوال مرضه حتى يبغته الموت .

إذا كان رئيس السفينة جباناً ولا يمكنه أن يسيرها في حالة اعتدال الطقس فكيف يمكنه أن يدفعها للسير والطقس في قلب ؟ هكذا إذا لم يعمل الخاطئ للتوبة وهو في حال الصحة فكيف يجاهد في سبيلها وهو في حال المرض والضعف واضطراب الفكر . هذا . وغير خاف أيضاً أن البعض لا يطول معهم المرض ، والبعض لا يندرهم بالموت مرض يسبقه فقد يموتون بغتة بانفجار أو بداء السكتة القلبية ، والحاصل إن كثيرين فكروا في التوبة ولكنهم أرجأوها الى ما قبل الرحيل فانقضى العمر ولم ينتهزوا الفرصة ثم انقض الموت عليهم بغتة وهو بهم الى جهنم وهم الآن في عذاب أبدي وحسرة لا نهاية لها .

إن الملك القوى إذا أراد الاستيلاء على المدينة يفاوض أهلها أولاً باللين فإذا رفضوا التسليم له حاصر المدينة بغير رحمة واستولى عليها بقوته الغاشمة . هكذا الخاطئ الذي يرفض في حياته نعمة الله وعدله فان الرحمة تنساه إذا طلبها وهو في طريقه الى الجحيم .

أنتم ترفضون الصلح معه في الوقت الذي يطلبه منكم ، فهو أيضاً يأبى أن يرتضى بمسالتكم حين يأتي وقت تطلبونه فيه مكرهين . وهو القائل « أنا أمضى وستطلبونني وتموتون في خطيئكم » أي انسان يغفل عن نجاته نفسه قصداً وتعمداً وأي انسان محبوس في سجن ضيق يمكنه أن يحل القيود من رجليه ومع ذلك يتباطأ ؟ وأي مريض يعطى له دواء مفيد ولا يستعمله ؟

ما أجهل الانسان الذي يشعر انه يكسب الخلاص عندما يحضره الموت بمجرد لفظة يجود بها ! وما هي إذأ قيمة قول بطرس الرسول « وإن كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخطئ أين يظهران » (١ بط ٤ : ١٨) وما هو معنى قول الرسول بولس « انه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله » (اع ١٤ : ٢٢) أو ما قاله مخلصنا الصالح « ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي الى الحياة » (مت ٧ : ١٤) .

فالإنسان الذي يهدئ روع ضميره بقوله (سأتوب عندما يقترب الموت) يمثل دور قايين لأنه حزن على قتل أخيه ولكن بعد أن سمع أنه سيكون مطروداً مهاناً (تك ٤ : ١٢ و ١٣) وكحزن هاجر على غضاب مولاتها ولكن بعد أن سمعت الأمر بطردها (تك ١٦) وكتوبة شاول حيناً ندم على عدم قتله العملاقة بعد أن علم أنه من أجل ذلك سيفقد الملك (١ صم ١٥) هكذا يقول الله لكل خاطئ يريد التوبة عند الموت : أنت لم تتب لأنك تحبني أو لأنك تكره الخطيئة بل لأن الخطيئة ستخلى عنك ، وجهنم تستعد لابتلاعك .

انهم يريدون الآن أن يخلعوا ثوب الشر القذر ويلبسوا ثوب البر المقدس ، لا كرهماً في الشر ولا حياً في البر . بل لأنهم رأوا أن حالتهم الحاضرة المؤلمة يزدها الشر ألماً ، والبر يزيل خوفها فهم أشبه بجسم منتن حلى بأجل اللباس .

إن شمشون الذي كان يقوى على كل خطر عندما كان مع الله وكانت نعمة الله معه ، لما رأى أن الله خلصه مراراً من أيدي دليمة التي سقطت في حبالها إغتر بالأمل معتقداً بأن لا خطر من استمرار سقوطه لأن الله في كل مرة يخلصه . وهذا هو نفس الأمل الذي يندع الخطاة فانهم يتصورون أنه لا يأتي يوم فيه يتخلى الله عنهم كما تخلى عن شمشون . فشمشون إذ أعطاه الرب قوة بعد أن أوثقتة دليله مرة واثنين وثلاثاً ليسجوطن أنه إذا باح لها بسر قوته ينجو أيضاً لأنه قال « أخرج حسب كل مرة وانتفض . ولم يعلم أن الرب فارقه » (قض ١٦ : ٢٠) وهكذا كثيرون إذا أوقعتهم خطاياهم في بلية يقولون : عندما ينقذنا الرب منها نعيش له . فإذا أنقذهم منها يعودون بخطاياهم اليها و يقولون كما نجونا منها في المرة الأولى نتجو في المرة الثانية وهكذا الى أن تنتهي الحياة وعندئذ يقولون « خلصنا يارب فلا نعود للخطيئة » فيقول لهم (لم يبق بعد زمان لكم لتعودوا للخطيئة ، ولكنها لاصقة بكم وستموتون بها) كثيرون هم أولئك الذين لا يستعدون للموت ارتكباناً على أن الخطيئة هينة وأن الله لا يتركهم ، و يظنون على هذا الوهم حتى تأتي ساعة الموت فيعرفون أن الله كان بعيداً عنهم وأن الشيطان خدعهم كشاول ملك اسرائيل الذي ذهب يطلب الرب فسمع صوت صموئيل النبي يقول له « لماذا تسألني والرب قد فارقت وصار عدوك » (١ صم ٢٨ : ١٦) .

وهل تظن أيها الخاطئ الذى داومت على ارتكاب الخطيئة وألفتها نفسك طول حياتك انك تجد طريقة للخلاص منها فى لحظة من الزمان ؟ قيل عن متريداطس المتسمرد المشهور انه كان مواظباً على استعمال العشب المسموم المسمى (سوكران) غذاء له وكان يأكله على الدوام فصار ذلك العشب مألوفاً عنده حتى إذا أراد يوماً الانتحار للتخلص من مصيبة دامته طلب ذلك العشب وأكل منه بكثرة فلم يؤثر فيه ولم يبلغه مناه . وهذا الأمر عينه يعرض للخاطئ المسكين فانه لاستمراره على ارتكاب الخطيئة كل يوم تصير فى شخصه طبيعة ثانية بحيث لا يمكنه أن يتخلص منها عند دنوه من حافة القبر ولا تفيد الارشادات والنصائح فى ازالة ما ثبت فيه من الشر لأن تأثيرها فى نفسه يخف شيئاً فشيئاً لكثرة تكرارها حتى يضمحل أخيراً . فالذين يسكنون بقرب مطحنة ذات جعجعة قوية ونهر دائم الخريز أو بحر كثير الهيجان يعلمون بالاختبار أن الصوت الذى كان يزعجهم فى أول الأمر تخف وطأة تأثيره لديهم لكثرة تعودهم على سماعه حتى يصبحوا لا يشعرون به . هكذا حقائق الدين كلما تكررت رفضنا لها ضعف تأثيرها فينا حتى نشرف على الموت وقد فقدنا تأثيرها بالكلية ولم يبق إلا تأثير الخطيئة .

فالتوبة للخاطئ المذنب إذا أشبه بالحجر الثقيل لذي اليدين الضعيفتين . وما هو ذلك الحجر الثقيل ؟ هو ملكاته الرديئة المستحيلة الى طبعه .

وهل تظن أيها الخاطئ التعس أنك إذا ملت للأفكار المقدسة يسكت عنك ابليس وهو يعلم أن أوان رحيلك قد دنا ؟ أنه يجمع كل قواه حتى لا تفلت من يده تلك النفس التى تملك عليها طيلة أيام حياتها . إن أخريوم فى الحروب هو أشدها هولاً لأن فيه ينتهى كل شئ ، فأخر أيام حياتك أشد أيامك هولاً والشيطان يزيدك فيه رعباً وخوفاً . قال الرائي «لأن أبليس نزل اليكم وبه غضب عظيم عالماً أن له زماناً قليلاً» (رؤ ٢١ : ١٢) .

إن اعتماد الانسان على رحمة الله مع استمراره فى ارتكاب الاثم وهم باطل ، لأنه إذا كان الله رحوماً فلا ينبغي أن تكون رحمته خاصة بانسان دون كل البشر فرحة الله عامة لكل فلورحم انساناً قضى حياته فى الشر والاثم لكان ذلك منه

قساوة على كل البشر ولا امتلأت الدنيا من الشر لأنه إذ يرى كل انسان أن الله قبل الخاطئ بعدما قضى حياته بعيداً عنه فإنه يسلك هو أيضاً هذا السبيل لينال حظه من العالم ولا ينععه ذلك من أن تكون له الحياة الأبدية بمجرد قوله ساعة الموت (اللهم اغفر لي)!!

قال أحدهم لقد رفض الله أن تقدم له ذبيحة من أحد هذه الطيور اليوم والغواص والكركي (لا ١١ : ١٧) وذلك لأن الأول يحتفى في النهار و يظهر في الليل ، والثاني يظل حياته ساكناً ولا يصيح بصوت عذب إلا عند موته ، والثالث له رائحة فم كريهة طالما كان حياً وعند موته تتحول الى عرف زكي وعلى هذا المنوال ترفض توبة الخاطئ المحتضر لأنه لم يعمل لها في نهار الحياة ولكنه طلبها في ليل الموت ولأنه أهمل طلب الرحمة في حياته واتسها في ساعته الأخيرة ، ولأنه أرسل من فمه وهو حي رائحة التجديف النتنة على اسم الله ولم يفكر في عبادته إلا وهو يلفظ النفس الأخير.

أن كثيرين إذا سمعوا هذا الكلام أجاوبك فوراً : وما هو قولك في اللص اليمين . ألم يخلص في آخر نسمة من حياته ؟ يا للغباوة . كم من المواعظ سمع اللص . انه لم تطرق أذنيه ولا كلمة واحدة من كلام الله . وفي يقيني أن اللص أتى ما لم يأته أعظم القديسين . لأن ايمانه الذي به خلص كان عظيماً للغاية . أنه آمن بالمسيح ولكن ليس وهو يصنع المعجزات و يأتي العجائب بل آمن به وهو معلق على عود الصليب نظيره . انه آمن قبل أن تحدث الزلزلة التي برهنت على لاهوت ابن الله إن التلاميذ كلهم قد هربوا وضاع رجاؤهم إذا رأوا المخلص معلقاً على الصليب . أما اللص فقد أعلن ايمانه به وهو يراه مهاناً من الجميع . فهل لم يكن حقاً عظيماً ايمان مثل هذا ؟

هب أن الله قبل اللص في آخر حياته فهل لا تخشى أن يكون مصيرك الهلاك إذا اعتمدت على هذا الأمل ؟ لقد سمعت أن يونان النبي طرح في البحر فابتلعه الحوت ثم قذفه على الشاطئ حياً (يون ١ : ١٠) فهل تدفع بنفسك في البحر على أمل أن تسجو كما نجا يونان . لقد سمعت أن الفتية الثلاثة طرحوا في أتون النار ولم

بمحترقوا، فهل تطرح نفسك فى النار وأنت تأمل النجاة مثلهم ، و يوسف الصديق نال الوزارة فى مصر بعد أن ألقى فى الجب فهل تتوهم أنك إذا طرحت نفسك فى جب تصل الى منصب الوزارة . فلا ينبغي إذاً أن تستند على ذلك اللص الذى عاش خاطئاً وقبيل ، فمشتان بين حالتك وحالته ، تذكر بهذا الذى ندم وقال « أخطأت » ثم لشدة تأثيره مضى وخنق نفسه ومات هالكاً (مت ٢٧ : ٤ : ٥٥) وقال شاول الملك أخطأت (١ صم ١٥ : ٣٠) وقال فرعون المتنقى « أخطأت » (خر ٩ : ٢٧) وقال بلعام « أخطأت » (عد ٢٢ : ٣٤) ولكن هؤلاء كلهم هلكوا لأن توبتهم لم تكن صحيحة لأن الخاطئ المائت إذا بكى فليس على خطيئته بل على عقابها . إن منح المخلص الخلاص الى اللص كان امتيازاً خصوصياً نظراً للزمان والمكان والظروف الملابس ، وقد لحظ القديس أوغسطينوس أن المسيح سلك مع اللص سلوك طبيب تخرج فى إحدى المدارس العليا وهو يريد أن يشهر براعته ففتش على أسقم مريض ووهبه الصحة مجاناً وبه نال شهرة فانتة . فلا يصح فيما بعد أن يأتى كل مريض و يطلب منه الشفاء مجاناً . فيسوع المسيح أراد أن يعلن فرط رحمته للخطاة فشقق وخلص أشهرهم فلا ينبغي أن تعتمد أنت على ذلك راجياً أن يخلصك فى آخر حياتك كما خلصه وإلا انتقلت الفضيلة من العالم وكانت المكافأة فى السماء على الرذيلة طول الحياة مع كلمة وجيزة يقولها الانسان عند الموت . قال القديس أوغسطينوس أيضاً : إن السيد المسيح خلص اللص لنلا ييأس أحد وقد جعله وحيداً لنلا يطمع أحد . وإذا أردنا أن نستفيد حقاً فلا نجعل لأنفسنا عيناً واحدة فقط ننظر بها اللص الأيمن بل لنجعل لنا عينين نرى بالواحدة اللص الأيمن وبالأخرى الأيسر . فلماذا ننظرون لخلص اللص الأيمن ولا ننظرون لهلاك اللص الأيسر ، عن يمين المخلص خلص واحد وعن يساره هلك واحد . فلماذا تعتمد على حالة الذى كان عن يمينه ولا تعبر من حالة الذى كان عن يساره . أنظر الى هذا اللص الأيسر فبانه كان يشاهد الزلزلة العظيمة التى حدثت حين الصلب و يرى تنزّل الصخور وتشقق الأحجار وقيام الأموات من القبور حتى أن قائد المائة والذين كانوا معه يجرسون يسوع لما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا حقاً كان هذا ابن الله (مت ٢٧ : ٥١ - ٥٤) ولكنه مع ذلك لم يؤمن ، فهل تنتظر عند موتك أن يقدم لك الله أدلة على لاهوته أكثر من ذلك ؟

وأية قدرة تكون لك حينئذ أيها الخاطئ على عمل الصلاح الذى تبرهن به على توبتك لأن يوحنا المعمدان يقول «فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة» (لو ٣ : ٨) قال القديس أوغسطينوس : هذه هى العقوبة العادلة على الخطيئة . وهى أن الخاطئ لا يريد أن يصنع خلاصاً حينما يكون قادراً عليه . وإذا أراد بعد أن يصنعه فتزول منه القدرة على صنعه .

قال أحدهم «إن الذى لا تدرك أحكامه من عادته أن يعلق مبدأ القداسة أو خلاص الناس على فعل ما هو صالح زهيد لا اعتبار له فإذا فعلوه يمنحهم — جلت مكارمه — فيما بعد نعمة فائقة و يصونهم صنواً خصوصياً حتى أنهم يبلغون الى نعم الملكوت لا محالة وإذا تفاوضوا عن فعله يعدمهم التأييدات الخصوصية والنعم الوافرة التى حسب رأى العلماء اللاهوتيين لا يلتزم تعالى أن يعطيها للبشر، و يشركهم يتبعون آراءهم الخادعة فيهلكون . قال له المجد «لأنهم مبصرين ولا يبصرون وسامعين ولا يسمعون ولا يفهمون» (مت ١٣ : ١٣) فهم أشبه بميت فى قبره مقيد اليدين والرجلين معصوب العينين . فالخاطئ لا يقدر أن يتوب حين وفاته لأنه يكون حينئذ مشدود العينين بعمى روحى يجعله يجهل الله أكثر مما كان يجهله فى حياته .

فلا يستطيع أحد أن يخلص ما لم تساعد نعمة الله .. وأما الذى يرذل هذه النعمة فى حياته فإن الله يرفعها عنه حين مماته حتى لا يقوى على التوبة والخلاص مهما طلبها بدموع .

قال المخلص «صلوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء» (مت ٢٤ : ٢٠) فإذا كان الشتاء غير مناسب للسفر من جهة لأخرى فإن ساعة الموت أكثر عدم ملائمة للسفر الى الحياة الأبدية . ونضرب لكم بعض الأمثلة . يوليانوس الملك الجاحد الذى كفر بالسيد المسيح واضطهد قديسيه وحاول أن يبنى الهيكل ليكذب نبوته خرجت نار من الأرض وصدمت ما بناه ومع ذلك لم يرتدع بل حينما سار الى حرب الفرس تعهد بآبادة المسيحية بعد رجوعه ولكنه طعن فى قلبه برمح أفقده الحياة وشعر بقوة من اضطهده إلا أنه لم يؤمن بل أخذ فى دمه السائل من صدره ونثره فى الجو

وصرخ قائلاً « لقد غلبت أيها الجليلي ».

حكى عن شاب تعلق قلبه بفتاة تعلقاً شديداً حتى نقلها الى قصره وعاشرها مدة حياته دون أن يسمع نصيحة أو يقبل ارشاداً ولما أدركه المرض واشتد عليه ، زاره أحد خدام الله فسأله ماذا ينبغي أن أفعل لأخلص فسر به الخادم وأخذ يطلب منه أن يفى ديونه ويرد ما لديه من الودائع لأصحابها ويعفر لمن أساء اليه فقبل أن يجرى ذلك بكل سرور ولا توان ثم طلب منه أخيراً أن يطرد عنه الفتاة . حينئذ تأوه وقال له « لقد صعبت على الأمر وطلبت مني ما لا أستطيع اجابته » فأخذ يحسن له طردها حتى لا يخسر نفسه فأجابه « لا أستطيع » فهدده بعذاب جهنم . فأجابه « لا أستطيع » فشوقه الى سعادة السماء فأجابه « لا أستطيع » وهكذا أخذ يعده ويتوعده وهو يجاوب « لا أستطيع » الى أن قال بلهجة الاصرار قلت ولا زلت أقول « لا أستطيع » ثم جمع قواه الضعيفة الباقية وقبض على ساعد تلك الشقية وقال لها بصوت مرتفع « كنت عزى في حياتي وستكونين كذلك في مماتي » ثم اجتذبا بعنف وضمها الى صدره واحتضنها وقبلها . وفي الحال اشتد عليه المرض ثم اضطربت حركة قلبه وفاضت روحه الهالكة الى جهنم .

وكان أحد الخطاة الغارقين في الرذيلة إذا نصحه أحد أصدقائه أن يتركها كى لا تهلك نفسه أجابه يا صاح إن الذهاب الى جهنم حسن من أجلها . وشارل الثاني ملك انجلترا قال وهو يحتضر « لا تدعوا نلى المسكينه تموت جوعاً » (اشارة الى حبيبته نلى جوين) و برنر الشاعر الانجليزى لم يذكر عند موته سوى عدوه مانثيوبن المحامى الذى طالبه بالدين وهدده بالسجن فلم يقل سوى ذلك اللعين مانثيوبن .

هكذا يهلك الخطاة واذ يقول واحد منهم لله سامحنى يجاوبه متى عودت لسانك على قول هذه العبارة التى ما لفظتها قط فى حياتك وقد طلبت منك مراراً أن تقولها فكنت تأبى بقساوة شديدة ؟ .

قيل عن رجل شقى أشرف على الموت وكان أحد الجالسين حوله يطلب منه إن طلب المغفرة من الله فقال له « كيف يسوغ لى هذا ولى أربعون سنة وأنا أرفض

التوبة».

فإحذر أيها الخاطئ ولا تعلق توبتك على أى وقت غير «الآن» و«والآن»
و«الآن» فقط .

الفصل الثامن عشر فى أن يوم الموت يأتى بغتة

« لا تفتخر بالفرد لأنك لا تعلم ماذا يلدته يوم » (ام ٢٧ : ١)

قال أحد الحكماء « ليس شئ أكيداً مثل الموت ، أما وقت مجيئه فلا شئ مجهول نظيره ». وقال القديس أوغسطينوس « إن الله أظهر حسن حكمته خاصة فى أنه أخفى عنا معرفة يوم موتنا ليلزمنا بحسن التصرف كل أيام حياتنا والالتصاق بالقداسة ، لأننا لو نحصل على اليوم الذى نموت فيه لكننا لا محالة نتقاعد عن أعمال التوبة ومباشرة الأعمال الصالحة ونؤخرها الى السنة الأخيرة من حياتنا ، ومن السنة الأخيرة الى الشهر الأخير ، ومن الشهر الأخير الى الاسبوع الأخير ، ومن الاسبوع الاخير الى اليوم الأخير ، ومن اليوم الأخير الى الساعة الأخيرة ، وهكذا نؤجل حتى نفقد خلاصنا بالكلية » ولهذا قال السيد « فكونوا أنتم إذا مستعدين لأنه فى ساعة لا تظنون يأتى ابن الانسان » (لوقا ١٢ : ٤٠).

وقال الرسول بولس « إن يوم الرب كلص الليل هكذا يجيىء . لأنه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك بغتة كالمخاض للحبلى فلا ينجون » (١ تس ٥ : ٣ و٢) وقال الرب لملاك كنيسة ساردس « كن ساهراً وشد ما بقى الذى هو عتيد أن يموت لأنى لم أجد أعمالك كاملة أمام الله . فاذا ذكر كيف أخذت وسمعت واحفظ وتب فإنى إن لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك » (رؤى ٣ : ٣ و٢).

وقال المخلص أيضاً « طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين .. وإن أتى فى الهزيع الثانى أو أتى فى الهزيع الثالث ووجدهم هكذا

فطوبى لأولئك العبيد « (لو ١٢ : ٣٧ و ٣٨). كانوا فى تلك الأيام يقسمون الليل الى أربعة هزج . وعمر الانسان يشبه بالليل و يراد بالهزج الأول سن الصبوة وبالثانى سن الشبوية وبالثالث سن الرجولية وبالرابع سن الشيخوخة فيريد المخلص أن نكون مستعدين ومستيقظين فى كل هزج أى فى كل سن ووقت من حياتنا لئلا يأتى بفته فيجعلنا نياما (مر ١٣ : ٣٦).

إن الله لأجل خيرنا أخفى عنا معرفة ساعة موتنا وذلك لنستعد بحيشه كل حين : وحيث أن الموت ممكن إن يجئ فى كل مكان وفى كل زمان فالمطلوب منا أن ننتظره هكذا . قال الحكيم « لأن الانسان أيضاً لا يعرف وقته » (جا ٩ : ١٢) قال داود عن ابنه النذى مرض وصى لأجله « لأننى قلت من يعلم . ربما يرحمنى الرب ويحيى الولد » (٢ صم ١٢ : ٢٢) فنحن لا نعلم إذا متى نموت ، ولكننا نعلم جيداً اننا لا بد أن نموت .

ومع إن الجميع يعلمون جيداً أنهم لا بد يموتون إلا إن ابليس ما برح يغرى الكثيرين موهماً إياهم إن الموت بعيد عنهم حتى يزىل ذكره من أفكارهم بالكلية وهكذا ترى الشيوخ الذين طعنوا فى السن ، والمرضى الذين انهكت الأوجاع قواهم يخذعون انفسهم بطول العمر وامتداد الزمن ، ولكن أيها الأغبياء . كم وكم عدد أولئك الذين شاهدناهم وجالسناهم وصاحبناهم وعلى يقين منا ماتوا غفلة بدون أن يلفظوا لنا كلمة وداع . أدرك الموت بعضهم فجأة بينما كانوا جالسين . وبعضهم بينما كانوا سائرين وآخرين بينما كانوا فى فراشهم نائمين . ومما لا ريب فيه أن أحداً منهم لم يكن يخطر بباله أنه سيموت أو يضمحل بفته على الطريقة التى مات بها .

بل وكم عدد أولئك الذين كانوا يحسبون حساب السنين المستقبلية ولم يدعهم الموت يلفظون الألفاظ الأخيرة . أمثال ذلك الغنى الغبى الذى بينما كان يحسب المستقبل قيل له « ياغبى فى هذه الليلة تطلب نفسك منك ».

فالمرت أمر محقق ، والزمان الذى ينتضى أجلك فيه غير معروف ، فعليك إذا أن تكون دائماً ساهراً . وجدير بك أن تتدبر أحوالك وتجعل كل يوم كأنه اليوم الأخير لك فى هذه الحياة . كثيرون يبنون بيوتاً ولا يسكنونها وآخرون يذخرون ذخيرة السنة

المقبلة ولا يدركونها . وغيرهم يصرفون أفكارهم الى الزمان الذى لا يضمنون الوصول اليه ويتغافلون عن التأهب للموت الذى يعرفون ان لا بد منه « وإنما نهاية كل شئ قد اقتربت . فتعقلوا واصحوا للصلوات . اصحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يحول ملتصماً من يتلعه هو » (١ بط ٤ : ٧ ، ٥ : ٨) .

فإذا كنت تفرص على الأشياء التى لا تضمنها فكيف لا تفرص على ذاتك مع علمك الأكيد بموتك ؟ لماذا تهتم بالظل الزائل ولا تبالي بالحقيقة الثابتة ؟ إن أيام حياتك غير معروف عددها ، ولكن زوالها واضمحلالها أمر لا ريب فيه ، فإذا لا تهتم بما لا تعلم حقيقته بل كن مستعداً لساعة الموت التى تتأكدتها وهى لك زادا للطريق « كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة فى الهاوية التى أنت ذاهب اليها » (جا ٩ : ١٠) .

قال سليمان الحكيم « الكل على ما للكل . حادثه واحدة للصديق وللشريك ، للصالح وللطاهر وللنجس . للذابح وللذى لا يذبح . كالصالح الخاطئ . الخالف الذى يخاف الحلف . هذا أشرك كل ما عمل تحت الشمس إن حادثه واحدة للجميع وأيضا قلب بنسى البشر مآل من الشر والحماقة فى قلوبهم وهم أحياء وبعد ذلك يذهبون الى الأموات . لأنه من يستثنى . لكل الأحياء يوجد رجاء فإن الكلب الحى خير من الأسد الميت . لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون . أما الموتى فلا يعلمون شيئا وليس لهم أجر بعد لأن ذكرهم نسى . وعجبهم وبغضهم وحسدتهم هلكت منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الأبد فى كل عمل تحت الشمس » (جا ٩ : ٢ - ٦) ومع ذلك نجد الكثيرين ينشغلون بالملاهى مع علمهم بأن الزمن قصير . ومع أن التوعيدات رهيبه فهم معرضون عنها ويأملون إن يعيشوا مئات السنين . فإن كنت ياغبى لأجل نوال خير زمنى تهجر النوم وتهمل تناول الطعام مخافة إن يضيع عليك الوقت فما بالك لا تطرح عنك كل اهتمام أرضى وتصرف هذه الحياة القصيرة فى ربح الحياة الدائمة .

فاجتهد وأعمل ولا تكن متوكلاً متغافلاً إذ لست تعلم زمان نهايتك فلا تتخذع وتصرف هذا الزمان فى آمالك الباطلة ورجائك الكاذب بقولك « اليوم »

أو «غداً» فرميا يدركك ما أدرك العذارى الجاهلات اللواتى كان هن زمان أضعنه فى الأمل الكاذب وطلبه أخيراً بدموع ولم يجدنه (مت ٢٥) فلا تستند على ما يأتى من الزمان ولا تلتمس عمراً طويلاً وإنما أطلب أن تكون عيشتك مرضية لله تعالى فلا تهتم بالسنين الكثيرة بل بالسنين الصالحة . ذكر الكتاب عن شاول الملك أنه «ملك سنتين» (١ صم ١٣ : ١) مع أنه ملك عشرين سنة . ذلك لأن الوخى أسقط المدة التى قضاها شاول فى شروره وارتكاب الخطايا والآثام كأنها ليست من عمره . إن كل ما تضيعه من العمر فى شرورك وأهوائك لا يحسب لك ، بل عليك .

فإسرع من الآن وإعمل الصالحات ولا تؤجل عملاً منها فإن جهنم مزدحمة بكثيرين ممن أخرؤا توبتهم . أولئك الخطاة الذين باغتهم الموت فى وقت تمتعهم باللذات الموهومة فهوى بهم الى قرار الجحيم حيث النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت .

فى مثل هذا اليوم من العام الغابر كان معنا أناس ، نفتش عنهم الآن فلا نجدهم ، لقد تركونا وسكنوا القبور المظلمة ، ليتهم يقومون الآن و يأتون الينا ليعرفونا قيمة هذا الزمن الذى نصرفه فى الاهتمام بالأباطيل كم يتهدون الآن على كل دقيقة لم يصرفوها فى عمل ما يرضى الله ، لبت أحدهم يقوم فينا خطيباً ليشرح لنا غباوتنا فى التهاون و يرينا أنه لو أتيح له الرجوع الى العالم مرة أخرى لما ترك دقيقة واحدة دون أن يتفقهها فى عمل يتمجد به اسم الله .

فما أجهل الذى يؤجل عمل اليوم الى الغد . إن أهل نينوى يعطون درساً بليغاً للمتغافلين ، فانهم حينما سمعوا الانذار بهلاك مدينتهم بعد أربعين يوماً لم يقولوا لنصبر حتى آخر يوم وحينئذ نتوب بل اسرعوا بالتوبة . فن يترك نفسه خاطئاً على أمل التوبة بعد حين أشبه بمن يحاول أن يرقص على فم هوة عميقة ، أو بمن يريد أن يجرب فعل السم فيشرب منه قليلاً ، أو بمن يدوس على الشوك ليعرف مقدار ألمه كثيرين يخاطرون باللعب والانهماك فى اللذات وهم على باب القبر وعلى فم الهاوية .

إن الآخرة معلقة بدقيقة واحدة و يظن الأغبياء أن هذه الدقيقة هي دقيقت الموت فقط فيصرفون دقائق حياتهم فى خدمة العالم منتظرين دقيقة الموت ليتوبوا فيها . ولعمري انهم حقاً جهلاء إذ يظنون إن خلاصهم الأبدى يتم بسهولة بدون احتراس بينما الرسول بطرس يقول « لذلك بالأكثر اجتهدوا أيها الأخوة أن تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين » (٢ بط ١ : ١٠) و يقول الرسول بولس « تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (فى ٢ : ١٢) وإذا قارنا بين حال أولئك الذين عاشوا يقاومون عواطفهم الجسدية وجاهدوا جهاداً عنيفاً ضد العالم ، وحالنا نحن الذين نعيش عيشة التنزه والتبرج فهل نعتبر أنفسنا مسيحيين والصوت الاهى يقول « إن كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخاطئ أين يظهران » (١ بط ٤ : ٨) .

إن الله لا يجب إن يرانا فى حالة الاهمال ولذلك لا يفتأ يبين لنا عظم خطر هذه الحالة وكيف ان سيوف الموت مسلولة فوق رقابنا وسهامه الملتهبة الحادة مسددة الى صدورنا . فعليك إذا أن تحاسب نفسك على تصرفاتك فى ايام حياتك قبل ان يحاسبك عليها الديان . هل هيأت نفسك واعدت ذاتك ؟ أمامك هذا الوقت فهو كاف لأن تصلح فيه أمورك لا تهتم بالغد لأن الغد ليل بهم لا تعلم ما هو محباً فيه . إذا كان لك دين على أحد أفلا تسرع لتقاضيته مخافة أن تموت فيضيع مالك ؟ فلماذا لا تحرص هذا الحرص على نفسك ؟ ولماذا لا تقول « يجب على أن أتوب الى الله فرعما أموت حالاً إذ الموت والحياة فى يد الله » أليست نفسك ذات قيمة فى نظرك كالدراهم والديناري ؟ ألم نسمع قول السيد له المجد « لأنه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » (مت ١٦ : ٢٦) فلو كان لديك كل غنى العالم ولكنك خسرت نفسك فأنت فقير وبائس . ولكن إذا ربحت نفسك وكنت مجرداً من كل غنى ومجد عالمى فأنت سعيد وغنى .

تدبر فى نفسك تفهم لماذا أخفى الله عنا معرفة يوم الموت ؟ ذلك لكى نكون على الدوام متذكرين انقضاء حياتنا وزوالها ولكى نتوقع الموت كل حين . وهذا المتوقع يجعلنا إن نحفظ انفسنا من الزلل وإن نظر الى العالم كشئ زائل ، وهوذا الكتاب يبيننا لماذا تتغافلون . قائلاً هل انكشفت لكم أبواب الموت أو عاينتم أبواب ظل الهاوية ؟ (أى ٣٨ : ١٧) .

كتب شيشرون عن ديونيسيوس انه لما سمع أحد رجاله المدعو ذيموكليس يغبط أصحاب الأبحاد والأموال أراد أن يوضح له كم يعانى هؤلاء من الشقاء والتعب فأمر اعوانه أن يهينوا كرسياً من ذهب يحيط به الخدم بلباس بهى ثم أوعز الى ذيموكليس أن يجلس على الكرسي وأمر العبيد أن يكونوا طوع أمره ثم نصب أمامه مائدة ملكية فاخرة وأخذ ذيموكليس يأكل ويشرب ويطرب ويمجد نفسه لأنه استحق أن يتمتع ولو ساعة بما يتمتع به أصحاب التيجان . وحينئذ رفع وجهه الى فوق فرأى سيفاً قاطعاً ماضياً معلقاً بخيط دقيق فوق رأسه . ففى الحال تغير وجهه وجمد الدم فى عروقه وأخذته الرعدة ولم تكن المناظر الجميلة المحيطة به كافيته لأن تنزع الخوف من قلبه ولم تبق له عينان تنظران شيئاً سوى السيف المعلق فوق رأسه ومن ثم طفق يستغيث الى الملك ليأذن له بالفرار والخلاص من ذلك الكرسي كرسى السعادة لأنه لا يريد أن يكون سعيداً . وهذا يشبه حالتنا نحن فسيف الموت معلق على الدوام فوق رؤوسنا . ونحن معرضون فى كل دقيقة لسقوطه علينا فيجب ان لا نجعل الشره يستولى علينا لتتلاذذ بأطعمة الدنيا وننسى سيف الموت الحاد « بل عظوا أنفسكم كل يوم مادام الوقت يدعى اليوم لكى لا يقسى أحد منكم بغرور الخطية » (عب ٣ : ١٣).

كتب المستر فرنك كرين يقول « إن أحسن ما نتجده فى هذه الحياة هو يومك الحاضر . انه كنز عجيب وجوهرة نادرة وكلاهما لك وحدك دون سواك . إن الزمن لا ينقسم الى ثلاثة أوقات . الماضى والحاضر والمستقبل . بل هو قسم واحد لا غير ، هو « الآن » وانك تستطيع أن تفعل أى شئ إذا عمدت اليه فى يومك الحالى .

وذكر على سبيل المثال : قال النهار للانسان « تعال معى ودعنا نعمل الأعمال سوية » فأجاب الانسان « اية أعمال ؟ » أجابه النهار « الأعمال الجميلة » فصديقك مريض وزيارة منك تخفف عنه الآمه . وشقيقتك فقيرة وحزينة وبهها أن تسأل عن حالتها وتأخذ معك بعض الهدايا لأولادها اليتامى . وأخوك تائه فى الغابة التى كنتا تلعبان فيها وأنتما صغيران وربما أمكنك أن ترشده الى الطريق و.. » فقاطعه الانسان وقال له « هذه أعمال أريد أن أعملها مع غيرك فى المستقبل وأما أنت فتعال وأجلس هنا بجانبى فانى أريد أن تساعدنى على الحصول

على ٥٠٠٠ جنينه ، فجلس النهار بجانبه ومرت عليها الساعات الى أن دنا وقت رحيل النهار ، فهب قائماً وقال للانسان « استودعك الله » فرد عليه الانسان قائلاً « مع السلامة . لماذا تنظر الى هذه النظرة الغريبة ؟ سأقوم بكل ما أمرتني به مع أحد اخوتك » فقال النهار « لم يبق لى إخوة » وتركه ومضى . ولدى خروجه من الباب التقى بالليل داخلاً على الانسان .

إن من أراد الدخول فى النهار الى مدينة محاصرة وبيده تذكرة مرور يفتح له . أما إذا تأخر الى الليل فإنه يمنع من الدخول ولو كرر قرع الباب . هكذا من قرع باب مدينة أورشليم فى مساء عمره فلا يفتح له . قال المرتل « يعودون عند المساء يهرون مثل الكلب .. أما أنت يارب فتضحك بهم » (مز ٥٩ : ٦ و ٨).

قيل أن أحد المصورين كان ماهراً جداً فى الرسم إلا أنه عندما كان يريد رسم انسان كان يتدبى برسمه من القدم وكان يتفق أحياناً أن القماش لا يكفى فتبقى الصورة بدون رأس أو برأس غير كامل . هكذا نرى كثيرين يبتدون خدمتهم من القدم أى بعمل الأمور الزمنية تاركين الرأس أى أعمال التوبة الى آخر حياتهم . قال الرسول بولس « فانظروا كيف تسلكون بالتدقيق لا كجهلاء بل كحكماء مفتدين الوقت لأن الأيام شريرة » (اف ٥ : ١٥ و ١٦).

الفصل التاسع عشر فى وجوب اغتنام الفرصة

« هذا وانكم عارفون الوقت انها الآن ساعة نستيقظ من النوم . قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلم

أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور» (رو ١٣ : ١١ و ١٢)

كان أحد الوعاظ يتأمل فى قوله « هوذا الآن وقت مقبول هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو ٦ : ٢) استعداداً لعظة يلقيها فى الكنيسة فنام ورأى فى حلم أنه حمل الى جهنم وشاهد الشياطين مجتمعين يتآمرون على طريقة يقودون الناس بها الى جهنم فقال شيطان : أرى أن نجول ونوسوس فى صدور الناس بأن الكتاب المقدس حديث خرافة وأن دعوى الوحي من أباطيل الأوهام . فقال شيطان آخر « وما فائدة ذلك والناس يؤمنون بوجود الخالق ؟ فلنبذل الجهد فى أن نقنعهم بأن لا وجود لاله ولا مخلص ولا نعيم ولا جحيم فيفعلون ما يشاءون . فقال آخر : ان ذلك لا ينفع لأن الله طبع هذه الأمور على قلوبهم وكتبها على صفحات ضمائرهم . فقام من بينهم شيطان مارد وقال : كل ذلك لا ينفع والأوفى عندي أن نطوف كل الأرض ونترك الناس يعتقدون بوجود الخالق والمخلص ونقول لهم انه سيكون جزاء وعقاب ولكن لا داعى الى الاسراع الى التوبة ثم نجتهد فى تأخير توبتهم من يوم لآخر ، وكلما عزموا على التوبة نحرضهم على التسوية فيها ونطمعهم فى رحمة الله وهكذا حتى يموتوا فى خطاياهم . فسر ابليس وكل جنوده بهذه الحيلة الخبيثة وفرقوا فى كل مكان يخدعون الناس بها .

وفى الحقيقة ان هذا الخداع قد أضل كثيرين فأجلوا توبتهم من يوم الى آخر حتى جاء الموت واختطف نفوسهم الى الجحيم . ولنلاحظ أن أكثر سكان الجحيم

ليسوا من الكافرين بل ممن اغدعوا بهذه الغواية . لقد قال أحد الحكماء « ان الهالكين برحمة الله أكثر من الهالكين بعدله » فاحذر أيها القارئ العزيز من هذا الشر العظيم واعلم أنك لا تعرف ما يأتي به الغد . ربما يأتي وتكون قد فارقت الحياة فاسمع اذن صوت الرب « اليوم ان سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٤ : ٧).

قال أحدهم تحت عنوان « الغد لا يأتي أبداً — هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو ٦ : ٢) قد قيل ان طريق جهنم معبدة بالنيات الحسنة . الناس يقصدون أن يخلصوا ولكن ليس الآن بل يترقبون وقتاً أكثر مناسبة . يظنون أن الغد يأتي حالاً ولكنهم ينسون أن غداً لا يأتي أبداً . ان الغد اما أن لا يشرق واما أن لا يغرب على أحد . أما اليوم فهو كل ما لنا . هو الوقت المقبول . من يستطيع أن يخبر ماذا يكون في الغد وأين نكون نحن حينئذ . ربما تكون أيها المتعافل رافعاً عينيك في العذاب وصارخاً طالباً نقطة ماء لتبرد بها لسانك المعذب من اللهب فلا يعطيك أحد .

ان فرعون ملك مصر لما قال له موسى متى أصلى من أجلك لترفع عنك الضفادع قال له غداً « مع أن الضفادع كانت تعذبه (خر ٨ : ٩) وهذا شأن الكثيرين من الذين أحاطت بهم الشياطين بمحاولة سلب نفوسهم فاذا سألتهم متى تعزمون أن تنجوا بحياتكم فانهم يقولون لك « غداً » ولكن هيهات أن يحصلوا على هذا الغد .

ان والدة نيرون إذ أرادت أن تردعه عن بذخه المفرط جاءت يوماً وهو يب رجلأ ثلثمائة ألف قرش وبسطت ذلك المبلغ على الأرض قطعاً متفرقة لكي يبصر بعينه مقدار العطية المتجاوزة الحد . ليت الذين يقولون « غداً » يعرفون كم غد مر عليهم وهم عنه غافلون .

قال أحدهم : « ما أعظم قيمة الزمن ؟ كيف لا ونحن إذا تصرفنا به حسناً حصلنا على الله نفسه » وقال القديس أوغسطينوس « إن الأبدية عينها لو صرفت كلها في التوبة لما كانت طويلة بالنسبة لما يمتلكه الانسان من الخيرها » قيل إن انساناً صرف حياته في نسيان الله تعالى وارتكاب المآثم فاعتراه داء عضال ذات

ليللة ، فصرخ حينئذ قائلاً « اللهم امتحنى بعض دقائق من الزمان ، أطل يارب حياتى الى غد » فلم يحصل على ذلك الزمان اليسير ليرتب أمر نفسه ويحاسب ضميره بعد أن كان قد أضاع أياماً كثيرة وفرصاً عديدة بغير أن يسعى فيها للخلاص .

فمن ثم يجب أن نحترس جيداً ولا نخدع أنفسنا إن لنا عمراً باقياً نتوب فيه ، فكم من كثيرين أجلوا توبتهم ارتكائاً على أنهم يتوبون فى المستقبل ولكنهم ماتوا فجأة . ومن المؤكد أنه ولا واحد منهم كان يفكر إن الموت سيدركه بغتة . لا يفترنك الشيطان ويحرضك على فعل الشر وهو يقول لك « افعل هذه الخطية الآن ثم اندم عليها غداً » بل يجب عليك أن تجاوبه قائلاً « من يعلم أن هذا اليوم ليس هو آخر أيام حياتى ، وإن لحقنى الموت أثناء ارتكابى هذا الشرفأى و يل وأى تعاسة يجلان بى ؟ » وفضلاً عن ذلك فإن الكتاب يقول « اطلبوا الرب ما دام يوجد . ادعوه وهو قريب » (اش ٥٥ : ٦) .

قال سليمان الحكيم « لأن الانسان أيضاً لا يعرف وقته . كالأسماك التى تؤخذ بشبكة مهلكة وكالعصافير التى تؤخذ بالشرك كذلك تقتنص بنو البشر فى وقت شر إذ يقع عليهم بغتة » (جا ٩ : ١٢) فهذا الزمان الذى نحن فيه هو أتمن شئ لدينا ويجب أن نقدره حق قدره فهو كثر عظيم إذا ضاع منا فليس من الممكن أن نستعيضه . وسيكون هذا الزمان موضوع نوحنا وندبنا فى جهنم حيث نقول « أواه من يعطينا ساعة واحدة من الزمن لكى نتوب فيها ونرجع الى الله » هذا الزمان الذى نستخف به الآن عتيد ان يكون شيئاً مشتهى . ولكن لا يناله أحد . فلا ندع فرصة تمر علينا قبل أن نصلح فيها خطأنا ونستغفر الله على ما أئتمنا به ونتوب توبة صادقة نقيه صادرة من كل القلب « مفتدين الوقت لان الايام شريرة » (اف ٥ : ١٦) .

لننهض من رقدة تعامينا ولنفتح أبصارنا لنرى كيف قضينا السنين الغابرة من حياتنا ونندم على ما فات ونعقد التنية ونوجه العزم الى اصلاح الخلل وتدارك أمور النفس قبل فوات الفرصة ولا نعيش الزمان الباقي فى الجسد لشهوات الناس بل

ان الزمن الذى نحن فيه ثمين ولم يعط لنا إلا لنصرفه فى تقديس نفوسنا وجعلها صالحة بين القديسين فى مقام الابراز والصديقين . انه زمن مجهول المقدار لانعرف هل نحن فى وسطه أو فى منتهاه ؟ فمن الممكن أيها الانسان أنك لا تكون فى الغد بين الأحياء ، ولا بين اخوتك وبنيك وأصدقائك ، ولا فوق الأرض التى ملكت . ولا فى البيت الذى بنيت . ولا أمام المال الذى جمعت بل بين ألوف من الديدان وبقايا من العظام النخرة فى حفرة مظلمة ضيقة . وربما يكون جسدك فى هذه الحفرة ونفسك فى حفرة أعمق منها . تراها الجمر المضطرم وحيطانها اللهب المحتدم . وها الرسول بطرس ينهينا قائلاً « سيروا زمان غر بتكم بخوف » (١ بط ١ : ١٧) .

البدار البدار أيها المسيحى العزيز الى انتهاز الوقت وصرفه فى تقوى الله وكسب نعمته ورضاه . سيروا أيها المسيحيون فى النور مادام لكم نور الزمان فسوف يأتىكم ليل الأبدية الذى لا تستطيعون فيه أن تسيروا خطوة واحدة بل تقفون فيه عند الحد الذى بلغتتموه فى نهار الزمان . سيروا مادام بيدكم مصباح الحياة الى أن تلبغوا أبواب الفردوس حتى إذا هبت ريح المنون واطفأت مصباح حياتكم تدخلون الجنة بسلام آمين « لأن زمان الحياة الذى مضى يكفيننا لتكون قد عملنا ارادة الأمم » (١ بط ٤ : ٣) .

أعتبر أيها الانسان ان ندامتك ستكون أبدية ما لم تنتهز فرصة هذه الحياة لتكتسب ملكوت السماء . ليت شعرى ماذا يكون مقدار حزنك لما ترى انه كان يمكنك بقليل من الاجتهاد فى زمن الحياة أن تربح هذا الملك السماوى الذى خسرته لأجل لذة وقتية . ما كان أشد غيظ عيسو وما كان أمر أسفه لما استفاق ورأى أن أخاه الصغير قد اكتسب بكوربه التى باعه اياها بأكلة عدس . فقد كان يتنهذ ويبكى وينتحب ، وهكذا سيكون مصيرك أنت يا من بعث ملكوت السموات لأجل خيرات وقتية زائلة .

قل لى يا من تؤجل توبتك متكلأ على الرحمة الالهية من أين تعلم أن هناك سيعطى لك زمان لتتوب فيه ؟ كيف تؤجل وقت التوبة مع كوننا نراك تسرع فى جمع الأموال وارتكاب الشرور ؟ كيف تسرع الى قضاء الامور العالمية بهذا المقدار وإذا طلب منك عمل صالح فلا نسمع منك إلا لفظة « غداً » مع أن المرتل يقول « أسرع و لم أتوان لحفظ وصاياك » (مز ١١٩ : ٦٠) .

ان علة هلاك معظم الناس هو أنهم يتوانون عن التوبة والعمل الصالح عقب سماعهم كلمة الله ، والرب يقول « تأتى ساعة وهى الآن » (يو ٤ : ٢٣) وذكر عن القديس انطونيوس أنه دخل الكنيسة يوماً فسمع فصل الانجيل يقال فيه « يعوزك شئ واحد . اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كز فى السماء وتعال اتبعنى حاملاً الصليب » (مر ١٠ : ٢١) فأطاع فى الحال ووزع ماله على المحتاجين وقضى حياته فى البرية لا يملك سوى قوت يومه .

ان الكتاب قد حدد وقت الرجوع الى الله بقوله « فانه الآن يأمر جميع الناس فى كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل » (اع ١٧ : ٣٠) وذلك لأن الرجوع الى الله حالاً هو حسن ومضمون لخلاص النفس ، والله نفسه يطلب رجوعنا بقوله « ارجعوا عند توبيخى . هأنذا أفيض لكم روحى . أعلمكم كلماتى » (ام ١ : ٢٣) وقال لوزكا « أسرع وانزل لأنه ينبغي أن أمكث اليوم فى بيتك » (لو ١٩ : ٥) وقد حصل أن كثيرين رجعوا حالاً عندما تأثروا من سماع الكلمة فنالوا الخلاص كيهوشيا الملك الصالح والسامرية وزكا والخصى وكرنيليوس والسجان ولكن للأسف الشديد نرى كثيرين يؤجلون الوقت خادعين ذواتهم .

كثيراً ما يعزم انسان على التوبة ولكنه يؤجل حتى ينتهى من بعض المسائل التى تعيقه . وأخر الى أن يتفرغ من عمل يباشره . الحال إن أعمال الدنيا ومشاغلها لا انقطاع لها ، ومسائل الحياة لا تنتهى قط . والتوبة لا تدخل لها ويجب أن لا تتوقف على مثل هذه الأمور . فمن ينتظر أن يتوب حتى ينتهى من أمور الحياة أشبه بانسان يكون قاصداً أن يعبر نهراً وإذ يجد السفينة صغيرة وأمواج النهر تلعب بها يخشى ويخاف من العبور وينوى فى نفسه إن ينتظر حتى ينقطع مجرى النهر ويعبره بأقدامه ، ولكنه

باطلاً ينتظر لأن النهر لا يبس ، وهو تبعاً لذلك لن يصل الى الشاطئ الثانى
فتنقضى حياته دون أن يبلغ غايته . وهكذا مسائل الحياة لا تنتهى وأعمال الدنيا
لا تفرغ حتى خروج الروح . ولو فرضنا أن مجارى النهر تنقطع فإن شوق الانسان الى
العالم لا ينقطع ومحبه هذه الحياة لا تخف . فكم سمعنا عن أناس كانوا وهم فى
حالة المرض الشديد بل وفى وقت الاحتضار مشغولين بأمور الحياة و يسألون عنها
باهتمام !

كم هى المدة التى يضعها الكتاب أمامنا للتوب فيها ؟ « انكم عارفون الوقت
أنها الآن ساعة لتستيقظ من النوم » (رو ١٣ : ١١) كما أنه يوجد تهديد للناس بأن
الموت يأتيهم بغتة (رؤ ٣ : ٣) . قال أستاذ لتلاميذه « يجب أن تتوبوا قبل الموت
بيوم » فأجابوه « ومن يعلمنا بيوم الموت ؟ » فقال لهم « إذاً توبوا من الآن » .

فى مستقبل العمر ونضارة الشباب يقول الانسان لنفسه لا أتقيد من الآن
بالدين وأضيق الخناق على نفسى فحينما تأتىنى الشيخوخة حينئذ أتوب . ولكن
هل الحياة مضمونة للشبان كم من الشبان ماتوا فى فجر حياتهم ؟ اذهبوا الى القبور
واسألوها عن ضمتهن بين جوانحها فتجيبكم « انى أضم الناس من كل طبقة ومن
كل سن فلا فرق عندى بين شيوخ وشبان وأطفال ورجال ونساء ، الكل عندى
على حد سواء »

أيها الانسان : لا يفركك كون سراج حياتك وهاجاً مستدلاً بذلك على أن فيه
زيتاً كثيراً فلا ينطفئ إلا بعد زمن طويل . لأن مقدار الزيت الذى فيه لا يعلمه إلا
الله وحده وفضلاً عن ذلك فإن سراج الحياة يظل مضيئاً بكثير أو بقليل من الزيت
حتى ينطفئ انطفاء لا نور بعده .

قال أحد الحكماء : إن مثل الدنيا كالسفر فى الطريق أوله المهدي وآخره اللحد
وفى بينها منازل متعددة وكل سنة كمنزلة . وكل شهر كفرسخ . وكل يوم كميل .
وكل نفس كخطوة . والناس يسيرون فيه متسابقين فالبعض يقطعون كل
الطريق ، بينما يكون باقياً لغيرهم منها فرسخ أو أكثر أو أقل . «

ان المسابقة لانتهاز الفرصة حالاً هي من أهم الأمور الدينية . إن كثيرين يتسابقون فى الاعمال الدنيوية التى تهتمهم قبل أن يدركهم الموت ولكنهم لوماتوا قبل أن يتمموا أعمالهم هذه فلا حرج عليهم إنما يجب أن يسرعوا فى اتمام التوبة لأنهم إذا ماتوا بدون توبة قضى عليهم بسجن الهاوية أما التائبون توبة حقيقية فلا يهلك منهم أحد .

إذا كان روح الله قد أثر فىك وأنت تسمع صوته تعالى بوجوب التوبة فانهض إليها بعزم القلب فى نفس هذه اللحظة لتنال نعمة الخلاص بالمسيح قبلما تذهب الفرصة منك .

أقيم قديماً بالمدن اليونانية تمثال كتب عليه شعر بصورة محادثة بينه وبين أحد المارة تشرح المغزى من اقامة هذا التمثال .

واليك المحادثة :—

« ما هو اسمك أيها التمثال ؟ »

« يدعوننى الفرصة »

« ومن صنعك ؟ »

« ليسيوس »

« ولماذا أنت واقف على أطراف أصابعك ؟ »

« لأرى الناس اننى لا أبقي إلا دقيقة واحدة » .

« وما هى الأجنحة التى على قدميك ؟ » .

« لأرى الناس كيف أمر بسرعة »

« ولكن لماذا هذا الشعر الطويل على جبهتك ؟ » .

« لكى يقبض على الناس حينما يرونى » .

« إذا ما سبب صلح رأسك من الخلف ؟ »

« لأرى الناس اننى إذا مررت مرة فلا يمكن إعادة القبض على »

« فإذا حسبنا لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع » (غلا ٦ : ١٠)

وبما أنه ليس للناس مدة ثابتة يضمنون فيها البقاء في هذه الحياة فيجب عليهم أن يبادروا الى التوبة بدون تأخير . لا تؤجل توبتك لئلا يأتى وقت يقفل فيه باب التوبة وتكون كالذين عزموا على السفر فى البحر ولكنهم يهملون أخذ طعامهم معهم ولا يفتنون الى ذلك إلا بعد أن يعرضهم الجوع بأنيا به إذ يكونون قد ابتعدوا عن بلادهم ولا يمكنهم الرجوع اليها فالانسان إذ ينصرف من هذه الدنيا لا يوجد له هناك مجال يشتري فيه زيتاً ، هذا فضلاً عن إن الاسواق جميعها تكون قد أقفلت .

إن الانسان لا يعلم إن كان يعيش الى الغد أم لا ومع ذلك يهمل التوبة مؤملاً أن يتوب فى المستقبل . إن من يرث مالاً وافرأ لا جناح عليه إذا انفق منه شيئاً . إما الذى ليس له سوى قوت يومه فلا ينبغي له أن يبذر ما هو محتاج اليه . فهذه الحياة ليس لك فيها نصيب ولا يوم واحد . فلماذا تتوقع العام المقبل لتتوب ؟ وكيف تعد نفسك ياعزى بى بسعة الأيام وطول الأعوام وأنت فقير من الزمان افتقاراً كلياً ولا تملك منه شيئاً حتى ولا ساعة واحدة ؟ فلا يخدعك هذا الزمان ولا تعش مغروراً فانك فقير ومسكين . ربما فى هذا اليوم تحرم من هذه الحياة وتندم بشدة لأنك اضعتها هدراً . لا تعد نفسك بطول العمر فهذا الأمل قد أهلك الكثيرين .

إن الله يريد أن ترجع اليه فى هذه اللحظة لأنها كافية لتوبتك ، فلا تنتظر الغد بل اهتم باليوم لأنه يقول « فى وقت مقبول سمعتك وفى يوم خلاص أعنتك » (٢ كو ٦ : ٢) .

الفصل العشرون فى قيامة الأموات

« إن كان الأموات لا يقومون فلنأكل ونشرب لأننا غدا نموت ». (٢ كو ٥ : ٣٢)

عقيدة قيامة الأموات أس العقائد المسيحية وعليها تتأسس هذه الديانة لانه إذا بطل رجاء القيامة بطل رجاء الخلاص ورجاء السعادة الأبدية ، والحق أنه إن كنا نموت موت البهائم فخير لنا أن نحيا حياتنا ونتمتع بكل مشتبهات الدنيا . ومثل هذا القول خلاصة أقوال الفلاسفة الايبكوريين . ولكن اعتقاد القيامة الذى يحسبه أعظم الفلاسفة من افطع ضروب الجهل هوركن رجاء المؤمنين وسرورهم ، وما كان موضع الهزء والسخرية فى أربوس باغوس (أع ١٧ : ١٩) هو موضوع ترانيم النصر للمسيحى فى ساعة الموت وعند دخوله السماء .

قال أحد الملحدين « الغاية الوحيدة من الوجود على وجه الأرض هى التلذذ والتنعم . هنا السعادة الحقيقية . وما وراء الستار وما بعد الحياة كذب وخداع لا وجود له » فقالت أم فقدت وحيدها « سيدى : كان لى ولد وحيد كان عزى وفخرى وموضوع أفراسى وآمالى فقدته ، فإذا كان حقيقة كما تزعم إن السعادة على وجه الأرض فقط ولا وجود لها بعد الحياة فكيف يمكننى أن أفرح بعد وفاته وأتعم بالحياة إذا لم أكن على يقين من أنى سأراه يوماً فى جنة الخلود وأمتع العين برؤياه .

لا يزال كثيرون يصرحون بأن الموت نهاية الحياة وأن من يموت يعود الى عناصره الأولى فيختلط بعضها بالهواء وبعضها بالماء وبعضها بالتراب ويصير بعض هذه الأجزاء نباتاً وبعضها حيواناً ، ويستبعدون ان يقوم الجسد بعد ذلك ويرجع كما كان . وهذا جهل عظيم بقدره الله الذى يقول عن نفسه « هل يستحيل على الرب

وحقيقة الخلود والقيامة وان تكن روحية فإن لنا فى ظواهر المادة وحالاتها ما يبرهن لنا هذه الحقيقة و يقربها من الادراك والتصديق ، فإذا كان الانسان فى استطاعته أن يصنع أوراقاً لامعة شفافة من خرق بالية . وأن يصنع من الرمل زجاجاً وبلوراً . وإذا كنا نرى الأشجار تفقد خضرتها ثم تعود اليها ، والفصول الاربعة يعود كل منها بعد ذهابه . والبذرة بعد أن تلقى فى الأرض وتموت تنبت نباتاً جيداً حسناً . فهل بعد ذلك يعجز الله عن اقامة جسد الانسان حياً كما كان وهو الذى سبق وأوجد هذا الجسم من العدم .

قال السيد المسيح « الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الخنطة فى الأرض وتمت فهى تبقى وحدها . ولكن إن ماتت تأتى بشمر كثير» (يو ١٢ : ٢٤) فالبذرة إذاً فى موتها لم تتلاشى بل استعدت للتغيير من حال الى حال . هكذا أمر موت الانسان فإنه ينقل من هيئة الى هيئة وهو هو بعينه . إن شجرة البلوط الكاملة تختلف فى الهيئة والصفات عن البذرة التى نشأت منها ولكن حياتها هى نفس حياة البذرة . قال القديس أوغسطينوس « إذا كان ممكناً لى أن يزيد فى الحبة جرمها لم يكن فيها قبلاً أفلا يستطيع فى القيامة أن يعيد ما كان فى جسد الانسان » .

حينما ينتهى سفر السائح فى هذا العالم يموت ليعيش فى عالم أفضل . ليس الموت إلا انتقال . ليس الموت طى الجناحين بل اعدادهما لطيران أطول . والموت ليس الاصطدام بصخر مخفى بل هو دخول سريع الى فرصة ظاهرة للعيان .

يحكى أن ابنة صغيرة كانت تجول فى حديقة حول بيت أبيها فرأت عشاً فى شجرة قريباً من الأرض فنظرت وإذا فيه أربع بيضات منقوشة نقشاً جميلاً كما يكون بيض العصافير عادة فأسرعت وأخبرت أمها بما رأت ، واتفق أنها ذهبت فى اليوم التالى لزيارة بيت عمها و بقيت عندهم أسبوعين ثم عادت الى بيتها وأول شئ فعلته أنها دخلت الى الحديقة لترى العش فلم تجد فيه البيضات بل وجدت قشورها . فحزنت لذلك وذهبت تحبب أمها بالأمر والدموع مل عينها . فقالت لها أمها لا تحزنى يا عزى يزتى فإن أفضل شئ فى تلك البيضات قد خرج وطار الى فوق

والذى بقى منها إنما هو قشورها التى لا فائدة منها . وهذا شأن أجسادنا نموت فتخرج أرواحنا وتذهب الى خالقها وتبقى تلك الرمم الفانية . وقد أدرك المصريون الأقدمون هذه الحقيقة ومثلوها على هذه الصورة فاننا نجدهم فى نقوشهم وصورهم يمثلون الميت ملقى على سريره ونفسه خارجة من جنبه فى شكل طائر .

وقد دعيت القيامة قيامة الأجساد خوفاً من أن يظن أحد أن النفس تموت مع الجسد لان النفس خالدة لا يمكن ان يتسلط عليها فناء .

وقال الحكيم عن كيفية موت الانسان « فيرجع التراب (الجسد) الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى أعطاها » (جا ١٢ : ٧) أما أين تكون النفوس بعد الموت فقد ذكر الكتاب أن أرواح الأبرار تكون بعد الموت فى الفردوس مع المسيح لتأخذ عربون السعادة والمجد (مت ١٧ : ٣ ، لو ١٦ : ٢٢ ، ٢٣ : ٤٣ ، يو ١١ : ٢٦ ، ١٤ : ٣ ، ١٤ : ٢ ، كو ١ : ٥ — ٨ ، فى ١ : ٢٣ ، ١ تس ٥ : ١٠) ونفوس الاشرار تحفظ فى سجن الظلام الى حكم اليوم العظيم (لو ١٦ : ٢٣ ، ١ بط ٣ : ١٩ ، ٢ بط ٢ : ٩ ، يه ٦ و ٨) أما مكافأة النفس التقية بالوجود فى السماء ومجازاة النفس الشعيصة بالطرح فى جهنم ، فلا يكون إلا بعد أن تلبس النفوس أجسادها : لأنه عدل هو أن تكافأ النفس فى الجسد الذ أحسنت فيه وتجازى النفس فى الجسد الذى أساءت به . فالعيون التى منعت نفسها من التلذذ بالمناظر العالمية والألسنة التى أبت أن تتذوق الدنيا ، والآذان التى حرمت ذاتها التمتع بأصوات هذا الوجود ، هى التى ستفوز بكل سعادة العالم الآخر ، أما الأعين الشريرة والأفواه الكاذبة والأعضاء الفاسدة فلا بد أيضاً أن تجازى بكل شقاء فى الحياة الآتية ولا يكون ذلك للنفس وحدها أوللجسد وحده بل للنفس إذا لبست جسدها ، اما قبل القيامة فكلاهما محفوظة لتلك الساعة .

ففى هذا العالم لا تقوى النفس على اتيان أى أمر بدون الجسد فهو الآلة التى تنتمم كل شئ ، والنفس والجسد كلاهما فى ارتباط كللى لا يدرك . هكذا بعد انفصال النفس عن الجسد بالموت تعود اليه بالقيامة لتسأل عن جميع أفعالها وتجازى عليها . ليس من العدل أن تكافأ النفس دون الجسد لأنه هو الذى قاسى المشقات

وقام بخدمتها إذا كانت صالحة فقد تعب وجاهد فى احتمال الأتعاب والأسفار والأصوام فيجب إذاً أن يشارك النفس فى أمجادها . وإذا كانت النفس غير صالحة فالجسد هو الذى سقط فى الرذيلة وتمتع بالشهوات وتلذذ وشبع و ينبغى أن يشارك النفس فى عذابها . قال التسيد المسيح « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدر أن يقتلوا . بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم » (مت ١٠ : ٢٨).

فلا بد إذاً من القيامة ليأخذ كل واحد نصيبه كما قال ابرهيم للغنى « اذكر أنك استوفيت خيراتك فى حياتك وكذلك لعازر البلىا والآن هو يتعزى وأنت تتعذب » (لو ١٦ : ٢٥) إن ما نراه فى هذا العالم كثيراً ما يدهشنا ويحاول إن يفشلنا . نحزن عندما نرى الرذيلة قاتمة والفضيلة مكسورة الجناح . نتألم عندما نرى الأفاضل محقرين والأراذل مجدين . فلا بد إذاً من قيامة يخرج بعدها الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين فعلوا السيئات الى قيامة الدينونة (يو ٥ : ٢٨ و ٢٩) نعم لا بد من قيامة فيها تتمجد الفضيلة وتندحر الرذيلة ، ويتمتع الأتقياء ويتعذب الأشرار .

أما الكيفية التى تقوم بها الأجساد فقد سئل عنها الرسول بولس « كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ؟ » فأجاب « ياغبى الذى تزرعه لا يحيا ان لم يميت ، والذى تزرعه لست تزرع الجسم الذى سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد السواقى ، ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد ... هكذا أيضاً قيامة الأموات ، يزرع فى فساد ويقام فى عدم فساد ... لان هذا الفاسد لا بد إن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت » (١ كسو ١٥ : ٣٥ — ٥٣).

فالقيامة إذا تغيير وليست استحالة . والجسد المقام يشابه الجسد الذى يموت من بعض الوجوه والإ يكون العمل خليفة وليس قيامة . وإذا كنا ننكر مشابهة الأجساد الطبيعية للأجساد المقامة مشابهة خاصة فاننا ننكر القيامة نفسها ولكن يوجد فرق بين المشابهة الخاصة والمشابهة المطلقة الكلية لأن هذه يتحتم بموجبها أن كل ذرة دقيقة فى الجسد المائت ينبغى أن توجد فى الجسد المقام ويمكننا أن نوضح ذلك بملاحظة

الفرق بين جسد الانسان وقت الطفولية وجسده وقت الشبوية وجسده وقت الشيخوخة فمع أنه يختلف عن بعضه في هذه الأعمار إلا أنه هو الجسد بعينه لم يتغير بغيره، فالجسد المقام إذاً يكون جسداً ولكن ليس في صورته الطبيعية إذ أنه يمنح عدم الفساد والخلود والروحانية ليكون مناسباً للعالم الأبدى، فلا يقوم الأعمى أعمى ولا الأعرج أعرجاً ولا الضعيف ضعيفاً بل يقوم الكل أصحاء كاملين.

ولكن ما أعظم الفرق الذى سيكون بين أجساد الابرار وأجساد الأشرار التى تقوم، وباله من اختلاف جسم بينهما. قال دانيال النبی وكثيرون من الرافدين فى تراب الارض يستيقظون هؤلاء الى الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار للازدراء الأبدى، والفاهمون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين الى البر كالكواكب الى أبد الدهور» (دا ١٢: ٢ و٣) فيقوم الأبرار بأجساد بهية لامعة لا تحس بأى تعب أو شقاء لن يجوعوا ولن يعطشوا ولا تقع عليهم الشمس ولا شئ من الحر (رؤ ٧: ١٦) ولن تسود عليهم الشهوة لأنهم يكونون كملائكة الله (مت ٢٢: ٣٠) ولا يكون جسدهم بعد لحماً ولا دماً (١ كو ١٥: ٥٠) والفخر الاعظم والوعد الاكمل أنه سيكون كجسد المسيح «ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو» (١ يو ٣: ٢) وقال الرسول بولس: «الذى سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده» (فى ٣: ٢١).

فياها من سعادة عظيمة تحيط بأولئك الذين صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات (غلاطية ٥: ٢٤) وما أحسن قول بعضهم فى ذلك «يسير المؤمن فى هذه الحياة وغايته التمتع بالله ومشاركة الطبيعة الالهية بالصفات الحسنى وتجلياتها المحسوسة بين البشر الى أن يأتيه الموت. ولا يكون الموت لمن يؤمن بالخلود إلا حادثة بسيطة تفك روحه من أسرها الترابى لتعدها حياة أعظم وأكمل وأجده فيكون مثله فى ذلك مثل دودة تدفن نفسها بشرنقتها، تموت بكيانها الظاهر لا لتفنى بل لتقوم فراشة جميلة لها أجنحة تطير بها عن الأرض وتخلق فى الفضاء حيناً تر يد فتكون بمظهرها الثانى أجل وأقوى وأكمل».

فجسد الأتقياء الذى أقم واستعد (١ كو ٩: ٢٧) وجسد الشهداء الذى

تقطع وتمزق واحترق لا بد أن يعود صحيحاً بل يأخذ أسمى حالات المجد فنضمده الجراحات وتتلألاً بالمجد فى القيامة . روى بعضهم ، أنه كان من عادة الرومانيين أنه عندما يحضر القائد الظافر الى مدينته يذهب أولاً الى بيته خفية فيسترىح فيه ويستمتع بأصحابه وأهله مدة أسبوع أو أسبوعين الى أن يأتى الوقت المعين الذى فيه يخرج من بيته ويدخل المدينة رسمياً ، وحينئذ يعترف به وتفتح له الأبواب ليدخل بالعز والمجد ويسير بموكب حافل فى وسط المدينة الى الكابيتول (دار الحكومة) بين هتاف الفرح وصيحات السرور . هكذا أيضاً أولئك القديسون الذين جاهدوا وظفروا وانتقلوا سيقومون الى المجد و يعلن مجدهم فى موكب الأبرار و ينالون مع السعادة .

أما الخطاة فيقومون بأجساد مملوءة شناعة ومتشحة بالسواد فتنبعث منها الروائح الكريهة ، فيألفها من تعاسة شديدة و ياله من حزن مفرط يحيقان بأولئك الهالكين المردولين عند اتحاد نفوسهم بأجسادهم فتذكر النفس عندما ترى الجسد كل ما ارتكبت فيه من الشرور وكل ما استخدمته فيه من المعاصى فتقول له « أيتها الجسد الملعون أنى لأجل رغبتى فى أن أنعمك هلكت » فيجاوبها قائلاً « أيتها النفس اللعينة الشقية . أنت التى كنت حاصلة على العقل والفطنة فلماذا تنازلت معى وساعدتني على ارتكاب كل تلك الشرور التى سببت لى الهلاك الأبدى » .

أما كيف تكون القيامة فيقول الرسول بولس : « فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الأخير . فانه سيبوق فييقام الأموات عديمى فساد ونحن نتغير » (١ كو ١٥ : ٥٢) وقال السيد المسيح « فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختار يه من الأربع رياح من أقصاء السموات الى أقصائها » (مت ٢٤ : ٣١) فمتى صدر أمر الله الى ملائكته باحضار جميع بنى البشر حينئذ تنحدر قوته الى أعماق القبور فتنتعش العظم الرميم . وكم من أجساد مندثرة ضمن طيات الأرض ولكن الله الذى يجبرنا عنه الكتاب أنه هو الذى يجيب الموتى و يدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة (رو ٤ : ١٧) يأمر جميع الناس قاطبة أن يقوموا : حينئذ يسلم البحر الأموات النذيين فيه و يسلم الموت والهاوية الذين فيها (رؤ ٢٠ : ١٣) وهكذا تأخذ البيرية أن تلد ميلاداً جديداً وهذا العمل العجيب

لا يحتاج الى سنين متعددة لأن قدرة الله لا تقف عند زمان ولا مكان بل كما قال الرسول بولس : « فى لحظة » أجل . حينما يصدر الأمر الاسمى بانتها العالم ينتهى فى الحال « من أجل ذلك فى يوم واحد ستأتى ضرباً باتها موت وحزن وجوع وتحترق بالنار لأن الرب الاله الذى يدينها قوى (رؤ ١٨ : ٨) والأرض والسموات تسيد كنوب تبلى كرداء يطوها فتتغير (عب ١ : ١٠ - ١٢) وقال الرسول بطرس : « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التى فيها » (٢ بط ٣ : ١٠) .

حينئذ تنقطع أصوات العصافير المغردة و ينقطع هتاف الطرب والسرور وتقف حركة الحياة فلا تعود تسمع صوت فأس الخطاب كما فى العصور الأولى ولا دوى الآلات صادراً من أماكن العمل و يكف التلميذ عن التأمل فى كتبه ، والمصور عن التفرس فى جلال الشمس وقت المغيب و ينقطع الخطيب قبل انتهاء خطابته و يصير فوق استطاعة الشاعر أن يحرك الأوتار الخالدة ، يخلع الملك ثوبه الارجوانى و يضع الفلاح معوله ولا يكون هناك حاجة بعد للعلماء ، وسيف الغضب المعلن والذى كان ممنوعاً عن العمل مدة فتح باب للتوبة يعود فيتمم عمله بقوة مهلكة على عالم فاجر . و يقفل باب التوبة فى وجه كل من لم يدخله قبل ذلك . نعم فكل ما نراه فى هذا العالم من الفساد والشر والظلم والتناق سيزول عما قريب .

فهيا ياملائكة الله انذروا الخطاة بيوم الدينونة العظيم . واطلمى أيتها السماء واحجى عنهم أنوارك وأهطلى أيتها النار من العلاء واحرقى مقتنياتهم وانفتحي أيتها الأرض من أسفل وابتلعى جميع قصورهم . فهذه هى النهاية التى تضمحل فيها كل المدن والقرى والممالك والقصور والحصون . هذه هى النهاية المزمعة ان تلاشى كل غنى وكل مجد عالمى وجميع التمتعيات الزمنية « قد جاء الوقت . بلغ اليوم فلا يفرحن الشارى ولا يحزنن البائع لأن الغضب على كل جمهورهم » (حز ٧ : ١٢) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم : « انى لما أتأمل مجئ الديان وكيف تصرخ الأبواق بصوت عظيم وكيف تفتح القبور ، كيف تفرغ اللحود وكيف يقوم الأموات

من القبور كالمستفيقيين من الرقاد . وكيف ترجع الانفس الى أجسادها . عندما أفكر بهذا يا اخوتي اغبط وامدح المنتظرين المنتهين وانذب وانتحب على الغافلين المهملين» .

أجل فى ذلك اليوم يخرج كل انسان من الجوف الذى ضمه ، ولكن ما أعظم الاختلاف بين الحالتين . حالة الناس قبل القيامة وحالتهم بعدها . فترون ذلك الذى كان بالأمس يرجف العالم منه خوفاً ورهبة فى غاية الفزع والاضطراب . قد فارقه بأسه وكل مجده فيسأل أين سلطتى وجاهى ؟ أين عظمتى واهتى ؟ فيجاوب «انت لم تخرج من لحدك لتعود الى مجدك الأول بل لتساق للمحاكمة» .

قال الرائي « ونظرت لما فتح الختم السادس وإذا زلزلة عظيمة حدثت والشمس صارت سوداء كمسح شعر والقمر صار كالدم ونجوم السماء سقطت على الأرض كما تطرح شجرة التين ثمرها إذا هزتها ريح عظيمة . والسياء انفلقت كدرج ملتف وكل جبل وجزيرة تزحزح من موضعها ، وملوك الأرض والعطاء والأغنياء والأمراء الأقوياء وكل عبد وكل حر أخفوا أنفسهم فى المغاير وفى صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور اسقطى علينا واخفيننا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف . لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف » (رؤى : ١٢ - ١٧) .

قد كانوا فى الحياة الأولى مفتونين بالشهوات ومغرمين بالنجاح ومتهين باللذات . أما الآن فقد ماتت فيهم تلك العواطف المهلكة ولم يبق لهم إلا الخضوع للقوة القادرة التى تسيطر عليهم حينئذ ليجابوا عما أتوه فى حياتهم على الأرض . ترى أين يضر الخاطئ من ذلك الهول ؟ قد يحاول أن يلتجئ الى القصور الشامخة والأبراج الحصينة ولكنها تكون حينئذ قد هدمت . لعمرى كيف يكون حال أولئك وهم يرون قصورهم التى تعبوا فى هندستها ونقشها تلتهمها النار التهاماً . وماذا يكون شأن التجار وهم يرون اللهب يدخل مخازنهم ويأكل ما بها . أجل سيسمع حينئذ

بكاء وعويل لم يعرف منذ انشاء العالم . ستدوس المرأة ولدها الرضيع وهى لا تشعر
ويهمل الاب ابنه وهو لا يدري .

أجل هو يوم بوق وهتاف على المدن المحصنة وعلى الشرف الرفيعة . أما الأبرار
فلن يدنو منهم شر ولا يقترب منهم خطر بل يحظفون جميعاً لملاقاة الرب فى الهواء .

الفصل الحادى والعشرون فى يوم مجئ الرب العظيم الثانى

«لأن يوم الرب عظيم ومخوف جداً فمن يطيقه؟» (يؤ ٢: ١١)

لقد جاءت أيام عديدة على العالم اشتد هولها وعظم خطرها كيوم الطوفان و يوم احراق سدوم وعمورة و يوم قتل أطفال بيت لحم وكم من أيام حدثت فيها زلازل وبراكين أهلكت ما لا يحصى من النفوس وهدمت البيوت الشامخة وأزالت عزمدين عامرة ، ولكن هذه الايام ظل وخيال ليوم الرب العظيم الذى يأتى فيه ثانية فى مجده (مت ٢٥ : ٣١).

لقد أتى المخلص أولاً وديعاً متواضعاً فأخذ العالم من اتضاعه سبباً لاحتقاره واذلاله ، أتى ليسكب على الناس فيض رحمته فاتخذ العالم من رحمته سبباً ليسئى الى هذا الاله الجزيل الصبر والجلود . فمن الواجب إذأ فى مجيئه الثانى أن يأتى ليصلح هذين الجرمين اللذين أجرم بهما البشر ، فيأتى أولاً بعظمته وثانياً بعدله . فهذا الحروف الوديع الذى بصبر عجيب فى هذه الحياة احتمل من الخطاة اهانات وافتراءات عديدة يصير أسداً مفترساً ، مجرد النظر اليه يولى الخطاة رعباً ويلبسهم ثياباً من الخوف والرجز دون أن يكون لهم أقل أمل فى الرحمة . ان الخطاة لا يعرفونه الآن بل يظهر لهم انه اله لا يبصر الاثم أولاً يبغضه أو كأنه لا يشعر بما يهان به اسمه القدوس . إلا أنهم سيعلمون وقتئذ إن الله يبغض الخطيئة بغضاً عظيماً .

إن حزقيال النبى رأى فى رؤياه كرو بين لكل منها وجهان ، الوجه الواحد وجه انسان والوجه الثانى وجه اسد (حز ٤١ : ١٨ و ١٩) وهذا يمثل لنا اتم تمثيل سيدنا يسوع المسيح المتصف بوجهين : الاول وجه انسان أنيس حلیم وديع وهو الذى

ينظر به الى الخطاة منه أن مات عنهم الى يوم القيامة ، والوجه الثانى وجه اسد وهو الذى يلتفت به اليهم يوم الدينونة .

قال المرتل « الرب قد ملك فلتبتج الأرض ولفرح الجزائر الكثيرة . السحاب والضباب حوله . العدل والحق قاعدة كرسية . قدامه تذهب نار وتتحرق أعداءه حوله . أضاعت بروقة المسكونة رأت الأرض وارتعدت . ذابت الجبال مثل الشمع قدام النزب سيد الأرض كلها . وأخبرت السموات بعدله ورأى جميع الشعوب مجده » (مز ٩٧ : ١ - ٦) .

إن الملك إذا عزم أن يدخل مدينة طه تعديخلها بالحبة ومعه عساكره وهم لابسون ثياب السرور وحلل الأفراح ، و يقبلون على تلك المدينة بالسلام والتحية والتكريم وكل محبة . أما إذا كانت المدينة عاصية فيوافى غاضباً عليها وعساكره مدججة بالسلاح لمحاربتها بشدة وقساوة . هكذا ربنا يسوع ملك المجد كان مجيئه الأول الى العالم بصلح وسلام . وملائكته اهدوا المسكونة التحية قائلين « وعلى الأرض السلام » (لو ٢ : ١٤) وأما مجيئه الثانى فانه سيكون بروح الشدة والغضب لأنه يأتى للانتقام والمجازاة وتعذيب الخطاة .

فحينئذ بك بصح القول « أين مراحمك القديمة ؟ كنت أراك فى جيئك الأول وديعاً متواضعاً كالحمل ، واليوم أراك قوياً مزيجراً كالأسد . كنت أراك تفتح ذراعيك ليقبل اليك الخاطى واليوم أراك تطرده الى النار المؤبدة . كيف استحالت تلك المحبة الى بغضة ؟ أنها الخطيئة يا الهى التى جعلتك تغضب ويحق لك إن تغضب على مرتكبها لأنك سبقت ومنت لأجلهم » .

قبل أن تحرب أورشليم حسب نبوة المخلص على يد تيطس الرومانى ، سبق خرابها بعض حوادث دلت عليه فظهر نجم ذو ذنب يشبه سيفاً مجرداً وظهر رجل جعل يطوف قبل فتح المدينة بأربع سنين الشوارع والأزقة كالمجنون وهو يصيح « صوت من أربع جهات العالم صوت على أورشليم . صوت على الهيكل . صوت على الحصن . صوت على جميع الناس » وهكذا يسبق مجئ المخلص ما يدل على رهبته

فتستجد الشمس والقمر والنجوم والأفلاك على مقاومة العالم وإعلان غضب الديان الآتى على السحاب بقوة ومجد عظيم فتظلم الشمس والقمر وتحدث زلازل عظيمة وتنحل العناصر وتضطرب الجمادات . وهذه المخلوقات ولو أنها لم ترتكب خطيئة أو تبأشر ذنباً غير أن الله لكى يظهر عظمة دينوته سيفنيها لأن الأشرار اتخذوها آلات لتنفيذ مآزيمهم فيهلك الأرض لأنها حملتهم و يفنى النور لأنه أضاء لهم وهم مستغرقون فى الخطيئة « ولولوا لأن يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شئ لذلك ترتخى كل الأيادى و يذوب كل قلب انسان » (اش ١٣ : ٦ و ٧) .

فياله من فرق عظيم بين يوم قيامة ابن الله من القبر ، وبين اليوم الذى يجئ فيه لبيدين العالم فى اليوم الأول كان يتادى لكل انسان بالسلام وفى اليوم الثانى يرسل صوته بغضب فيزعج كل المسكونة .

مباذا يكون فى ذلك الوقت حال الانسان غير التائب الذى كان متغافلاً عن الأمور الروحية ؟ ألا ينزعج قلبه وترتعد فرائضه حين يرى علامات قرب مجئ المسيح للدينونة ؟ وماذا يعمل حينئذ إذ يرى الأعمال العالمية قد بطلت وأن أئمن وأعز خيرات الدنيا قد أصبحت عديمة القيمة والفائدة ؟ وكيف يكون حاله حينما يرى الرب يسوع الذى ازدرى بأجبله واستهزأ بوصاياه آتياً فى السحاب ليضع أعداءه عند موطن قدميه ، ألا يقول للجبال أسقطى على وللا كام غطينى من وجه الجالس على العرش ومن غضب الخروف ! لأنه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع الوقوف ؟ (رؤ ١٦ : ٦ و ١٧) .

فعلى هذا الشكل المريع يظهر الديان العادل ، والغضب يتقدمه وذلك دليل على مبلغ الصرامة التى سيدين بها العالم حتى أن مجرد رؤية يسوع قادماً فى غضبه يكون أشد من عذاب جهنم . قال ملاخى النبى : « فهوذا يأتى اليوم المتقد كالثور وكل المستكبرين وكل فاعلى الشر يكونون قشاً ويمرحهم اليوم الآتى قال رب الجنود فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١) .

أى خجل وأى خوف يشعر بها انسان يقف أمام ملك اهانه أوقاض تعدى عليه ، وأية رعدة تعترى العبد حينما يرى سيده ناقماً عليه بغضب شديد ، وكم من

الرعب والاضطراب يداخل تلك النفس التي تكون قد احتقرت يسوع وازدرت به عندما تراه آتياً ليدينها ! قال زكريا النبي : « فينظرون الى الذى طعنوه و ينوحون عليه كنانح على وحيد له و يكونون فى مرارة عليه كمن هو فى مرارة على بكره » (زك ١٢ : ١٠) ذكر إن الباشق يخيف أنواعاً من العصافير خوفاً شديداً حتى انها عندما تراه تحاول التخلص منه ولوترج نفسها فى بئر عميق أو أتون منقذ ، وهكذا يتمنى أن يفعل الهالكون فى يوم الدينونة و يفضلون أن يطرحوا فى أعماق اللجج لو كان ذلك ينجيهم من المثل أمام رب القوات وقد سل عليهم سيف الانتقام . قال الكتاب الالهى « وفى تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه و يرغبون إن يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ ٩ : ٦) .

قال الرب عن كيفية مجيئه « وحينئذ يبصرون ابن الانسان آتياً فى سحابة بقوة و مجد كثير » (لو ٢١ : ٢٧) فياله من مشهد قاس على الخطاة حينما يرون أن الديان هو ينفسه الذى مات على الصليب لأجل خلاصهم . وأنه هو نفسه الذى طرحوا كلامه خلفهم . ما أعظم الخزي الذى يستولى على الخاطى حينئذ وما أشد نوحسات ضميره . فخلصنا سيأتى للدينونة بالجسد الذى مات به و بالجراحات التى أراها لتلاميذه عقب قيامته . فينظر اليه الأبرار بفرح لأنهم نالوا الخلاص بهذه الجراحات و ينظر اليه الأشرار بخوف عظيم لأنهم لم يستفيدوا من هذه الجراحات شيئاً .

حينما مثل أخوة يوسف أمامه فى مصر وقال لهم « أنا يوسف أخوكم الذى بعتموه الى مصر » يقول الكتاب « فلم يستطع اخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه (تك ٤٥ : ٤٣ و ٤٤) . قال القديس أوغسطينوس « ان السيد المسيح قد اختفى فى مجيئه الأول تحت حجاب ناسوته ولكنه سيأتى فى يوم الدينونة بمثل لاهوته . فإذا كان جل شأنه فى حالة تزيه ضعفنا جعل أعداءه يسقطون على الأرض بكلمة واحدة منه عندما قال لهم فى ليلة الآمه « أنا هو » (يو ١٨ : ٦) فإذا يحدث إذا لاح فى مقدمة الجيش السماوى بكل عزته وقدرته . انه يرفع صوته بصيحة أرهب من أصوات الرعود و يكرر كلامه السابق قائلاً « أنا هو » أنا هو الذى أهنتموه و كفرتم به وصلبتموه « أنا هو » هوذا اسم الرب يأتى من بعيد غضبه مشتعل

والحريق عظيم . شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كمنار آكلة «
(اش : ٣٠ : ٢٧ - ٣٣).

ان الاسرائيليين لما شاهدوا البروق والرعود فى جبل سينا داخلهم الخوف جداً وقالوا لموسى « تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت »
(خر : ٢٠ : ١٩) فكيف يعمل الخاطى عندما يرى علامات ذلك اليوم ولا سبيل أمامه للهرب ؟ إن آدم حينما سمع صوت الرب بعد المخالفة اختبأ بين الأشجار . أما الشرير فلن يجد له ملجأ بين الشجر لأنها حينئذ تحترق بأغصانها من هيبه الرب .

قال الكتاب « فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال . ارتعدت وارتجت لأنته غضب . صعده دخان من أنفه ونار من فمه أكلت . جمر اشتعلت منه . طأطأ السموات ونزل وضباب تحت رجليه . ركب على كروب وطار وهف على أجنحة الرياح . جعل الظلمة ستره حوله مظلمته ضباب المياة وظلام الغمام من الشعاع قدماه عبرت سحبه . برد وجر نار . أرعد الرب من السموات والعلى أعطى صوته برداً وجر نار . أرسل سهامه فشتهم وبروقاً كثيرة فأزعجهم » (مز : ١٨ : ٧ - ١٤).

فإذا يقول حينئذ أولئك الذين قدم لهم المسيح ذاته واقتداهم بآلامه المقدسة وموته ولم يخلصوا له بل أساءوا اليه بخطايا متعددة مزدرين بدمه المسفوك « فكم عقاباً أشر تظنون أنه يحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذى قدس به دنساً وازدرى بروح النعمة فانتنا نعرف الذى قال لى الانتقام أنا أجازى يقول الرب . وأيضاً الرب يدين شعبه . مخيف هو الوقوع فى يدي الله الحسى »
(عب : ١٠ : ٢٩ - ٣١).

انتنا نجد فى هذا الزمن كثيرين من البشر لا يخافون يسوع ولا يهابونه كما يهابون أقل الناس . أنهم يخشون أن يقترفوا اثماً ضد أحد فيدفعه الغيظ الى الانتقام منهم ، ولكنهم يرتكبون مخالفة الله والتجديف على اسمه بغير مبالاة « القائلين لله ابعد عنا وماذا يفعل القدير لهم » (اى : ٢٢ : ١٧) « لذلك تقلدوا الكبير ياء . لبسوا كتوب ظلمهم . جحظت عيونهم من الشحم جاوزوا تصورات القلب . يستهزئون

و يتكلمون بالشر ظلماً من العلاء يتكلمون . جعلوا أفواههم فى السماء ، وألسنتهم تشمشى فى الأرض ... وقالوا كيف يعلم الله وهل عند العلى معرفة» (مز ٧٣ : ٦ - ١١) .

فلأجل ذلك قد خصص الرب يسوع يوماً معيناً هو يوم الدينونة العامة الذى فيه يعلن ذاته ليعرف الجميع انه هو السيد العظيم المطلق التصرف ومن ثم لا يدعى هذا اليوم يوم رحمة أو يوم رافة أو يوم غفران بل يقول عنه صفنيا النبى «قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جداً . صوت يوم الرب . يصرخ حينئذ الجبار مرأ . ذلك اليوم يوم سخط ، يوم ضيق وشدة يوم خراب ودمار ، يوم ظلام وقتام ، يوم سحب وضباب ... وأضايق الناس فيمنشون كالعمى لأنهم أخطأوا الى الرب فيسفع دمهم كالتراب ولحمهم كالجملة . لافضتهم ولا ذهبهم يستطيع انقاذهم فى يوم غضب الرب بل بنار غيرته تؤكل الأرض كلها . لأنه يصنع فناء باغناً لكل سكان الأرض» (صف ١ : ١٤ - ١٨) .

ونور المسيح فى ذلك اليوم سيكون للأبرار سرورا وهجة ، وللأشرار حزناً عظيماً وكدرأ جسيماً فيكون بكاء مرأ و ينتحبون انتحاباً شديداً لأنهم لم يعملوا لينتفعوا من موته العظيم ليتطهروا بدمه الثمين وعند مشاهدتهم جلال مجده السماوى وسمو بهاء عزته الربانية يطأطئون رؤوسهم ويحنون هاماتهم عند موطنى قديم .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم «فى ذلك اليوم يهمل الانسان كل الكنوز التى جمعها ويذهب الى هناك عرياناً ذليلاً عابساً خائفاً و يقف الجميع فى موقف الدينونة الرهيب حيث ترتحف الملائكة . حيث تفتح أسفار أعمالنا . حيث الدود العديم الشفقة وحيث الزمهرير القارص ، حيث النوح الذى لا عزاء بعده . حيث الدموع المنهمة كالظل حيث الظلام الخالك . فاذا عسانا نحتمل حين نقف حاملين أثقال خطايانا على أعناقنا فنرى فى تلك الساعة الألسن المتكلمة بالالحاد وبالباطيل تلتب فى السعير التهاباً متواصلاً . وأسنان الثمامين تصر ندماً وحسرة . وأفواه المجدفين تسد بجممر النار المضطربة . وأيدى محبى المال ترتعش كالقصبه المرضوضة . والأعين التى كانت تألف نظر الشر وتفرح بالاثم لا ترى إلا اللهب

فأين عند ذلك الانسباء والأهل ، أين حينئذ الاب الشفوق ؟ أين حينئذ الأم المشحنته ؟ أين الاخوة الأحياء ؟ أين حينئذ سلطة ملوك الأرض ؟ أين الذين كانوا يشكرون العقاب ؟ كم من ندامة تستحوذ عليهم . كم يندبون و ينجحون ولا يرحمهم أحد . كم يتهدون ولا من يشفق عليهم . فيالذ من حزن مفرط . هل لأجل لذة وقتية ومجد حقير زائل نحرّم أنفسنا من ذلك المجد الحقيقى ونورثها العذاب الذى لا يطاق ؟ .

الفصل الثانى والعشرون فى الدينونة العامة

« إن كنت تراقب الآفام يارب يانسيد فمن يقف » (مز ١٣٠ : ٣٠)

إن كثيرين يعتبرون الدينونة العامة ضرباً من ضروب الخرافات ولذلك لا ترى فى أخلاقهم تحسناً ولا فى سلوكهم استقامة لأنه ما من أحد يعتقد « أن كل كلمة بطلالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (مت ١٢ : ٣٦) مع ذلك يعمن فى شره و يقيم فى ائمه . فهل فينا من يؤمن بالدينونة العامة ؟ كثيرون يقولون نعم ولكن ما هى الأعمال التى تتمونها لتكسبوا بها الفخر فى ذلك اليوم ؟ هل التوغل فى محبسة العالم . والانهماك فى ملاذه . والسعى المتواصل فى طلب مجده ؟ . إذا كنتم تريدون أن تعرفوا هل أنتم تؤمنون حقاً بالدينونة العامة أم لا فعليكم بفحص تصرفاتكم لتروا بأنفسكم أنكم إذا دعيتم لما يخص أجسادكم وأميالكم البدنية سارعتم وعدوتم . وإذا طلب منكم أن تعملوا أمراً يرضى الله انتحلتم الأعذار التى بها تعتذرون وضيق الصدر الذى يستولى عليكم . إن الذى يشعر بأنه مزعج أن يقف أمام قاض فى محكمة عالمية لا يظهر اهمالاً فى الاستعداد مثل أهالكم أنتم يا من ستقفون أمام القاضى العادل فى محكمة الدينونة الرهيبة .

قال أحدهم « كيف تقولون أنكم تؤمنون بوجود ديان سيدينكم على أفعالكم وأنتم لا تعملون له حساباً ؟ فإن كنتم تؤمنون أن المسيح سوف يدينكم فحسناً تفعلون . ولكن لماذا لا تخافونه ولماذا تجدفون عليه فى حين سخطكم . وتحلفون باسمه زوراً . وتغيظونه وتخربونه فى ملاهيكم . لماذا تفضلون بشرى على رضاه ؟ ولماذا تؤثرون تركه . على ترك عشرة دنسة تميلون إليها ؟ ولماذا تصرفون الأموال الباهظة على الشر والفساد ولا تقدمون منها اليسير لديانكم ؟ أتجسرون على اتيان

هذا العمل مع واحد تعرفون انه سيدينكم ؟ كيف لا وأنتم حتى في الكنائس تستهينون به فتضحكون وتمزحون بل تسجدون لأصنامكم الساكنة في قلوبكم وهو قائم أمامكم ؟».

قال الرائي « ورأيت الأموات صغارا وكبارا واقفين أماما الله » (رؤ ٢٠ : ١٢)
فسيحضر اذا جميع البشر ليدانوا سواء رضوا أو لم يرضوا . وليس أحد من أعظم ملوك العالم يسمو بهذا المقدار حتى يترك . وليس أحد من أحقر فقراء العالم يكون دنيئا بهذا المقدار حتى يهمل . ففى هذا الحشد الذى سيجتمع للدينونة سيأتى الشيوخ والاحداث ، الأقوياء والضعفاء ، الأسرى ، والأمراء ، الأغنياء ، والفقراء ، العبيد والاحرار ، وبالجملة عموم الجنس البشرى .

فما أرهب هذا المشهد حيث الجميع بدون استثناء سيقفون أمام كرسى الديان ليعطى كل واحد حساباً عما صنع خيراً كان أم شراً . وما أشد صعوبة تلك المحاكمة ، ولذلك يقول المرتل « لا تدخل فى المحاكمة مع عبدك » (مز ١٤٣ : ٢) .

إن المقائد المنتصر يرجع الى المدينة فرحاً يعدد مفاخر انتصاره ، وبعكس ذلك المقائد المنكسر فإنه يرجع مطاطئ الرأس ذليلاً ، وربما حدا به الحزى الى الانتحار . هكذا يقف البار فى يوم الدينونة كقائد حارب وانتصر يفتخر بما تعب فى سبيل الصلاح وأما الخاطئ فبماذا يفتخر ؟ كان فى الحياة يفتخر بشوره وأما هنا فاذا يقول هل يتباهى بأنه جمع ثروة طائلة لأجلها كان يوقره الناس ؟ هل يفتخر بأنه سعى حتى نال أسمى الرتب وحظى بأجل المراكز ؟ هل يفتخر بأنه تمتع بكل الشهوات والملذات ؟ كل ذلك قد انتهى أوانه ولم يبق أمامه إلا إن يحتمل عقابه .

فما ظنك إذا أيها الانسان ؟ الدينونة آتية ولا ريب . مقبلة ولا شك . فعلى أى شئ تشكّل ؟ هل على رحمة الله ؟ كيف لا وقد ملاك الله بها حتى فاضت . وهل تظن أن الله سيحاسبك على سيئاتك فقط ؟ كلا تأمل . إذا جلس الديان العادل للمحاكمة يضع أمام عينيك من الجهة الواحدة كل ما فعلت من الشر وكل ما أهملت من الخير ، ومن الجهة الأخرى يضع أمامك حسناته الكثيرة التى جاد عليك بها ورحته الوافرة التى غمرتك . يريك كل البلايا التى خلصك منها وكل

الخيرات التي تفضل عليك بها حتى تقابل بنفسك الاحسانات التي وهبها لك مع الخطايا التي كنت تقدمها له . -

فياها من خيبة وعار عظيمين ، و ياله من خزي لا يوصف لمن يرى مديوناً لذلك الديان العادل . فإلى أين يهرب ؟ ينظر الى فوق فيرى الديان مستشيطاً من الغضب ، والى أسفل فيرى جهنم مفتوحة لا ابتلاء « من يقف أمام سخطة ومن يقوم في حو غضبه . غيظه ينسكب كالنار والصخور تنهدم منه » (١٥ : ٦) .

قال بعضهم « لا ترو عنى الرجود العظيمة ولا أطار النار المتكاثرة ولا الصواعق المهلكة ولا السواد المدهم الذي تنسربل به الشمس بقدر ما يرو عنى وقوفى بخجل عظيم أمام الله والناس وأنا أهل خطاياي » .

إن عبيد داود الملك الذين حلق نصف لحاهم ومزقت ثيابهم لم يستطيعوا أن يظهروا أمام الناس (٢ صم ١٠ : ٥) . فكم بالحرى الذين جردهم الشيطان من كل فضيلة وأبعدهم عن كل صلاح وهم يظهرون أمام الخليفة بهذا المظهر ، والشيطان يجذبهم أمام الله كأنهم أسراه وغنائمه . حقاً ما قاله دانيال النبي « وكثيرون من الرافدين في تراب الأرض يستيقظون ... الى العار للازدراء الأبدى » (١٢ : ٢) .

وقد ذكر عن بيوس أحد أعيان رومية أنه لما جئى به الى محفل الشيوخ المشيرين لمحاكمته وعابن الخلق الذين أتوا لمشاهدة المحاكمة أخذ منه الخجل مأخذاً عظيماً عندما شرع القاضى يستجوبه ولم يقو على احتمال هذا الموقف فاستل مديّة كان قد أخفاها تحت ثيابه وطعن بها نفسه فخر صريعاً ولكن هيئات أن يكون للأشرار فى يوم الدينونة قدرة على اماتة أنفسهم ليتخلصوا من ذلك العار الذى لا يوصف .

سيكون خجل الأشرار فى ذلك اليوم عظيماً وسيكون لهم من الحزن والضيق بقدر ما يكون للأبرار من الفرح والسرور . ويزداد خزيهم وعذابهم عندما يقارنون بين حالتهم وحالة الأبرار الآن ، الحالة التي كان عليها كل منها فى الحياة ، فيستذكرون الغنى الباطل والمجد الكاذب والملاذ الدنياة التي كانوا يتلذذون بها

والتي كانوا يفتخرون بها على اولاد الله ويدركون أن ما لحقهم الآن من العار العظيم إنما كان بسببها ، بينما يرون أن أحزان المؤمنين قد تحولت الى سلام خالد .

وهل يستطيع أى خاطئ أن يعتذر؟ هوذا المخلص قد أقام الأبرار ليعدين بهم الأشرار . قال الرسول بولس : « ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم » (١ كو ٦ : ٢) وكيف ذلك ؟ أيقدر أشقى الخطاة أن يقول فى يوم الدينونة الرهيب يارب أنك كنت تخلص أصاغر الخطاة فقط فلم أتجاسر على الاتيان اليك لأنى كنت من أشر الخطاة فلذلك مت باليأس ؟ هب أنه وجد من يقول ذلك أفلا يظهر له زكا العشار ويقول له لقد كنت أشقى الخطاة ومع ذلك قبلنى المسيح . ولنفرض أن لصاً اقترب من المسيح قائلاً يارب كانت خطيئى السرقة فظننت أنها من الخطايا التى لا تقبل توبة عنها ولذلك لم أتقدم اليك فى الحياة تائباً ملتمساً المغفرة ، ولكن عندما يحدق ببصره وينظر اللص الذى خلص على الصليب جالساً بجانب السيد بلباس بهى فاذا يكون موقفه ؟ وإذا قال الزانى لقد كنت أعتبر خطيئى أعظم من أن تغتفر ولذلك لم أتقدم اليك ملتمساً الخلاص ، فانه يرتد خائباً عندما يرى راحب الزانية والمرأة الخاطئة التى قبل المسيح توبتها وغفر لها ذنوبها .

وليس ذلك فقط بل سيكون خزى الخطاة من المسيحيين عظيماً حينما يواجههم الله بكثيرين من الوثنيين الذين كانوا لا يعرفون الله مدة طويلة من حياتهم ولكنهم عندما سمعوا صوته أطاعوه وتابوا . عن خطاياهم . ألم يقل المخلص أن « ملكة التيمن ستقوم فى الدين مع هذا الجيل يوتديته لأنها أتت من أقاصى الأرض لنسمع حكمة سليمان وهوذا أعظم من سليمان ههنا » ، « رجال نينوى سيقيمون فى الدين مع هذا الجيل و يدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان وهوذا أعظم من يونان ههنا » (مت ١٢ : ٤١ و ٤٢) ألا يقول المسيح الخاطئ فى ذلك اليوم « تجعلنا مثلاً بين الشعوب . لانغاض الرأس بين الأمم . اليوم كله نجلى أمامى و خزى وجهى قد غطانى » (مز ٤٤ : ١٤ و ١٥) .

فوا أسفاه على الانسان الذى يفتش حينئذ فى سفر حياته فلا يجد فضيلة يستر بها عورته . ولذلك يقول الله لملاك كنيسة اللاودكيين « أشير عليك أن تشتري

منى ... ثياباً بيضاء لكي تلبس فلا يظهر خزي عريتك» (رؤ ٣ : ١٨) و يقول الرسول بولس « وإن كنا لا يسين لا نوجد عراة » (٢ كو ٥ : ٣) وحق الله في اقامة دعواه على الخطاة ظاهر لا يمكن انكاره فلو كنت في أى مقام أو رتبة ولحقتك اهانة من أى انسان كنت تسعى للانتقام منه ؟ فكيف إذاً لا ينتقم الله لنفسه من أهانوه بشروهم وهو قادر على الانتقام ، وكيف لا يدين البشر وهو خالقهم والمحسن اليهم ؟ .

أما الديان فهو سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح وبحق ينبغي أن يدين البشر لأنه هو الاله القادر على كل شئ الذى جاء لخلاصهم ومات لأجلهم فن حقه أن يحاسبهم على هذه النعمة التى تفضل عليهم بها ليرى هل اعتبروها أم أنكروها ويتضح ذلك من قول المخلص نفسه « الآب لا يدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن » (يو ٥ : ٢٢) وقول بطرس عنه « بأن هذا هو المعين من الله ديناً للأحياء والأموات » (اع ١٠ : ٤٢) وقول بولس « لأنه أقام يوماً هو فيه مزعم أن يدين المسكونة بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع ايماناً إذ إقامة من الأموات » (اع ١٧ : ٣١) .

قال أحدهم « فحينئذ يأتى ابن الله يسوع المسيح حاملاً علامة الانتصار وملائكة السماء تخدم عزته الالهية فترفع القبائل أصواتها وتعترف صارخة بصوت واحد هلولوا . هلولوا . المجد لك يا ابن الله يسوع المسيح . وأما الذين أنكروه واحتقروا انجيله فيطرقون وجوههم وتذرف عيونهم دموعاً ، وتظهر ذنوبهم ويصرخون من مرارة قلوبهم . الخجل يغطى وجوههم ويقولون أيتها الجبال اسقطى علينا وغطينا من أمام وجه الجالس على الكرسي ، الذى لا يقبل لنا عذراً الآن لأنه قد أنذرنا قائلاً توبوا قبل يوم الدين وإلا فستموتون بخطاياكم . هذا هو يوم النعمة أما الزمان المقبول فقد مضى . يطلبون الموت فيبتعد عنهم و يطلبون الفناء ولا يجدونه . يتذكرون حينئذ العظات والالذارات التى كانت توجه اليهم فى الحياة ولم يكونوا ليعيروها اهتماماً ولكن باطلاً كل ذلك لان اليوم يوم الحصاد . يعرفون الذى أنكروه ويقرون أنه هو المسيح المخلص الذى كلمهم بانجيله الطاهر حيث قال لهم توبوا وارجعوا عن طرقكم الرديئة فتحبوا وتعالوا الى وأنا أريحكم . يقولون رفضنا

تعاليمه الصادقة واحترقنا انجيله المقدس ورسله الذين بشرونا باسمه وحسبنا قولهم كذباً أو من الأحاديث الفارغة . ضللنا ولا هادى لنا ولا منقذ ولا مخلص . اسقطى اذن علينا أيتها الجبال وغطينا من أمام وجه الجالس على الكرسي الذى سفك دمه الطاهر لأجلنا وأخذنا خاصة له وقربنا اليه ونحن ابتعدنا بارادتنا ، وبآثامنا استوجبنا نقمته . أنكرناه قدام الناس فاستوجبنا ان يذكرنا قدام أبيه الذى فى السموات . فحينئذ تسطع هيبه العلى على الجالسين لد عزته وتقع الرهبة الأخيرة فى قلوب بنى البشر الذين احتقروه وخالفوا نواميسه الالهية ورفضوا كلمته المكتوبة ويلتفت اليهم برجزه وغضبه أمراً ملائكته إذ يقول لهم اجمعوا الزوان واحزموه حزماً حزماً واطرحوه فى بحيرة النار الى الأبد و يلتفت الى الأشرار ويقول لهم اذهبوا من أمام وجهى الى النار المؤبدة المعدة لابليس وجنوده . اذهبوا ياملاعين . قسيتم قلوبكم فلم ترجعوا الى لأشفيكم . أعطيتكم عيوناً لتبصروا فاعمضتموها وآذانا لتسمعوا فلم تسمعوا . فأننا الآن لا أسمع صراخكم واعمض عين رحمتى عنكم فهلكون من أمام وجهى . كتبت لكم ناموسى فى قلوبكم فحيتموه بآثامكم . وأرسلت لكم مبشرين فاحتقرتموهم . صرت انساناً وكلمتكم بالحبة كما يكلم الاب ابنه فصمتم آذانكم ولم تريدوا أن تسمعوا قولى فتحت لكم باب نعمتى فرجعتم الى الوراء ولم تدخلوا . رفضتمونى ورفضتم انجيلى وكلمتى كلمة الحق . داو يتكم فلم تريدوا أن تشفوا فأظهرت ذنوبكم الآن وأمرت العناصر أن تشتكى عليكم . أحببتهم مبغضى بغضة بى . اتفقتم على صنع الشر لتضطهدونى وأحببتهم ملذاتكم أكثر منى أنا الذى سفكت دمي لأجلكم . اضطراباً اضطربت عليكم وألهمت المبشرين باسمى أن يندروكم فأنذروكم ولم تسمعوا لهم و متم بخطاياكم . فالآن قد صقلت سيفى وهيات قوسى وملأت أناء رجزى وأبعدت رحمتى عنكم فن يخلصكم من يدي أو من ينجيكم من نقمتى أو من يشفع فيكم لدى ؟ رفضتمونى أنا شفيعكم الوحيد وبعتمونى ملذات الحياة القصيرة التى لم أطل أيامكم فيها إلا لتوبوا وتعودوا الى ، وما شفقت على أنفسكم التى اشتريتها بدمى ولا رجعت عن رجاساتكم . أجيبنونى الآن واعطونى حساباً عن كل ما صنعتم . أجيبنوا الآن ماذا فعلتم بنعمتى التى كانت تفرع أبواب قلوبكم ولم تريدوا أن تفتحوا لها . لقد قسيتم قلوبكم وأغلظتم أعناقكم وتمردتم على بأفعالكم

فلو كانت لكم حجة صحيحة لعذرتكم ولكن لا حجة لكم . الآن تدانون بأفعالكم وهي تحكم عليكم بالنار الأبدية التي قد أعدت لأبليس وجنوده « فاذهبوا عنى يا ملاعين الى النار المؤبدة حيث البكاء وصرير الأسنان » . فياها من ساعة مرعبة ، و ياله من يوم يسيل الجماد .

ولننظر الآن كيفية المحاسبة وماهية الدينونة وكيف يدين الله البشر . قال يوحنا الرسول في سفر الرؤيا ، ورأيت الأموات صغاراً وكباراً واقفين أمام اله وانفتحت أسفار وانفتح سفر آخر هو سفر الحياة ودين الأموات مما هو مكتوب في الأسفار بحسب أعمالهم « (رؤ ٢٠ : ١٢) وقال دانيال النبي « كنت أرى أنه وضعت عروش وجلس القديم الأيام . لباسه أبيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه هيب نار وبكراته نار متقدة . نهر نار جرى وخرج من قدمه . ألوف ألوف تحميه وربوات ربوات وقوف قدمه . فجلس الدين وفتحت الأسفار » (دا ٧ : ٩ و ١٠) .

فدينونة بنى آدم ستكون حينئذ بموجب أسفار . قال القديس أوغسطينوس . « الويل لحياة بعض الناس إذا فحصتها يا الهى بحق » وكيف يقوون على الجواب حينما يتكلم عليهم بغضب . ويرجفهم بغيظه (مز ٥ : ٢) وأول أسفار الدينونة هو « الكتاب المقدس » قال السيد المسيح « من ردلنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه . الكلام الذى تكلمت به هو يدينه فى اليوم الأخير » (يو ١٢ : ٤٨) ففى ذلك اليوم يقف المسيح ويسأل كل واحد قائلاً : ماذا عملت بانجيلى هل أطعت التعاليم التى ذخرتها لك فيه هل لهجت بشرائعى ونواميسى هل اتخذتها دستوراً لحياتك وأعمالك . هل جعلتها عمادك وموضوع فرحك وسرورك فى حياتك أم رفضتها ولم تكترث بها واعتبرتها هذياناً . هل أخضعت نفسك لها أو تمردت عليها طوعاً لارادتك وأفكارك . هل أسكنتها فى قلبك كسيد لكى تتسلط عليك وتديرك حسب ارادتها ، أوجعلتها عرضة لتموهاتك وتخريفاتك وتأويلك الكاذبة حسب ميل قلبك الشرير الممتلئ بالغرور . هل اتخذتها سراجاً تستضى به أم آثرت أن تعيش فى الظلام . هل قبلت الكلمة معتبراً اياها خارجه من فى ، قادرة أن تنقى قلبك وتمنحك الخلاص . هل حفظت طرقي ووصاياى وسلكت بموجبها أو أهملت

وأطعت أوامر إبليس عدوك وعدوى؟».

فإن اتخذ الإنسان كتاب الله مصباحاً له وسار مهتدياً به يحصل عنى النجاة .
أما إذا أهمل ذلك الخلاص الذى تكلم به الرب فلا يمكن أن ينجو . سيقف
الكتاب المقدس فى ذلك اليوم ويشتكى على كل من تعده وأهمله ولم يتمم ما
جاء فيه .

وبما أن الديان العادل غير عبي كلمته فسيقضى على أولئك الأشرار بقضاء
كتابه الكريم . ذلك القضاء المريع القاتل «لأنى دعوت فأبيتم ومددت يدي وليس
من يبالي . بل رفضتم كل مشورتى . أبغضتم العلم ولم تختاروا محافة الرب . لم ترضوا
مشورتى . ردلتكم كل توبيخى . فكلوا الآن من ثمر طريقتكم واشبعوا من
مؤمراتكم» (ام ١ : ٢٤ - ٣١) .

و يوجد أيضا سفر آخر يدين به المسيح البشر وهو «سفر الضمير» . ولهذا يقول
الرسول بولس «لذلك أنا أيضا أدرب نفسى ليكون لى دائماً ضمير بلا عثرة من نحو
الله والناس» (اع ٢٤ : ١٦) وقال أيضا «لأن فخرنا هو هذا شهادة ضميرنا»
(٢ كو ١ : ١٢) فانه فى يوم الدينونة سيقف أمام ذلك الديان العادل أولئك الذين
عاشوا بدون أن يعيبوا أو يبرههم وبآخرتهم أو يهتموا بأرواحهم الخالدة وبما يلزم لها
وسيقف بجانبهم ذلك الضمير الذى تعب كثيراً عندما كان يودى وظيفته بين أولئك
الأشرار ، وسيرفع الديان صوته قائلاً «قم أيها الضمير . أيها النائب الجليل واشتك
على هؤلاء الواقفين أمام القضاء» فيقوم الضمير معدداً كل شرور الانسان وكيف
كان يوبخه عليها ، كما قال الرسول «شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها
مشتكية أو محتجة» (رو ٢ : ١٥) .

فإن كان الانسان كافراً يقول له «كثيراً ما أظهرت لك وجود الخالق سبحانه
فى الطبيعة وقوانينها التى صاغها وسنها بقوته فضربتنى وأخذت قوتى» وإن كان
يهودياً يقول له «كثيراً ما كلمتك بجئى المسيح سيدك كما فى أسفار العهد القديم
وقلت لك انه هو الملك الذى اتى الى العالم للخلاص فوضعت يدك على فى

وأسكتنى « وإن كان مسيحياً بالاسم يقول له « أتذكر انى مراراً كنت أظهر لك واجباتك وأوبخك على أعمالك الشريرة وعدم عيشتك بالأمانة لمن مات لأجلك . ألا تذكر انى كثيراً ما كنت أؤنبك على تهاونك بتعاليم الكتاب المقدس وأوصيك بالصلاة وغيرها من الفضائل فكنت تتغاضى عن سماع صوتى وترفض العمل بمشورتي التى كنت أقدمها لك بكل محبة واخلاص » .

وإذا كان من محبى المال يقول له « كثيراً ما كنت أردعك عن السعى وراء المال وأفهمك أن المال يطغيك و ينسيك الهك . وأنت لا تأخذ منه شيئاً يوم تموت فكانت آذانك مسدودة بالذهب والفضة فلم تسمع كلامى » وإذا كان من محبى الشهوات يقول له « مراراً عديدة كنت أبكتك على خطاياك وأقول لك انها مكروهة للرب ، وأنت بذلك تسعى فى طريق جهنم فكنت تضربنى بضربات متنوعة ، مرة بقضيب حب الذات ، ومرة بعضا محبة العالم وأجاده وأخرى بالخضوع لشهوات الجسد حتى أخذت أنفاسى ولم أعد قادراً على الحركة » .

فيقول الديان العادل جواباً على ذلك « أيها الضمير انك لم تقصر فى اتمام واجباتك ولا ذنب عليك ولكنهم هم المذنبون فى عدم اصغائهم لك وفى عدم اتباعهم نصائحك . لذلك قم أيها الضمير وانتقم لنفسك منهم للضربات التى ضربوها لك فى حياتهم الأرضية . تسلط عليهم فى جهنم وكن لهم دوداً لا يموت ينخر فى أحشائهم و يعذبهم بأشنع أنواع العذاب . ثم يلتفت نحو المذنبين و يقول لهم « بما أنكم لم تطيعوا أوامرى ولم تحفظوا عهودى فليمكث عليكم غضبى ولتأكلكم النار الى أبد الابدن » .

والسفر الثالث هو « سفر التوكيل » فعندما يفتح هذا السفر يقول السيد المسيح لكل واحد « اعط حساب و كالتك » (لو ١٦ : ٢) لقد كنت موكلاً على وزنات كثيرة متنوعة . كنت موكلاً على جسم فاذا عملت له ؟ هل حفظت صحته بكل ما فى إمكانك ؟ هل حفظته خالياً من الشوائب أو أسمته بتجرع المسكرات وعرضته بها للتضعضع وارتكاب الأمور التى لا ينتج عنها إلا الضعف وانتهاك القوى ؟

كيف تصرفت بعينيك ؟ هل استعملتها في طريق الطهارة أم النجاسة . هل ظننت أن الغاية من خلقها لم تكن إلا للتمتع بالمناظر المهجة والمراني الجميلة التي تعرض للسقوط في الخطية ؟ أم أنك استعملتها في ما هو لائق وبالأخص في قراءة الكتب التي تهذبك دينياً وأدبياً وترشدك الى معرفة ارادة الله من نحوك ؟

ماذا عملت بلسانك . هل استعملته في الشتم والتلفظ بالألفاظ القبيحة واللقاء الفتن بين الناس والتلفظ بالأغاني المبتذلة والأنغام الشيطانية . أم أستعملته في تسبيح ربك بالنعمة الروحية وفي التكلم مع الآخرين ببشارته ، والى غيرك من الأعمال الحسنة المدوحة .

ماذا عملت بعقلك ؟ هل استخدمته في التفكير في عمل الشر وإيجاد الضغائن وتأليف الكتب والمقالات الكفرية وغيرها من الامور الضارة للعالم . أم استعملته في التفكير في محبة الهك وفي تأليف الكتب التي من شأنها تهذيب الآخرين وفي عمل الخير ونشر أوية السلام بين الناس ؟

لقد وكلتك على روح ، فهل اهتممت بها جيداً ؟ هل اعتبرتها ذات قيمة في نظرك وشعرت انك لا تستفيد إذا رحمت العالم كله وخسرتها ؟ أو أنك عشت كالبهائم التي لا تدرك .

أيضاً وكلتك على أموال ، كثيرة كانت أو قليلة ، فكيف تصرفت بها . هل صرفتها في ملذاتك وشهواتك الدنيوية أم استعملتها في عمل الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين وغير ذلك من الأعمال النافعة .

وأيضاً أعطيتك وقتاً . فكيف قضيته ؟ هل في لعب القمار والجلوس بالمقاهي ومحلات الألعاب الرديئة وغير ذلك من الأمور المفقوتة . أم قضيته في السعي وراء الأمور الضرورية لخلاص نفسك وفي عبادة ربك وعمل مشيئته وخدمة الآخرين !

« أعط حساب وكالتك » هل أحببت الله حباً خالصاً حقاً . هل كنت تقود الناس الى الخير أو الى الشر . كم قتلت بشكوكك وتميمتك وكم أفدأت . كم

اختلست من مال غيرك ؟

« أعط حساب وكالتك » أين وضعت نفسك . أين جعلت صورتك . أين القميص وزنتك ، أفي حماة الزنى الرجسة . أفي نجاسة الفسق ودنس الفجور . أفي لحد النهب والسكر ! أفي قبر الطمع والشراهة .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها المحبون للفضة والبخلاء ، أيها الخطفة والمرابون . أيها الخائثون . أين وضعت قلوبكم ؟ أفي رمس الاحتشاد والاستكثار ! أفي قبر الجور والظلم ! أفي لحد الخطف والنهب .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها الخاقدون . أين وضعت ضمائرکم وأفئدتكم ؟ أفي قبر الوشاية والسعاية ! أفي لحد الاساءة والضرر ! أفي قبر القتل والعداوة !

« اعطين حساب وكالتكن » أيتها النساء الجاهلات المترخيات . أين وضعت قلوبكن ؟ أفي أيدي ابليس المحتال . أفي أيدي السحرة والمنجمين ! أفي التزين والتجمل . أفي تحسين الوجوه بالأدهان واللطوخ وبقية الآلات الشيطانية ! .

« اعطوا حساب وكالتكم » أيها الرعاة الذين سلمت اليكم النفوس لترعوها . أين وضعت عقولكم وقلوبكم ! أفي اتباع نواميسي وشرائع أم في عادات العالم الجاربه . أفي التصرف بارادتي ومشيتي أم في هوى أميالكم البشرية الشريرة فكنتم عشرة للآخرين !

« اعطوا حساب وكالتكم » هل فيكم جميعاً من يحتاج أنه أخطأ جهلاً ؟ أيها الخطاة : لو قلت ذلك لقامت عليكم المنابر وجميع أجراس الكنائس والأسفار الأهمية وخدام الكلمة وكذبوكم لأنهم طالما نصحوكم والتمسوا منكم أن ترجعوا عن غيركم ولكنكم رفضتم المعرفة ولذلك أنا أرفضكم (هو : ٤ : ٦) .

هل تحتج انك حملت على الخطأ مكرها ! هل تقول انك لأجل مولاك أو صاحبك شهدت زوراً أو سرت سرقة أو سعيت في سبيل الاثم ! هل تقول انك لأجل أن تعول عائلتك غالطت في الميزان وغشيت في المكياك ! هل تعتذرايها

الرجل بامرأتك ! هل تعتذرى أيتها المرأة بزواجك ؟ كلا . كلا . أنت بلا عذر أيها الانسان (روم ٢ : ١) لم أترك فى كتابى أى ارشاد إلا وقدمته لكم فلو فحصتموه لعرفتم قوانين هذه الدينونة . لقد سبق أبوكم آدم وستر نفسه بأوراق التين ولكن لم تخف عنى خطيئته فاعتذاراكم لا تستر عيوبكم . أنا فاحص القلوب والكلى . عرفت أن الذى دفعكم الى الشر ليس التخلص من الفقر أو ضغط الآخرين عليكم بل هو ميلكم الفاسد ورغبتكم الشريرة .

قال أحدهم « حينئذ يقول الملص للخاطى لقد رفضتني ورفضت تعليمى . لقد بذلت نفسى من أجلك واشتريتك بدمى فلم أبغضتني مجاناً ؟ مهدت لك طريق الحق لئلا تعثر رجلك . فلماذا عرجت عن طريقى وسلكت فى سلك الذى أفضت بك الى وهدة الهلاك ؟ بشرتك بانجيلى بأفواه عبيدى وبكلمتى المكتوبة . فلم سددت أذنيك ؟ وبماذا تجيب عند ذلك . أن أجبت بالكذب فترى على من تكذب ؟ أتكذب على فاحص القلوب والكلى ؟ وإن أجبت بالصدق فإن وقت التوبة يكون قد فات لأن اليوم هو يوم الدينونة ولا يقبل فيه عذر ولا رجاء . وما أعظم جهل الذى يرفض الآن بشارة الانجيل التى تقود الى الحياة الأبدية و يصنع بيديه آلة هلاكه الأبدى . ويسير على قدميه الى هوة الهلاك مختاراً و يغمض عينيه لئلا يرى النور . ويسد أذنيه لئلا يسمع الحق . وإن قال أحدهم اننى كنت أتخالف شريعة الله وأعرف أننى قد فعلت إثماً ولكن لا أعرف ماذا أصنع لأتبرر فأجيبه . أيها الأخ الحبيب : أما تعلمت منذ صباك الأسفار المقدسة وسمعت كلام الحق ؟ أما تذكر أنك حالمًا بلغت الصبوة أخذ والدك يلقنك لتنتطق باسم يسوع كأنها يريدان أن يرضعاك اياه مع اللبن وكم من مرة رفعاً أيديهما الى السماء متضرعين الى يسوع المسيح من أجلك . ولما صرت فى سن التمييز كم مرة سمعت كلام الله فى بيته وكم عظة بلغت أذنيك . فمن يقبل بعد ذلك عذرك ؟ من يعذر جهلك ؟ ومن يصدق أنك لم تعرف الطريق المؤدى الى الخلاص وأنت مسيحي تهذ ليلاً ونهاراً بتلاوة الانجيل المقدس إن النور الطبيعى عنه كاف لأن يدللك على طريق الخلاص ، والشريعة المطبوعة فى ضميرك تكفى لأن تثبتك على السعى فى طريق الحياة فكم بالحرى إذا كانت الشريعة المكتوبة أمام عينيك الجسدية تثبتك كل يوم وكل

ساعة ، فعذرك من هذا القبيل غير مقبول فانك عرفت جيداً طريق الحق إلا انك لم ترد أن تسلك فيه . وإن قال آخر قد عرفت بشاره الانجيل وتعلمت الأسفار المقدسة منذ صباى ولكن لم أر أحداً يسير بموجبها فلماذا تغاضيت عن أمر الخلاص قائلاً ما إذا إلا واحد من كشيرين و « فى يوم الله يعين الله » فأنأ أجييه قائلاً أيها الأخ الحبيب لقد خدعك الشيطان بهذا الفكر الرديء ليلهيك عن تديير نفسك وتجهيز الاعمال الصالحة ليوم الدين وأنت تعلم جيداً أن لك نفساً واحدة لا غير وفى يوم الحشر ستكون ملزماً أن تقدم جواباً لله عنها وحدها لا عن غيرها فالك إذاً وقر بيك ! هل أقامك الله وكيلاً أو محاسباً على أنفس عبيده ؟ وهل يجازيك بذنوب غيرك ؟ فأنت تقول انك تعرف البشارة المقدسة وقد درست الأسفار الالهية منذ صباك وإن الحق والحياة فيها . أما قال الله لا تدينوا لئلا تدينوا وبالكيل الذى تكيلون به يكال لكم !

فدبر نفسك ياأخى ولا تشغلن أفكارك بما لا يعينك . فكل هذه الأفكار ما هي إلا وساوس ابليس ونتاج قساوة القلب فلا فائدة لك من هذا العذر مطلقاً بل بالعكس تزيد على أثمك بالثيمة التى تتم بها على قريك الذى لست بملزم أن ترد عنه جواباً فى يوم الدين . لأن فى ذلك اليوم كل واحد يقدم جواباً عن نفسه فقط وكل مجرم يحاسب على ذنوبه الشخصية . فهذه الحجج التى تقدمها لتعذر بها عن معصيتك ورفضك النور الالهى باطلة . وأنت تعرف أنك أثمت ولكن أميالك المعوجة وارادتك المتصلبة لا تدعك تعود الى سبل الهداية والحياة . فويل ثم ويل لمن يظن أنه باعتذاراته يقدر أن ينجى نفسه من رجز الله فى يوم النعمة . لأن ذلك اليوم هو يوم الحساب وليس يوم الاعتذار وأنا أكرر القول الويل لمن لا يسمع كلمة الله . الويل لمن يرفض بشاره الانجيل وينشغل بملذات هذه الحياة الفانية التى تزول مع الزمن . ستمدون أيها الخطاة حيث لا يفيد الندم وتعضون البنان تحسراً . سيروا الآن فى طرقكم اللثوية وتناسوايوم الآخرة ، ذلك اليوم الرهيب .. واغمضوا أعينكم عن النور . وأقيموا لأنفسكم حججاً ولكن ستمدون حين تقفون أمام الديان العادل لتعطوا جواباً عن كل ما فعلتم فى دور هذه الحياة عندما تفتح مصاحف ذنوبكم وتراها كل عين . سيروا الآن وابتدعوا لأنفسكم سنناً وشرائع لتفعلوا من طاعة

المسيح الذي حرركم من نير عبودية الجحيم . ولكن ستعلمون في يوم الدينونة انكم قد بنيت على رمل وان جميع أعمالكم ما هي إلا قش تقع عليه نار السعير الدائم فيحترق وأي احتراق .

فبماذا يجب الانسان حينئذ ! لقد أخبرنا الكتاب أن كل الذين كشفت لهم عيوتهم وسئلوا عنها لم يستطيعوا أن يقدموا جواباً . لقد قال ناثان لداود بعد أن أوضح له خطيته : « أنت هو الرجل » فلم يجب بكلمة (٢ صم ١٢ : ٧) ولما وبخ ايليا أخاب الملك لاغتصابه كرم نابوت لم يلق جواباً (١ مل ٢١ : ١٩) ولما وبخ الذي حضر الى العرس وليس عليه ثياب بالقول « يا صاحب كيف دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس » يقول الكتاب « فسكت » (مت ٢٢ : ١٢) هكذا يكون في يوم الدينونة ، ليس للخاطي حينئذ إلا أن يسكت .

وبعد نهاية المحاسبة يتقدم المشتكون والشهود فيقف الشاهد الأول وهو « الشيطان » و يشهد على الخطاة ثم يكشف لك واحد منهم جميع ما صنع من الآثام والشورور معيناً له الوقت الذي ارتكها فيه بالتدقيق وبعد ذلك يصيح قائلاً « إن هذا الانسان صار ملكاً الى لأنه ارتضى في الأرض أن أملك عليه وعمل بوصاياى وأطاع مشورتى فينبغى أن يكون حيث أكون أنا في المكان المعدلى (مت ٢٥ : ٤١) .

ثم يتقدم الشاهد الثاني وهو « الخطايا » ويقف أمام ضمير كل انسان فيرى ما ارتكبه منها مخطوطاً بحروف من نار ويرى كل أنواع قساوته وتشامخه وفخفته وغروره وكل أنواع رجاساته ودعارته وكل نواياه وخفاياه وكأن هذه الخطايا تقول له « بما أنك أحببتنا في الأرض وملت إلينا فلذلك تعلقنا بك الى النهاية وأتينا برفقتك الى هذا المحشد ولا نفارقك الى أبد الابدين » .

ثم يتقدم الشاهد الثالث وهو « كفارة المسيح والفداء الذي اقتدى به البشر » . قال القديس يوحنا ذهبي الفم « إن جراحات المسيح تشهد على ذنبك أيها الخاطي ، ومسامير يديه ورجليه تشككي عليك ، وصلبيه يهتف ضدك » .

قال أحد الأفاضل « ليس غيظ أشد من غيظ الصديق من صديق له خانه أو غيظ الأب من ابن له اهانه ، أو ألم العريس من عروسه إذا خالفت مشيئته لأنه كلما كانت روابط المحبة أمتن وأشد كان الغيظ إذا ما صدرت أمور تتنافى مع هذه المحبة أعظم وأنكى » فإمر التوبيخ الذى يوبخنا به مخلصنا الالهى إذ يرينا صليبه المقدس الذى قد هدرنا نحن كل ثمنه ، و يظهر لنا جراحاته و يذكركنا بدمه الذى سفك من أجلنا . ما أشد الغيظ والغضب اللذين ينظر بها الى الخطاة الذين من أجل خلاصهم قد تحمل أشد صنوف الآلام مدة حياته على الأرض ليعدهم الميراث السماوى المخلد . انه تقدس اسمه سيديهم لأنهم كفروا به ، وبهينهم كما أهانوه ، و ينسأهم كما نسوه . فمن يقف أمام غضبه ؟

وحينئذ يتقدم ملائكة الله ليفصلوا الاشرار من الأبرار ، فيقف الأبرار عن يمين الديان أما الهالكون الأشرار فيحشرون جميعاً على اليسار نظير الجداء المعدة للذبح كما يقول أيوب « انه ليوم السوار يمسك الشرير ليووم السسخط يقادون » (أى ٢١ : ٣٠) وهم ينتظرون الحكم الرهيب الذى يقضى عليهم بالهلاك الأبدى .

اننا هنا نجد الاشرار يحترقون الأبرار و يزدرون بهم فيعيش الخطاة فى سعة وسرور ورحب ، و يعيش المؤمنون فى ضيق و كرب ، ولكن أيها الصديقون لا تحزنوا ، ولا تكتئبوا أيها الابرار فسوف يأتى وقت فيه تقام دعواتكم حيث ينتقم الله من الظالمين وحيث يتحول حزنكم الى فرح (يو ١٦ : ٢٠) أما أنتم يا محبى العالم فهناك بلا ريب تغيرون أفكاركم وتندبون جهلكم . قال الكتاب واعدأ البار « إنما بعينيك تنظر وترى مجازاة الأشرار » (مز ٩١ : ٨) وقال أيضاً « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها ... وتدوسون الأشرار لأنهم يكونون رماداً تحت بطون أقدامكم » (ملا ٤ : ٢ و ٣).

فحينئذ يتبدل الحال و يتغير فمن كان عالياً ينحط ، ومن كان منخفضاً يرتفع . ووقتئذ يقوم هابيل زاجراً أخاه التبعس قايين ، و يلتفت يوحنا المعمدان الى هيرودس مبكثاً ومعسفاً وهكذا يقوم المظلومون على الظالمين والمحترقون على العظماء . نعم يقوم موسى على فرعون . و نابوت على أخاب . و ايليا على ايزابل .

وداود على شاول . هناك يتقدم هيرودس ليحازى على ما صنع وتلتهب أعضاء نيرون بنار غضب القدير . أما بولس فيطلب لكى يأخذ الاكليل الذى أعده الله للذين يحبونه . وبطرس يتقدم ليستلم الميراث الذى لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ لأجله فى السماوات « طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون ... ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم .. ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون . ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » (لو : ٦ : ٢٠ و ٢١ و ٢٤ و ٢٥) .

عند ذلك لا يجد الأشرار مفرأ من العقاب ولا مهرباً من العذاب لأنه « خيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٣١) فلا يستطيع الخاطى أن ينظر شيئاً لأن الديان نفسه هو العارف والشاهد (أر ٢٩ : ٢٢) ولا يكون له أى وجه فى نقض الحكم والتماس اعادة النظر فيه لأن الله يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد « (١ بط ١ : ١٧) وبالأجمال يقفل دونه كل باب وينتزع منه كل رجاء ويحل به اليأس المفرط . أما الأبرار الصديقون فانهم يكونون على حال من السرور والانشرح أجل من أن توصف « بهذا تكلمت المحبة فينا أن يكون لنا ثقة فى يوم الدين » (١ يوح ٤ : ١٧) ثم يلتفت يسوع اليهم جميعاً بوجه يعلوه السرور ويخاطبهم بكلمات رقيقة حلوة قائلاً لهم « تعالوا يامباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) وهكذا فى وسط الأصوات المبهجة والتراتيل اللذيذة يصعدون بجلال فوق الكواكب ويستون على عروش المجد الى أبد الدهور .

فهيأ أيها الأبرار هيئوا ذواتكم للسعادة الدائمة ، انهضوا لها فقد آن الأوان لتكفلوا بعد انتهاء الجهاد . ابصروا المسيح الذى تاقت نفوسكم اليه . هيأ فعاينوا مملكته التى أعدها لكم . هيأ فأبصروا الرب الذى أحبكم وأحببتموه وافرحوا معه فرحاً لا يوصف وليس ينزع أحد فرحكم . هلموا فتمتعوا بالخيرات التى لم ترها عين ولم نسمع بها أذن ولم تخظر على بال انسان .

حينئذ يقول البار بأعلى صوته « ما أجهل هذا الملك العجيب الذى شراه لنا

المسيح بدمه الثمين؟ يالها من محبة عظيمة أن يكون هذا ثمرة الايمان وآخرة عمل الروح! هل ساقنتنى رياح النعمة فأوصلتني الى هذا المرفأ الأمين؟ ألهذا المجد الفائق كان يقتادنى المسيح؟ يالها من طريق مباركة وآخرة سعيدة، هذا هو المجد الذى تسكلم عنه الكتاب وكرز عنه الخدام، الآن أرى أن الانجيل هو بشارة مفرحة لجميع الشعب. أياأتى بى نوحى والآمى وتعبى وانينى وهزه العالم بى الى آخره، هذه أمجادها! ويحك أيتها الطبيعة يا من قاومت هذه البركات، ويحك أيتها النفس غير المستحقة لهذا المجد كم كنت تأبين السير نحوه؟ ويحك أيها القلب الخداع كم كنت تريد أن تسلمنى الى اللهب الأبدى وأن تحرمنى من هذا المجد! ويحك أيها الجسد الساقط كم كنت تطمع فى الملمات لتحرمنى هذه السعادة العظمى! أما كنت تحضنى على ركوب متن الشر لأبتعد عن الاستقامة؟ أما كنت تجرنى الى الشك والريب؟ ويا نفسى إلا تمتنعين خجلاً من طمعك فى الابتعاد عن الحق الذى لولاه ما جننت الى هنا؟ ألا تحجلين إذ كنت تملصين من محبة القدير؟ ألا تحجلين إذ كنت تفكرين بأمور رديئة عن الله؟ ألا تحجلين من عزمك سابقاً على الهروب من العناية الالهية التى لولاها ما وصلت نهاية هذه الطريق. والآن إذ أنت مقتنعة أن الطريق التى كنت تسميها «صعبة» والكأس التى كنت تقولين أنها «مرة» إنما كانتا ضروريتين لك وان الله قصد بها خيرا، فقد كان يصلب أشواقك ويكسر قلبك ويجبره، كل هذا لخلاصك فالفضل لنوالك هذا الاكليل ليس راجع اليك، ولكنه راجع الى يوه والحمل الى الأبد».

ثم يلسف الديان نحو الأشرار بوجه يتقد غضب و يناديهم بصوت الانتقام « اذهبوا عنى ياملاعين الى النار الأبدية المعدة لأبليس وملائكنه » (مت ٢٥ : ٤١) وهذا الحكم يتضمن عقابين : الاول « اذهبوا عنى عقاب الخسران والثانى « الى النار الأبدية » وعقاب الخواس . فهو يقول لهم اذهبوا عنى أنا الحكم الذى منى خرجتم والى مضيركم ، اذهبوا عنى أنا الذى تجسدت وتألمت لأجلكم ولم تقدرؤا ذلك ، اذهبوا عنى أنا الذى طلبتكم بالحاح لترجعوا الى فلم تسمعوا الى نصحى .

اذهبوا عنى وعن ملائكتى وعن قديسى وعن سمائى . اذهبوا عنى لا لتعودوا الى الارض لتنعموا ثانية ، بل الى النار الأبدية لتعذبوا الى الأبد « فيكون عوض

الطيب عسفونة ، وعض المنطقة حبل ، وعض الجداول قرعة وعض الديداج زنار
 مسح وعض الجمال كسى « (اش ٣ : ٢٤) « أحببت اللعنة فأنتكم ولم تسروا
 بالبركة فتباعدت عنكم فليستم اللعنة مثل ثوب فدخلت كمياه فى أحشائكم
 وكزيت فى عظامكم . لتكن لكم كتوب تتعطفون به وكنطقة تمنطقون بها دائما
 هذه أجرة مبغضى من عند الرب وأجرة المتكلمين شراً على نفسى «
 (مز ١٠٩ : ١٧ - ٢٠) « اذهبوا عنى يا ملاعين » ملاعين من قبل أبى الذى
 أحسن اليكم ، ملاعين من قبلى أنا الذى فديتكم ، ملاعين من الروح القدس
 الذى رفضتم دعوته . ثم يأمر ملائكته قائلاً خذوهم من أيديهم وأرجلهم واطرحوهم
 فى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، فيتقدم الملائكة لتنفيذ
 أمر سيدهم فيحملون الخطاة الى النار الأبدية و يسوقونهم أمام أعين الصديقين
 فتنشق الأرض وتفتح جهنم جوفها فتبتلعهم و يغوصون فى لججها الى الأبد ، ويتم
 بذلك قول داود النبى « مثل تنور نار فى زمان حضورك . الرب بسخطه يبتلعهم
 وتأكلهم النار » (مز ٢١ : ٩) .

قال علماء الطبيعيات وعلى الأخص بلوطرخس الحكيم « إن الصاعقة حينما تقع
 تسحق الأشياء الصلبة القاسية وتطحنها وأما الأشياء اللينة الرخوة فلا تضرها
 ولا تؤذيها » وسيكون هذا الأمر بعينه فى الدينونة الرهيبة ، فإن الديان العادل يزعج
 الخطاة غير الثائنين المتكبرين القساة . أما المتواضعون والثائبون فيرق لهم
 ويرحمهم . فحينئذ يتعذب الأشرار إذ يذكرون تنعمهم . ويقولون لأنفسهم مع
 الغنى الذى رأى لعازر المسكين مجدداً بينما هو معذب « لقد خدعنا أيتها النفس
 الرديئة ، حببتى لنا اللذة لتقودينا الى الهلاك الأبدى فياويلنا ويا لشقاوتنا » .

قال متى : أيتها النفس الشقية تلبثين فى قساوتك وفى عصيان الهك وهذه
 الدينونة المريعة تنتظرك ، علينا إذن أن نستعد لأحاديث غضب الديان بأيماننا الصحيح
 المشمر اعمالاً صالحة . ما بالنا نبكى على موتانا بكاء حاراً ولا نلحظ الى نفوسنا
 المنفصلة عن الله ولا نندبها ونرثها . فلنسكب دموعاً غزيرة على خطايانا لنستطيع
 أن نطفى بها اللهب المشتعل المعد لكل نفس تموت بخطيئتها .

الفصل الثالث والعشرون فى افتضاح المنافقين

« هانذا عليك يقول رب الجنود فما كشف أذيانك الى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والمسالك

خزيك » (تاجوه ٣ : ٥)

إن كثيرين من المؤمنين يؤمنون إيماناً لفظياً لا غير . فهم يتكلمون عن الايمان وينادون بالايمان و يعطون بالايمان ولكنهم بلا ايمان فى أنفسهم من الداخل ، وقال عن أمثال هؤلاء بولس الرسول « لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ما كرون مغبرون شكلهم الى شبه رسل المسيح . ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك نور فليس عظيماً إن كان خدامه أيضا يغيرون شكلهم كخدام للبر الذين نهايتهم تكون حسب أعمالهم » (٢ كو ١١ : ١٣ - ١٥) .

وقد أوضح السيد المسيح انكشاف أمرور ياء المسيحى الخائن فى اليوم الأخير كما يظهر ذلك من قصة العبد الكسلان المذكور فى انجيل لوقا ص ١٩ ذلك العبد الذى عوضا عن أن يتاجر بالوزنة التى أعطيت له لفها بمنديل وطمرها . ولما جاء يوم الحساب جعل يعتذر عن تهاونه وخيانتة بحجج باطلة فارغة لا تجديه نفعاً ، ولذلك حكم عليه سيده حكماً صارماً عنيفاً . ولا يخفى إن هذا العبد هو كناية عن جميع الاشرار المنافقين . والحكم الصارم الذى صدر ضده عبارة عن عاقبتهم الخيفة ومصيرهم الشنيع فى يوم الدينونة كما قال الكتاب « ويميت المنافق بنفخه شفتيه » (اش ١١ : ٤) .

فلا ينبغى أن يبرح من بالننا مصير الأشرار الخيف ونهايتهم المؤلمة حيث لا يفيدهم الرياء والادعاء بالتقوى ولا المظاهر الكاذبة التى يصورها نار غضب

القدير، نعم إن كثيرين من المسيحيين بالاسم في هذه الحياة لهم صورة التقوى ولكنهم ينكرون قوتها (٢تى ٣: ٥) وكثيراً ما يتكلفون اظهار الصلاح والفضيلة ويتظاهرون أمام الجميع كأنهم أتقياء صالحون السيرة قديسون وقد تنطلي هذه الخيل والخداعات الباطلة على البشر الذين لا يعرفون من الانسان إلا ظواهره، ولكن مهما اغتر البشر في أمثال هؤلاء ومهما شهدوا لهم بالصلاح والتقوى فانه في اليوم الأخير سيفضحهم كاشف الحقايا والأسرار كلها العارف بما تكنه القلوب وما تطويه الصدور. لأنه ليس كما ينظر الانسان لأن الانسان ينظر الى العينين وأما الرب فانه ينظر الى القلب (١ صم ١٦: ٧) فالله سيظهر حقيقة الانسان المنافق لجميع البشر في ذلك اليوم فيسطر خطاياهم أمامه بحروف من نار حتى يراها جميع الناس فيسند هشون ويقولون «أهذا الذي كنا نظنه ملاك نور؟» ولذلك يعلمنا الكتاب أن الرعدة تأخذ المنافقين (اش ٣٣: ١٤).

إن كثيرين تراهم يمزجون أنفسهم بأولاد الله حيث لا يمكنك تمييزهم منهم وهم أشبه بالزوان الذي يثبت مع الحنطة (مت ١٣: ٣٦) وكما أن الزوان لا يفرز عن الحنطة إلا في يوم الحصاد هكذا هؤلاء المرأون يبقون مختلطين بالمؤمنين حتى يوم الحساب حيث تصيح القلوب معلقة فوق الرؤوس والأعمال ظاهرة مكتوبة بحروف من نار يقرأها جميع البشر. لأن في هذا اليوم يدين الله سرائر الناس (رو ٢: ١٦) وقد شبه الرسول يهوذا هؤلاء بغيوم بلا ماء وبأشجار خريفية بلا ثمر (يه ١٢).

إن الهيئة المنظورة في هذا العالم هي كشبكة الصياد التي تجمع السمك من كل نوع (مت ١٣: ٤٧) هكذا هي تجمع البار مع الشرير وقد نجد كثيرين من الأشرار نظنهم من أولاد الله وقد نحكم كثيراً على بعض أولاد الله بأنهم ليسوا بمؤمنين، ذلك لأننا نرى أولئك المنافقين المدعين بالدين والصلاح لا يتركون عملاً صالحاً إلا أتوه ولا أمراً مبروراً إلا مارسوه، فيصلون مع المصلين و يصومون مع الصائمين ويحسون مع المحسنين ولكن إذا استجلينا كنههم وجدناهم أبالسة وشياطين كالذين قال لهم السيد «أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس ولكن الله يعرف قلوبكم أن المستعلى عند الناس هو رجس قدام الله» (لو ١٦: ١٥) ولهذا يقول الرسول بولس

« إذا لا تحكموا فى شئ قبل الوقت حتى يأتى الرب الذى سينير خفايا الظلام و يظهر آراء القلوب و حينئذ يكون المدح لكل واحد من الله » (١ كو ٤ : ٥).

كم من شفيتين باسميتين تنطويان على قلب دنس و نفس فاجرة ! كم من ظاهر مشرق بنور البر و الطهارة يخفى داخله نية خبيثة !

كم من لطف منظور و حياء ظاهر يغطى شرارة فتن و دسائس !

آه لو أعطى لنا كشف ما يجرى « داخل المخادع » لوقفنا على حوادث مريعة كافية لأن تصعقتنا لا سيما من الذين نظهم كملائكة الله الذين يتخذون الدين ستاراً و التقوى حجاباً يخفون بها ما يرتكبون من المعاصى و الفجور .

« ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات » (مت ٧ : ٢١) قال قسيس شيخ و هو قريب من الموت « اننى أتوقع إن سأرى فى السماء من لم أظنهم يدخلونها و أن لا أرى بعضاً ممن حسبتهم من أخص أهلها » اننا أيضاً سنتعجب فى السماء عندما نرى الحقيقة هكذا فليس كل من يقول يارب يدخل الى هناك ، و يدخلها كثيرون من الذين لم يتظاهروا بمظاهر التقوى و لكنهم سقوا كأس ماء بارد لتلاميذ المسيح و عاشوا عيشة أهل الايمان منتظرين رحمة الله .

أجل . كما أن الأشجار المثمرة يبرز من باطنها الثمر مع الورق فى أوان الاثمار هكذا فى ذلك اليوم المرهوب تبرز كافة الأشياء التى عملها الناس صالحة كانت أم خبيثة ، و يحمل كل واحد أمام مجلس قضاء الحاكم الرهيب عمله كثمر و كلامه كورق « فليس مكتوم لن يستعلن و لا خفى لن يعرف . لذلك كل ما قلموه فى الظلمة يسمع فى النور و ما كلمتم به الأذن فى المخادع ينادى به على السطوح » (لو ١٢ : ٣ و ٢) ستظهر حينئذ الخطايا التى أخفيت و الآثام التى سترت و الأفكار التى يظنها الناس قد مرت فى ساحة المحيطة و رضى بها القلب ملتذاً ثم عبرت .

كم من كثيرين يرتمون فى مضاجعهم و يفتحون باب فكرهم لأمر رديئة تطرقه و هم مطمئنون لأنه ليس من سبيل لأحد أن يكشف ما يفكرون فيه و لكنهم يتعجبون عندما يرون هناك أنها لم تكن خافية على اله السماء و الأرض و يخزون عندما

يبرونها تتراعى أمامهم كأنهم فكروا بها أمس فقط كم من خطايا ارتكبا الانسان ونسيها وأهلها ولم يعد يفكر فيها سوف يراها مكشوفة أمامه كأنه لم يمض زمن على ارتكابها اياها فبم قول الكتاب « منه ترتعد الشعوب . كل الوجوه تجمع حمرة » (يو ٢: ٦).

كم من الشرور مكتومة . كم من الرذائل مخفية ، كم من الأثمة لا يعرفهم أحد ، كم من انسان يلبس ثوب الرياء و يغطي بد فساده و يظل محتفظاً بهذا الثوب الذى يحرص عليه لامعاً براقاً الى أن يمثل أمام العدل الالهى ، وحينئذ تتقدم تلك اليد القادرة وتشق هذا الثوب ليظهر ما اختفى تحته من دنس وفجور ورداءة .

فهناك يشير الديان الى رجال كثيرين ممن كانوا يظهرن بمظهر التقوى و يقول إن من هؤلاء من كان زانياً ومن كان سارقاً ومن كان كاذباً قبيحاً و يشير الى كثيراً من اللواتى ظهرن بملابس الحشمة والوقار و يصرح بأن منهن من كانت شريرة ومن كانت خبيثة حسودة ، وهكذا ينكشف ما كان مخفياً و يظهر ما كان مطويماً ولا يستطيع أحد أن يصف مقدار الخجل الذى يستحوذ حينئذ على المرأين .

قيل إن فناة سقطت فى اثم الدنس مع شرير ولما حملت منه ارتاعت عند تأملها فى ما سيصيبها من الخجل امام أهلها وامام الناس عندما يأتها المخاض فأرسلت واستدعت الفتى الذى أثمرت معه وطلبت منه إن يقتلها فأحضر لها كأساً مسمومة فشربتها وماتت تخلصاً من العار .

فإذا كان خوف الانسان من أن تشهر خطاياها فى بيته أو مدينته عظيماً بهذا المقدار . وخشيته من أن يشير اليه الناس و يقولون عنه كلما رأوه بأن هذا هو الأثيم لا يستطيع وصفها ، ورعبه من أن ينفذ الناس من حوله بهذا المقدار لاشتهار شره جسيماً جداً . فإذا يكون شأنه حينما ينكشف أمره لا أمام أهله وأهل مدينته فحسب بل امام الخليقة بأسرها . لا عجب إن صح فيه قول أرميا النبى « قد سمعت الأمم بخزيك وقد ملأ الأرض عويلك » (ار ٤٦: ١٢).

قد يمكن هنا أن نستخدم وسائل من الخيل والحذاء لنخفى بها عيوبنا عن

الناس ولكن هل نستطيع أن نخفيها عن الله؟ هوذا القديس باسيليوس يقول «إن الخجل الذى يرافق الهالكين دائماً و يستمر معهم هو أربع جداً من النار التى يصلونها» وقال الكتاب «يلبس مبغضوك خزيًا» (أى ٨ : ٢٢) وقال أيضاً «يلبس خصمائي خجلاً وليتعطفوا بخزيهم كالرداء» (مز ١٠٩ : ٢٩) وقال أيضاً «فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التى خانوني اياها» (جز ٣٩ : ٢٦).

إن البشر يظنون هنا أن الله متغافل عن شرورهم لأنه يؤخر عقابهم إلا أنهم سيعلمون فى يوم الحساب أنه كان يطلع عليهم و يعدد ذنوبهم وهوذا أرميا النبى يقول «القلب اخدع من كل شئ وهو نجيس من يعرفه أنا الرب فاحص القلب مختبر الكلى لأعطى كل واحد حسب طرقة حسب ثمر أعماله» (ار ١٧ : ٩ و ١٠) يعيش الخاطئ الآن فى ظلام وكأنه لا يرى خطاياہ ولكن الله فى اليوم الأخير سيلاشى هذا المظلام و يظهر النور فى وسط قلب الخاطئ ليرى تفاقم شر الخطية الذى كان يستخف به و يحسبه كلاً شئ ولهذا يقول المخلص «ها أنا أتى كلص . طوبى لمن يسهر و يحفظ ثيابه لئلا يمشى عرياناً فيروا عورته» (رؤ ١٦ : ١٥).

أجل أن هذا الرياء وذاك النفاق سينكشفاً و يفضح أمرهما وأولئك المتظاهرون بالفضيلة ستظهر حقيقة حاهم ، ولا أدل على هذا أكثر مما كتب فى احدى سير الأباء . ذلك أن راهباً من الأتقياء الصالحين أخذ ذات ليلة يتأمل فى حقيقة الدينونة و يمعن النظر العقلى فى قول رسول الأمم الى أهل غلاطية «ولكن ليمتحن كل واحد عمله وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره . لأن كل واحد سيحمل حمل نفسه» (غلا ٤ : ٥) وفى قوله لأهل رومية «الذى سيجازى كل واحد حسب أعماله» (رو ٢ : ٦) وفى قول داود النبى «لأنك أنت تجازى الانسان كعمله» (مز ٦٢ : ١٢) وفى قول سليمان «أفلا يفهم وزن القلوب وحافظ نفسك ألا يعلم فيرد على الانسان مثل عمله» (أم ٢٤ : ١٢) وفى قول ارميا النبى «أنا الرب فاحص القلب مختبر الكلى لأعطى كل واحد حسب طرقة حسب ثمر أعماله» (ار ١٧ : ١٠) وقول المسيح «فإن ابن الانسان سوف يأتى فى مجد أبية مع ملائكته وحينئذ يجازى كل واحد حسب عمله» (مت ١٦ : ٢٧) فاستغرق الراهب متأملاً فى هذه الأقوال الرهيبة نحو

ساعتين متواليتين ثم انتقلت أفكاره الى ما يوافق ذلك من الأقوال الالهية مثل قول
 الأمثال «لأن طرق الانسان أمام عيني الرب وهو يزن كل سبيله» (أم ٥ : ٢١)
 وفي قوله «كل طرق الانسان نقيية في عيني نفسه والرب وازن الأرواح»
 (ام ١٦ : ٢) وقول الجامعة «لأن الله يحضر كل عمل الى الدينونة على كل خفى
 إن كان خيراً أو شراً» (جا ١٢ : ١٤) فازداد قلقه وأرقه وأخذ يقول في نفسه
 ما أصعب ذلك اليوم وما أشد هوله ! كيف يحمل الانسان حمل نفسه ولا يساعده في
 ذلك الحمل أحد . فطوبى لمن استطاع أن يخفف هذا الحمل بالتوبة النقية
 والأعمال المرضية والاتكال على بريسوع ، وليس على بره الذاتى لأن بر الانسان
 مهما كان فهو أنجس من خرقه الحائض . وقد سبج في هذه الأفكار كما يسبج
 الانسان فى بحر زاخر لا أول له ولا آخر فعلم عليه النعاس ونام نوماً عميقاً وإذ
 شغلت هذه الأفكار ذهنه سببت له حلماً عجيباً وهو انه تصور نفسه منتقلاً بالروح
 الى حيث يدان كل انسان بعد موته فى يوم الدينونة الرهيب ، فرأى المسيح جالساً
 على منبر العدل وعند كرسيه ملاك يمسك بيده ميزاناً ، ورأى الأرواح تمر أمامه
 وكل منها يحمل كيسين أحدهما مكتوب عليه (كيس الأعمال الصالحة) والثانى
 مكتوب عليه (كيس الأعمال الشريرة) ثم رأى الملاك يأخذ الكيسين ويضعهما
 فى كفتى الميزان فإذا رجحت كفة الأعمال الصالحة يصدر الديان حكمه بادخال
 النفس الى فردوس النعيم حيث الهناء المقيم والسعادة الأبدية ، وإذا رجحت
 بالعكس كفة الأعمال الشريرة فإنه يصدر فى الحال حكمه بطرح تلك النفس فى
 النار المؤبدة المعدة لأبليس وجنوده .

وبينما هو مندهش من هذا المنظر رأى سيدة جميلة تظهر على هيئة النبالة
 والحشمة ويتجلى عليها الشرف والوقار ، وتأمل فى الكيسين اللذين تحملهما فرأى
 كيس الأعمال الصالحة أعظم من كيس الأعمال الشريرة وأكبر منه كثيراً جداً
 فانشرح صدره وتهلل وجهه بالفرح وقال حقاً إن هذه السيدة ستنال السعادة الدائمة
 ولكن بالشدة استغرابه و بالفرط دهشته فانه لما وضع الملاك الكيسين فى كفتى
 الميزان رجح الكيس الاصغر فى الميزان وارتفع الكيس الآخر الكبير الحجم الى فوق
 كأنه لم يكن . وفى الحال أصدر القاضى حكمه العادل بشجب تلك الامراة التعيسة

وطرحها في الظلمة البرانية حيث البكاء وصرير الاسنان . قال الراهب صاحب
الجلسم : فلما ازدادت حيرتى تجاسرت وتقدمت نحو الملاك وسألته كيف أن ذلك
الكيس الحقيقير الصغير يرجع في الميزان على الكيس الكبير؟ فقال لى تقدم أياها
الانسان وانظر الى ما بداخل كل من الكيسين فتفهم السبب . قال ذلك وفتح اولاً
الكيس الكبير فوجدته مفعماً بأكياس صغيرة مكتوباً عليها العناوين الآتية
(صلوات . تاملات . اعترافات . مناولات . صدقات . زيارة مرضى . عيادة
مسجونين . كساء عراة . اطعام جياع . تربية أيتام . اعالة أرامل . سماع عظات .
حضور قداسات) وما شاكل ذلك من أعمال الخير . فازددت اندهاشاً وحيرة ولم
أفهم كيف إن أعمالاً عديدة كهذه كلها صالحة وتقوية لا تكون راجحة في كفة
الميزان الالهى واضطربت أفكارى وتغير لونى وكدت أشك فى عدالة الله . فقال لى
الملاك لا تستعجب ولا يعترينك أقل ارتياب فى عدالة الرب الرؤوف الرحيم ، ثم
فتح الكيس الآخر فأرانى صرة صغيرة مكتوباً عليها (نفاق ورياء) وقال اعلم أن
جميع أعمال هذه السيدة لم تكن صادرة عن محبة فى يسوع المسيح لأنها ما كانت
تعمل عملاً خيراً إلا بقصد الافتخار والتباهى واستجلاب المدح من الآخرين .
أو لأجل الربح الذاتى فاستوفت بذلك أجرتها فى حياتها لأنها لم تسمع لقول القادى
فى وجوب عمل الصدقة فى الخفاء .

فتذكرت حينئذ ما قيل فى كلمة الوحى عن النفاق والرياء من أنه من صفات
الأشرار إذ قيل « قد حرثتم النفاق حصدم الاثم أكلمتم ثمر الكذب »
(هو ١٠ : ١٣) وقيل « وأعاقب المسكونة على شرها والمنافقين على اثمهم »
(اش ١٣ : ١١) وقد حذرنا المسيح منه إذ قال « تحرزوا لأنفسكم من خمير
الفريسيين الذى هو الرياء » (لو ١٢ : ١) وقال لنا بلسان رسله إن المحبة يجب أن
تكون بلا رياء (رو ١٢ : ٩) وكذلك الايمان (١ تى ١ : ٥) والمحبة الأخوية
(١ بط ١ : ٢٢) وأن على المسيحى الحقيقى إن يطرح كل مكروور رياء
(١ بط ٢ : ١) وإن المرئين يقطع نصيبهم من الملكوت .

تذكرت ذلك فعلمت أن السيدة المذكورة قد استحققت المجازاة عدلاً بطرحها فى
البحيرة المتقدة بالنار . ولما استيقظت من نومى كنبت أحلامى عساها تنفع كل من

يقراها و يسمعها . فياليتنا نتجنب فعل ذلك الفريسي الذى وقف يصلى و يقول اننى لست مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين ولا مثل هذا العشار . وليتنا نفتدى بالعشار الذى لما دخل الهيكل لم يشأ أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلاً اللهم إرحمنى أنا الخاطئ ، ونقول مع عزرا « اللهم أنى أحجل وأخزى من أن أرفع يالىهى وجهى نحوك لأن ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا واثامنا تعاظمت الى السماء » (عز : ٩ : ٦) .

كثيرون يجعلون عبادتهم مجرد فلسفة كلامية وفصاحة منطقية فيلقون المواعظ المؤثرة ويخطبون الخطب الرنانة ولكنهم لا يصدرون ذلك كله إلا من الشفتين وأما القلب فمشغول بأمر أخرى ولذلك يقول الكتاب « لئلا أجردها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها » (هو : ٢ : ٣) .

كم من الكهنة وخدام الكلمة والوعاظ الذين يلبسون الملابس السوداء المحتشمة ويمسكون بأبيادهم الصلبان الذهبية و يضعون على صدورهم القرايين والأناجيل ينكشف حالهم فى يوم الدين وتكون لهم هذه الادعاءات والمظاهر المصطنعة ناراً حامية تصلى أجسادهم وتحرق صدورهم . قال السيد المسيح عن أمثال هؤلاء إن كل أعمالهم يعملونها لكي ينظرهم الناس فيعرضون عصائبهم و يعظمون أهداب ثيابهم .. ولعله يطيلون صلواتهم « (مت ٢٣ : ٥ و ١٤) وقد شبههم بالقبور المبيضة (عدد ١٧) أولئك الذين اتخذوا الدين سلعة يتاجرون بها على عقول الناس ، الذين لم ينخرطوا فى سلك الخدمة الدينية إلا لما ضاقت فى وجههم سبل الخدمة العالمية وصاروا للغير قذوة رديئة ومثالاً سيئاً و بذلك يضاعفون عقابهم و يذخرون لأنفسهم غضباً ليوم الغضب ويحل بهم الهلاك الذى توعده الرب الرعاة غير الأمانة الذين بأفواههم ييساركون وبقلوبهم يلعنون (مز ٦٢ : ٤) الذين يقولون « الرب لا يرانا . الرب قد ترك الأرض » (حز : ٨ : ١٢) هؤلاء الذين يشربون السيد بقوله : اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق . فانى أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرّون بعدما يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب وابتدأت تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين يارب يارب افتح لنا يوجب و يقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم . حينئذ تبتدون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت فى شوارعنا . فيقول لكم

لا أعرفكم من أين أنتم تباعدوا عنى يا جميع فاعلى الظلم (لو ١٣ : ٢٤-٢٧) وقوله « كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب أليس باسمك تنبأنا وبأسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة فحينئذ اصرح لهم انى لم أعرفكم قط . اذهبوا عنى يا فاعلى الاثم » (مت ٧ : ٢٢ و٢٣).

وقد علمنا الأنجيل المقدس اننا إذا صلينا أو صمنا أو تصدقنا فيجب إن لا نكون كالمراثين الذين يعملون هذه الأمور فى الشوارع لكى يظهروا للناس بل يجب علينا أن لا نعرف شمالنا ما تفعل يميننا ونباشر الفضائل فى الخفاء وأبونا الذى يرى فى الخفاء يجازينا علانية (مت ٦ : ١-٨) لأن الحكم فى يوم الدينونة سيكون على ما تكنه القلوب لا على ما تخرجه الأفواه فباطلاً نتكلم إذا كنا لا نعمل . لقد كان بنو اسرائيل يعبدون الله هذه العبادة ولكنه رفضها وسد أذنيه عن سماع صلواتهم وقال « لأن هذا الشعب قد اقترب الى بغمه وأكرمنى بشفتيه وأما قلبه فأبعده عنى » (أش ٢٩ : ١٣) وقال أيضاً حزقيال « وياتون اليك كما يأتى الشعب ويجلسون أمامك كشعبى و يسمعون كلامك ولا يعملون به لأنهم بأفواههم يظهرون أشواقاً وقلوبهم ذاهب وراء كسبهم » (حز ٣٣ : ٣١).

إن الرب يبكره الرياء لأن المراثى ينسب الى الله الجهل كأنه انسان يرضه الأكرام بالشفتين ولا يعرف ما فى القلب . والكتاب يعبر لنا عن الله إن له عينين كلهيب نار (دا ١٠ : ٦ ورؤ ١٩ : ١٢) و يقول عنه أيضاً « وليست خليقة غير ظاهرة قدامة بل كل شئ عريان ومكشوف ليعينى ذلك الذى معه أمرنا » (عب ٤ : ١٣).

فليعلم كل واحد إن اعترافه الظاهر بالدين بغمه لا يضمن له الخلاص ولا يكفل له النجاة إنما القلب المتخشع المتواضع هو مسكن الله وهيكله الحى . وهو سيؤثره على عمود السحاب والنار والمسكن وقدس الأقداس . فهوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الها لهم (رؤ ٢١ : ٣) وقال المرتل « لأنه هو يعرف خفيات القلب » (مز ٤٤ : ٢١).

الفصل الرابع والعشرون في صعوبة الانفصال الأبدى

« فيمضى هؤلاء الى عذاب أبدي والأبرار الى حياة أبدية » (مت ٢٥ : ٤٦)

قد عبرت الكتب المقدسة عن التمييز بين الأبرار والأشرار في اليوم الأخير بعبارات مختلفة :—

أولاً : بتمييز المعادن المختلفة . والى ذلك أشار الرسول بولس بقوله « ولكن إن كان أحد يبني على هذا الأساس ذهباً فضة حجارة كريمة خشباً عشباً قشاً فعمل كل واحد سيصير ظاهراً لأن اليوم سيبينه لأنه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو » (١ كور ٣ : ١٢ و ١٣) .

ثانياً : بتمييز التبن من الخنطة كقول يوحنا المعمدان « الذي رفشه في يده وسينقى بيده ويجمع قمحاً الى المخزن وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » (مت ٣ : ١٢) .

ثالثاً : بتمييز الراعى الخراف من الجداء بقوله « فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار » (مت ٢٥ : ٣٢ و ٣٣) .

رابعاً : بتمييز الزوان من الخنطة حيث يقول « دعوهما ينميان كلاهما معاً الى الحصاد وفي وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولاً الزوان واحزموه ليحرق . وأما الخنطة فاجعوهما الى مخزني » (مت ١٣ : ٣٠) .

خامساً : بتمييز السمك الجيد من الرديء بعد اجتماعها في شبكة واحدة بقوله «وجمعوا الجياد الى أوعية . وأما الأردياء فطروحها خارجاً . هكذا يكون في انقضاء العالم . يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار» (مت ١٣ : ٤٨ و ٤٩).

إن الأشرار شديداً الرغبة في الالتصاق بالأبرار ليخفوا بمصاحبتهم ما هم عليه من اثم ونفاق وقد يحاولون أن يخفوا شرورهم عن الناس لكي لا ينفصوا من حولهم . فكم اذن يكون الافتراق صعباً عليهم حينئذ يأتي ملائكة الله ويخرجونهم من بين الأبرار فيقولون للخاطي «أية خلطة للبر والاثم . وأية شركة للنور مع الظلمة . وأى اتفاق للمسيح مع بليعال . وأى نصيب للمؤمن مع غير المؤمن . وأية موافقة لهيكل الله مع الأوثان» ويقولون للأبرار «فانكم أنتم هيكل الله الحي كما قال الله أنى سأسكن فيهم وأسير بينهم وأكون لهم الها وهم يكونون لى شعباً . لذلك أخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فأقبلكم» (٢ كو ٦ : ١٤ - ١٧) يقولون للسارق لا تستحق أن تبقى مع الذى كان يأكل خبزه بعرق جبينه . ويقولون لمحب المال المرابى الظالم لا ينبغي أن يقف مثلك بجانب من كان يوجد بسخاء على المحتاجين . ويقول للدنس لا تقف بجانب العفيف . وهكذا يتم الانفصال المريع بين الفريقين . حينئذ يؤخذ الواحد ويترك الآخر (مت ٢٤ : ٤٠) يؤخذ الابن ويترك الأب ، تؤخذ الأم وتترك الابنة ، يؤخذ الأخ ويترك الأخ الآخر ، يوضع الابرا عن اليمين والأشرار عن اليسار ، يرتفع الأبرار الى فوق ويسقط الأشرار الى أسفل . يسمع الأبرار قوله «تعالوا» و يسمع الأشرار قوله «اذهبوا» وكلاهما ينفصل عن الآخر الى الأبد .

وإذا كان الانسان الذى يطرد من جمعية أو من هيئة يعتره غم شديد ، فأى عذاب يحمل بمن يشاهد نفسه مرفوضاً من بين القديسين ومساقاً للوقوف في صف الشمال مع الهالكين ؟ قل لى أيها القارئ العزيز على أى شئ عازمت وفى أى مكان من الاثني تريد أن تقف ؟ أفى جهة اليمين أم فى جهة اليسار ؟ وأى الصوتين تحب أن تسمع . أتحب أن تكون حبيباً أم عدواً ؟ ما أروع الحالة التى ينتهى اليها الأشرار عندما يبعدون عن القديسين وهم يقولون لهم «يا لشقاوتنا

المؤبدة ويا للندامة التى لا تنتهى . طوباكم أيها الأبرار . يا لسعادتكم . يا لغبطتكم
ثم تنادى الام ولدها والاب ابنه والأخ أخاه والصدى صديقه قائلين لم يعد يمكننا
أن نراكم الى الأبد» .

حينئذ يتدنون بوداع المؤمنين فيقول الهالك لأخيه الصالح الوداع يا أخى أنى ما
عدت أراك . والأم الشريفة تقول لابنتها البارة هذه هى المرة الأخيرة التى فيها أراك
يا ابنتى . فما أمر هذا الوداع إذ لم يعد لى أمل فى أن أراك فيما بعد والابنة الشقية
تقول لأُمها التقيية وداعاً لك يا أمى . هتياً لك أنت قد حصلت على الراحة وأما
ابنتك ففى عذاب دائم فالى أراك لا تذرفين دمعاً واحدة على ابنتك متى تعلم قلبك
هذه القساوة على وقد كنت فيما مضى تتألمين لأقل ألم يصيبنى !!

أيها الوالدون . هوذا جثث أولادكم فى توابعها ، وستغيب عما قريب فى القبر .
أنظروها تملوا منها قبل أن توارى فى الترى ولكن لا تعتبروا أن هذه هى آخر نظرة
تلقونها على فلذات أكبادكم فأمامكم مجال آخر ترونها فيه فى اليوم الأخير فاما
تجتمعون بها اجتماعاً أدياً أوتفارقونها الى ما لا نهاية . فالوداع المر لا يكون هنا بل
هناك والفراق الأبدى لا يتم فى هذا العالم بل فى العالم الآخر . كم من كثيرين
فارقوا الحياة عقب موت محبهم لشدة تحسره وحزنهم فاذا تصوروا إذا حزن الهالكين
حينما يرغمون على مفارقة من يحبونهم الى الأبد ، حينما تنقطع العلاقات وتبطل المحبة
بين الأب وأولاده والأم وأبنائها والأخ وأخوته . لقد بكى يعقوب على يوسف مع
أنه مؤمن يعتقد أنه سيلاقيه . فاذا تصور عويل الحطاة فى يوم الفراق الذى ليس
بعده لقاء .

انظر تر جمهوراً غفيراً مجتمعاً حول شخص مسافر ، وهم بين بك ومنتحب لأن
هذا الانسان سيفارقهم شهراً أو سنة أو أكثر ، أنظر الى مشهد ميت تراه مؤثراً لأن
الميت سيفارقهم مدة وجودهم على الأرض وسيلاقونه بعد موته . الفراق كلمة مرة
ثقيلة على الطبيعة البشرية . أنظر لمن يقف على قبر ابنه كئيباً وهو يذكر كلماته
الحلوة ومحياه الجميل بحزن عميق . أنظر لمن يبكى زوجته الراحلة معدداً فضائلها
وحسانتها . أنظر لمن يبكى أبويه بجنوناً ذاكراً عطفها عليه ومحبتها له . ولكن هذا

الانفصال الذي يولد كل تلك الحسرات هين بالنسبة للانفصال الأبدى .

ماذا يعمل الشرير حينما يرى أهله وأقاربه في صف الجن وهو في صف الشمال . ماذا يكون حاله عندما يرى ابنه الذي كان يحبه في هيئة الأبرار وهو مضطرب بالشوق اليه ليسلم عليه و يقبل وجنتيه ولكن ليس من يسمح له . وكيف يكون حزنه إذ يحمل الى جهنم وابنه الى السماء وهو يلتفت الى الوراء شاخصاً اليه الى أن تفصل بينهما هوة عظيمة ويفارقه الى الأبد . واحسرتاه أيها الذين تبكون بحرقه على موتاكم .. إن البكاء الحقيقي لا يصح عليهم إلا إذا تم الفراق بينكم ، لا في هذا العالم بل في العالم الأبدى .

حينما يرى الأشرار في اليوم الأخير مجد الصديقين وعظمتهم و يشاهدون تصرف الملائكة معهم و يرون الاحتفاء الذي يوجه اليهم والضياء الذي يسرلهم ثم يذكرون أن هؤلاء الصديقين كانوا أناساً مثلهم وكانوا لا بسين أجسادهم وساكنين في العالم معهم . منهم من عاش بسبوس عظيم ولكنهم بالتوبة والايان خلصوا واستحقوا هذه الغبطة الدائمة . فأى حسد محرق يمزق قلوبهم و يعذب احشائهم .

ما أشد الغيظ الذي تضطرب به قلوب الأشرار حينما يرون أنفسهم في عذاب و يرون الأبرار في نعيم . أجل سيغطون عيونهم حتى لا يرون الأتقياء في السماء . وسيكون ألمهم مرأ وغيظهم شديداً عندما يذكرون أنهم كانوا بشراً مثلهم وكان في أمكانهم أن يسعوا لينالوا السعادة نظيرهم ولكنهم انهمكوا في لذة وقتية وخسروا المجد السرمدى . قال الكتاب «هناك يكون البكاء وصرير الاسنان» (مت ١٣ : ٥٠) كم تألم أخوة يوسف لما رأوا أباهم يفضل عليهم يوسف ونجبه أكثر منهم حتى أنهم عزموا على قتله (تك ٣٧).

فيكون جسد الأشرار للأبرار حينئذ بالغاً حده . أية حسرة ملكت قلب الغنى عندما رفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى ابراهيم من بعيد ولعازر في حضنه ! لا ريب أنه استعرض في مخيلته حالته وحالة لعازر قبل المبت وحالتهما بعده ، وكيف تغير الحال وارتفع الفقير الحقير وسقط الغنى العظيم ، قد كان يتمنى أن يضاعف عقابه في جهنم ألف مرة ولا يرى لعازر ذلك الحقير مجدداً ولا يجد نفسه

وهو العظيم محتقراً مهاناً (لوقا ١٦ : ٢٣). قال أحدهم «قد كان الغنى يتعذب من شدة حسده للعازر عذاباً أشد من عذاب النار».

نعيم سيحزن ملوك العالم الذين اتكلوا على قوتهم ونسوا الههم لأنهم يرون عبيدهم في السماء وهم في الجحيم . سيتحسر عطاء الدنيا الذين قضوا حياتهم في الملذات والشورور حينما يرون البائسين في حضرة الله وهم في قبضة ابليس . سينتحب الأغنياء الذين عاشوا لأنفسهم حينما يرون الذين كانوا يستعظونهم وقد أصبحوا في ذرى المجد وهم في وسط اللهب . ومما يزيد عذاب الأشرار انهم يرون الأبرار ينظرون اليهم باحتقار ويقول الرب « وأنا أيضاً أصفق كفى على كفى وأسكن غضبي . أنا الرب تكلمت » (هزرايا ٢١ : ١٧) إن الذي يخسر في اللعب لا يزداد غمماً إلا حينما يرى الغير يضحكون عليه ، ولا شئ يزيد الخطاة في جهنم عذاباً أكثر من رؤيتهم الأبرار يشخصون اليهم و يضحكون عليهم فيضحك ايليا على آخاب ، و يوحنا المعمدان على هيرودس ، ولعازر على الغنى .

هذا من جهة انفصال الانسان عن أهله وعارفيه ولكن هناك ما هو أشد هولاً وأعظم صعوبة وهو انفصال الانسان عن الهه وخالقه وفاديه والمحسن اليه . قال القديس أوغسطينوس «اننا لا يمكن أن نقول إن النفس تكون حية حيث تكون منفصلة من النور الالهى ولا الجسد أيضاً يكون حياً وهو موضوع تحت العقاب الأبدى».

لما قال الرسول بولس للمؤمنين في ميليتس وأفسس «والآن ها أنا أعلم انكم لا ترون وجهى أيضاً» انتحبوا انتحاباً شديداً كما يقول الكتاب وكانوا «متوجعين ولا سيما من الكلمة التى قالها لهم انهم لن يروا وجهه أيضاً» (اع ٢٠ : ٢٥ و ٣٨) فإذا كان فراق أحد الرسل قد اضرم فى قلوب المؤمنين نيران الحزن والغم بهذا المقدار فاذا تكون حالتك أنت حينما تنفصل ، لا أقول عن أهلك وأصحابك ، أو عن الأنبياء والرسل ، أو عن الملائكة والجنود السماوية ، أو عن الساء نفسها والنعم ذاته بل عن أبيك السماوى . إن كل عذاب سمعت أنه سيكون فى جهنم مها كان شديداً لا تقاس شدته بشدة انفصالك عن الهك . كيف تكون حسراتك وتأوهاتك

حينما تعلم أن محبة الهلك لك قد فرغت وأنه وهو الاله الذى كان يجود عليك بالخير قد نزع من قلبه كل عطف عليك وامتلاً قلبه قساوة وشدة يزيدان هول الشقاء الذى يوقعه بك .

إعدم مشاهدة الله هو الذى عناه المخلص بقوله عن الخاطئ « لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يو ٣٦ : ٣٦). وقال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن عدم مشاهدة الله هى أشد من كل نيران جهنم » وقال أحد اللاهوتيين « إن الله يظهر للمفدين أشعة يسيرة من وجهه الالهى لكى يعرفوا أى خير عظيم جعلتهم الخطيئة يفقدون ».

إعلم أنه وإن كانت الطبيعة الآن تجود عليك بالنعم بالرغم من شرك فتعطيك الشمس نورها وحرارتها ، والأرض أثمارها وغلاتها ، والهواء نسيمة والمياه قوتها فذلك لأن الله مازال يشفق عليك ويمهلك راجياً إن ترجع عن ائتك تائباً ، ولكن هذه الحال لا تدوم ، تأمل فيما جرى وقت صلب المخلص كيف أن الله حينما سخط على الخليقة لتعديها عليه حجبت الشمس نورها ومنعت الأرض سكوتها فسادت الظلمة على وجه الأرض واضطربت الأرض وماجت (مت ٢٧ : ٤٥ - ٥٤) فهذا عينه سيتم عليك حينما يتم الانفصال بينك وبين خالقك ، ينزع النور من قلبك والسلام من نفسك والراحة من ضميرك فتحس بعذاب لا يوصف ولا يبقى عندك أى أثر من الفرح والسرور . فإذا كانت الطبيعة تحسن اليك فلأنها تعرف إن الله لم ينفصل عنك ولكن حينما ينفصل عنك تتحول الطبيعة المحبة الى عدو لدود بل ويصبح ما كنت تسره علة حزن لك . كتب العلامة أوريجانوس يقول « حينما كان مغلقاً على نوح داخل الفلك كانت الأرض عقيمة لا نبات فيها أو ثمر وذلك لأن الشمس لم تكن تطلع على الأرض فى ذلك الحين » فإذا كان احتجاب هذه الشمس الحية صار سبباً لا تلاف الأرض وبوارها فكم يصيبك أنت أيها الانسان الشقى حينما تفقد شمسك الحقيقى ونورك الأسمى الله خالقك . قيل أيضاً عن شمشون الجبار إن الفلسطينيين لم يهتموا بخلق شعر رأسه بعدما نبت مع علمهم بأنه سر قوته لتأكدهم من أن الرب فارقه . فإذا تكون حال الجبلبة التى تنفصل عن جابلها ؟ إلا يرخى عليها الظلام سدوله ! إلا يصبح الانسان حينئذ كعين غاضت

مياها وككرمة جافة يابسة وكجسد فارفته الحياة ؟

لما سب شمعى داود الملك لم يحتمل ذلك ابيشاي بن صروية بل التفت الى الملك وقال « لماذا يسب هذا الكلب الميت سيدى الملك . دعنى أعبرفأقطع رأسه » (٢ صم ١٦ : ٩) هكذا أنت أيها الخاطي يا من أهنت الهك ستثور ضدك مخلوقاته وتطلب الانتقام منك . سيسمع صوت الأرض يقول دعنى أفتح فى لأبتلع هذا الخائن الخالقي . وتقول المياه اتركنى أخنق كل عديم الوفاء لمن أوجدنى . ويطلب الهواء أن يسحقك . وتطلب النار أن تحرقك ذلك لأنك أيها الخاطي المسكين قد انفصلت عن الهك فانفصل عنك كل الخير .

إن الفخر الذى رفع الله الانسان اليه باتصاله به لا يستطيع وصفه يقول الرسول بطرس « كما أن قدرته الالهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذى دعانا بالمجد والفضيلة اللذين بها قد وهب لنا المواعيد العظمى والثينة لكى نصيروا بها شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بط ١ : ٣ و ٤) فكم هو عظيم شرف الفضيلة الذى يوصل الانسان بل يجعله شريكاً له فى طبيعته الالهية وبالعكس كم هو شنيع عار الخطية التى تسقط الانسان من هذا السمو غير المتناهى فيصلر مجهولاً عند الله بالكلية حتى أنه يقول له لست أعرفك (مت ٢٥ : ١٢) إن عيسو حينما علم أن بيعة البكورية قد سلب منه بركة أبيه اغتم غماً جسيماً ورفع صوته وبكى بمرارة (تك ٢٧ : ٣٤) فبأى حرقة يبكى الخاطيء حينما يعلم أن خطيته لا تفصله عن بكوريته ولا عن موهبة بنوة وضعية بل تفصله عن الهه وتبعده عنه بالكلية . أن الله وعد أن يكون هو والمؤمن واحداً بالمحبة ، فالله الموجود فى كل مكان حال فى المؤمن على نوع خاص كما قال المخلص « ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الاب فى وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا » (يو ١٧ : ٢١) ولكن الخاطي لا يكون بينه وبين الله أدنى اتصال كما قال سليمان الحكيم « الرب بعيد عن الأشرار » (ام ١٥ : ٢٩) .

كم كان الله يعتبر أن من أحسن حالات السعادة والطمأنينة للمؤمنين أن يصرح لهم أنه هو معهم ، فكان يقول لهم لا تخافوا أنا معكم . وبهذا القول شدد

اسحق (تك ٢٦: ٢٤) و يعقوب (تك ٣١: ٣) وموسى (خر ٣: ١٣) و يشوع (يش ١: ٩) و ارميا (ار ١: ٨) و باقى القديسين فى كل العصور، و بالعكس إذا انفصل الله عن الانسان حلت به الويلات كما انفصل عن منسى الملك فعدم ملكه (٢ أى ٣٣: ١١) و عن شاول فعدم حياته (١ صم ٣١: ٦) و عن على الكاهن فعدم أولاده (١ صم ٤: ١٨) فقل لى أيها الخاطئ كم من المزايا تفقد إذا عندما ينفصل عنك الله انفصلاً أبدياً؟

إن الذى يفقد خروفاً واحداً يحزن عليه و يبحث عنه و الذى يفقد درهماً واحداً لا ينفك طالباً إياه، و الحال أن الخاطئ لا يعدم شيئاً زهيداً هكذا بل سيحرم من السماء و يفقد الملكوت. يروى أن أحد الكتاب الأولين عن اليهود أنه بعد أن طردهم الرومانيون من أورشليم بعد صلب مخلصنا كانوا يجتمعون من بلدان مختلفة و يأتون الى أورشليم فى العام دفعة واحدة فى يوم معلوم لكى يبكوا على سبى أورشليم و خراب الهيكل إلا أن الحكام الرومانيين لم يكونوا يسمحون لهم بالدخول الى المدينة إلا بعد أن يرشوهم بأموال وافرة فكانوا يجتمعون كلهم معاً أمام باب أورشليم الرجال و النساء، الشيوخ و الشباب، العذارى و الأرامل، وهم لابسون أثواب الحداد و يمشون حفاة مكشوفى الرؤوس مكمدى الوجوه مدمعى العيون و يدورون حول اطلال الهيكل الذى صار أثراً بعد عين و يسكبون عبراتهم على بقايا أساساته، و كان قوم منهم يرمعون شعورهم على رماده المقدس، و آخرون يقرعون صدورهم أمام الخزانة المنهدمة، و الجند من الجهة الأخرى يلحون عليهم ليبكوا طويلاً. فلماذا كان أولئك اليهود يظهرون مثل هذا الأسف و التحسر؟ أليس من أجل مدينة صارت خراباً! قالى أراك جامداً لا تختلج فى عينيك دمعة واحدة و أنت تعرف أنك بائسك لم تفقد الهيكل فقط بل اله الهيكل أيضاً. ليت الخطاة يتأملون فى ذلك ليعلموا مقدار الخسارة الباهظة التى تفقدها إياهم لذة الخطية الوقتية. عند ذلك يصرخون مع الرسول بولس « لكن ما كان لى ربحاً فهذا قد حسبه من أجل المسيح خسارة. بل انى أحسب كل شئ أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى الذى من أجله خسرت كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكى اربح المسيح (فى ٣: ٧، ٨)

الفصل الخامس والعشرون فى النهاية المريفة

« وماذا تعملون فى آخرتها » (ار ٣١: ٥) « فأنا أيضاً أختار مصائبهم ومخاوفهم أجلها عليهم . من أجل
انى دعوت فلم يكن مجيب . تكلمت فلم يسمعوا بل عملوا القبيح فى عينى واختاروا ما لم أسره »
(اش ٦٦ : ٤) .

« أيضاً من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدي أفعل ومن يرد » (اش ٤٣ : ١٣) .

إن النفس مستتجد بالجسد بعد الانفصال وتتعلق به والجسد ثقيل ومن شأن
الأشياء الثقيلة أن تجذب الى أسفل . إذأ فالنفس تنحدر مع الجسد الى أسفل .
واعلم أيضاً أن ذلك المكان الدائم هو جوف الأرض وهو قاع عميق مظلم الى
الغاية . مكان لعنة مخوف جداً . حبس مريع مفعم بالعذاب المبرح والعقوبات
الشديدة . منفى أبدى دائم لا خلاص منه أبداً وسلطان تلك الأرض وحاكمها
المغتصب ابليس وسكانها الخطاة المدانون فلا تؤمل أيها الانسان أن تنظر شيئاً من
الاشياء المفرحة ، انك لا تنظر الشمس مشرقة ولا القمر منيراً ولا النجوم ساطعة .
قال المرتل « يمطر على الأشرار فحائخاً ناراً وكبير يتأ وريح السموم نصيب
كأسهم » (مز ٦ : ١١) وقال اشعيا النبي « لذلك وسعت الهاوية نفسها وفغرت
فاها بلا حد فينزل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج فيها . و يذل الانسان ويحط
الرجل وعيون المستعلين توضع » (اش ٥ : ١٤ و ١٥) .

ها قد ارتفع حجاب الأبدية فتقدموا أيها الناس . ما لى أرى الكثيرين منكم
واجبين خائفين ، ما لى أراكم ترتعبون إذ رأيتم عرش الله ، ما لى أراكم تودون
لويعود الباب الى مكانه ما لى أرى خوفكم شديداً . الأقدام التى كانت تسرع للشر
ما لى أراها تتسلى . الأيدي التى كانت تحظف الاثم لماذا ترتخى . الأعين التى

كانت تحرق فى الاباطيل ما لها تعمرى . الاذان التى كانت تطرب لسماع ردى القول لماذا تصم . اللسان الذى كان يتكلم بالفحش ما له يجرس . ما لى أرى المتكبرين يذلون والمتشائمين ينحطون . ما لى أرى أغنياء يفتقرون وملوكاً يسقطون . أين عزكم . أين مجدكم ،- أين فخركم ؟ تقدموا ما بالكم جزعون . ما عهدناكم تخافون . أين قوتكم أين جاهكم وسلطانكم .

وأسفاه إن الخطيئة تبسود علينا والخطيئة عدو الله فخوفنا من الله يمنعنا من التقدم . نود لو نعود الى العالم مرة أخرى لنعيد سلطتنا وجلالنا أو نصلح خطانا وعبوبنا . أين أيامنا الأولى . أين الأوقات التى كنا فيها مسيطرين وأصحاب نفوذ وسلطان ؟ لقد انتهت ولم يبق لنا إلا إن نحاكم ونعاقب .

أيها الأشرار يا من لا تستطيعون التقدم سيحملكم ملائكة الله الى المحل المعد لكم . نعم سيحملكم ملائكة الله ولكى يزيدوكم عذاباً يبرون بكم أمام باب السماء فتحاولون الدخول فيمنعكم الملائكة قائلين « هذا الباب ضيق لا يمكنكم الدخول منه ، لانكم تحملون أحمالاً لا يمكنكم أن تدخلوا بها » فتقولون لقد جردنا الموت مما نملك فلم نحمل معنا شيئاً مما كان لنا فيقولون لكم ومن هذا قام نقصكم انكم ترون كل شئ إلا الخطيئة فالخطيئة لم تترككم . انها لم تزل بكم . اننا نراها ثقلاً عظيماً على أعناقكم . نرى عليكم شروراً عديدة وذنوباً كثيرة . تقبلون لنطرح الخطايا حتى ندخل مع الأبرار . فيقولون لكم لقد فاتكم أوان طرحها فانها الآن لاصقة بكم . أترون ذلك الباب الواسع الذى تضطرم النار فى داخله ؟ انه متواكم ومفركم . فيالتعاستكم !!

وأسفاه عليك أيها الخاطى فإن آخر نظرة تودع بها الدنيا الباطلة تعقبها أول نظرة فى جهنم . تبطل آخر حركة لك فى الأرض لتبدأ أول حركة فى الجحيم . تصم اذنك عن سماع آخر كلمة فى العالم لتفتح لسماع زئير المعذبين فى النار الأبدى .

إن الطفل إذا تكلم أول كلمة تعرف أنه سيلفظ آخر كلمة ، وإذا نظر أول نظرة تعرف أنه سينظر آخر نظرة . أما الخاطى فى جهنم فهو إذا فتح عينيه ليرى العذاب

فلا يغلقها ليستر يح نظره لحظة واحدة بل يفتحها الى الأبد .

فكيف تنجو أيها الخاطئ من يد العدل الالهى الرهيب وكيف تخلص نفسك من ذلك الحزن والنحيب ؟ هل تفكر فى الهروب ؟ اهرب إن كنت قادراً . كلا بل ينبغى إن تصرخ مع المرتل « أين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . إن صعدت الى السموات فأنت هناك . وإن فرشت فى الهاوية فهأ أنت . إن أخذت جناحى الصبح وسكنت فى أقاصى البحر . فهناك أيضا تهدينى يدك وتمسكنى يمينك . فقلت إنما الظلمة تغشائى . فالليل يضئ حولى . الظلمة أيضا لا تنظم لديك والليل مثل النهار يضئ . كالظلمة هكذا النور » (مز ١٣٩ : ٧ - ١٢) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم :- « أما أنا فانى أروح دائماً واندب متواتراً من هول ذلك اليوم الذى فيه تجتمع جميع الأمم واللغات وتموج بحار العبرات وتظلم العيون الرائعة وتخرس الألسن الناطقة وتذل عظماء الجبابرة وتخضع رقاب الأكاسرة وتغل أعناق الظالمين و يكثر ضجيج الخاطئين حيث لا مال ينفع ولا محب يشفع ولا عذر يقبل ولا خلاص يؤمل بل سماع أصوات ملائكة يوبخون وربوات أجناد يبكتون . وأعوان يتسابقون وخاطئون يعذبون وعصاة يصرخون و ينوحون ولا يرحمون حيث يسمعون الديان حينئذ قائلاً : أين هم أولئك المطيعون لشهوات نفوسهم الخالفون لأوامرهم . أين هم الذين كانوا يتمتعون و يبذخون وهم عن الآخرة معرضون ، أين هم قادة الجيش ومقدمو العساكر والجبابرة والقساة ، أين هم الذين كانوا يظلمون عبيد رهم ومخافة الله ليست فى قلوبهم ، أين الذين كانوا يسرقون ويحلفون و يكذبون وهم مسرورون ، أين الذين كانوا يخرجون باكراً و يسعون فى أثر النجاسات و ينهبون متاع الأيتام وهم عن أحكام رهم معرضون . أين عظمة الملوك وتجبر السلاطين وسطوة الجبابرة وتعظم المتكبرين . أجبني أيها الملك ما بالك هنا ذليلاً ومالك خاضعاً كئيباً وما بالك طريحاً قتيلاً ، أين الحلل والتيجان ، أين العشائر والأصحاب ، أين العبيد والحشم ، أين الدعوات والهمم ، أين الخائفون من رد الجواب ؟ كيف خذلتك الآن عساكر المملكة وخانتك رجال المعركة وكيف لم تحرس حياتك الجيوش ولا صانت جيروتك القلاع المشيدة وكيف غفلت عنك الحراس فى الليل ولم هجمت عيون حفظة النهار حتى خرجت من ملكك عارياً

وجذبت من قصرك ذليلاً وأصبحت طعاماً للحشرات وأتيسراً للفلوات وصائراً الى
رذيلة هذا عظيم مقدرها؟ فيجيب ذلك العاجز ويقول ارحم ياسيد من اغتر بطول
الأجل واعتز بامتداد الأمل واشتغل بالمأكل الفانية والتبى باللذات المتلاشية
وتفاخر بالملابس البالية وتباهى بالجموع الخائبة حتى تركته عبرة للناظرين وتذكرة
للغافلين . فيقول له الديان حينئذ أنت نلت خيرائك في الحياة الدنيا وأخذت حظك
من نعميها فيأذ قد سررت باللذات الزائلة زماناً قصيراً ستعذب ههنا عذاباً
طويلاً .»

فإذا تقول أيها الخاطى إذا؟ ها أنت تنادى ديانك قائلاً . لماذا تحكم على هذا
الحكم القياسى . هل لأنى تركت العبادة ولم اهتم بالصلاة؟ اتركنى لأعود الى
العالم فأقضى ليالى وأيامى جائئاً أمامك؟ هل لأنى غضبت على غيرى ، اسنح لى
فأعود لأركع أمام كل من أسأت اليه غنياً كان أم فقيراً . هل لأنى ظلمت الغير؟
دعنى أذهب وأعوض كل من سلبته شيئاً أربعة أضعاف . هل لأنى لذت جسمى
ونعمته؟ ارجعنى فأذله وأقعد واعذبه عذاباً شديداً .

ولكن لا . لا . لقد فات الوقت الذى كان يمكنك فيه أن تصلح خطأك . إن
زكا حينما دعاه السيد المسيح لم يقل له فيما بعد « اعطى نصف أموالى للمساكين وأن
كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف » بل قال « ها أنا يارب » (لو ١٩ : ٨)
وأما أنت فامتدت اليك الأيدى وهى ترتعش من الخوف منك فكنت ترددها خائبة .
وكم نصح لك كتاب الله وخدام الله لكى تقنع عن ائتمك وتطرح خطيتك وكم قيل
لك إن « أجرة الخطية هى موت » (رو ٦ : ٢٣) ولكنك لم تسمع ولم تبال بما قيل
لك فتبعتك الخطية الى هنا ولن تفارقك الى الأبد .

أجل عندما يطرح الأشرار فى ذلك الأتون المرعب ويشعرون بعذاب النار ولدغ
الدود يدركون أن كل العلاقات البشرية قد انقطعت ، فلا يشفق الاب على ابنه
ولا الأم على ابنها ولا الصديق على صديقه لأن كلا منهم يكون مشغولاً بعذابه متغلاً
بالأم نفسه كما قال اشعيا النبي : « بسخط رب الجنود تحرق الأرض ويكون
الشعب كماكل للنار . لا يشفق الانسان على اخيه » (اش ٩ : ١٩) وقال المسيح

« ويسلم الأخ أخاه الى الموت والأب ولده و يقوم الأولاد على والديهم و يقتلونهم » (مت ١٠ : ٢١) فلا يسمع إذ ذاك سوى صياح و عويل و تحديف عندما يفتح بئر العمق و يصعد دخانها الى السماء و تصرخ الأبالسة و الأشرار بأصواتها المرعبة و ترتجف الأرض و تفتح الجحيم فها لتبتلعهم و ينقطع الرجاء و تبتعد الرحمة و يحكم العدل . فى ذلك الحين يلتفت الابن الى أبيه و يقول « لم شفقت على ولم تؤذبنى لم تركتنى الى أهواء نفسى حتى وصلت الى هذا اليوم الرهيب » فيلتفت اليه أبوه و يقول « لست أمك ما حبلت بك ليتك ما كنت ولدت ولا بشرتنى بك القابله . أحببتك عن نفسى ولم أرد اصلاحك خوفاً عليك من انكسار خاطرك ولم آت بك الى بيت الله لآنى لم أرد أن أزعجك باستماع كلمة الله قانلاً فى نفسى هذا الطريق ضيق و عسر عليك سلوكه و خير لك أن تسر و تفرج مع أصدقائك و أحبائك . ولكن واحسرتاه قد انقطع حبل الرجاء ولا نقدر أن نعود الى يوم الحياة لنفى عن مآثمنا . ها الجحيم فاتح فاه لا ابتلاعنا » و تقول الابنة لأمها « ليتك كنت عاقراً وليت عيني لم تبصر نور الحياة ولا قلبى تصور فى احشائك التى منها خرجت لأفعل المنكر على وجه الأرض فمن يخلصنى من يد هذا الديان العادل . ولا واحد . وها أنا أنحدر باثمى الى أعماق الجحيم » .

وهكذا ترى كل واحد يلقى التبعة على غيره و يفوه ضده بضجيج و يصب عليه لعنات ما أمرها ولكن أين اللاتم و الملموم و أين العدو و الصديق . لم يبق شئ سوى أن كل انسان يخمل و زر نفسه و يجازى حسب عمله (رؤ ٢٢ : ١٢) .

أجل ! سيكون بغض الأشرار بعضهم لبعض عظيماً لأنه بقدر كثرة عدد الهالكين يكون عذابهم قد نسمع كثيرين من الخطاة العاصين هنا يقولون عندما نكلمهم عن عذاب الجحيم « اننا إن مضينا الى جهنم لن نكون هناك وحدنا بل نجالس وزراء و ملوكاً و عظماء ، ولكن يالشقاوة هؤلاء فإن كثرة الهالكين معهم هى التى تزيدهم عذاباً و ألماً و ذلك لكثرة رائحة أجسادهم النتنة و أصواتهم المزعجة فىكون ازدحامهم شديداً كالحيوانات التى تتراحم على بعضها (مز ٤٩ : ٢٠) و كما قال ناحوم النبى « فانهم وهم مشتبكون مثل الشوك و سكرانون كمن خرهم يؤكلون كالقش اليابس بالكمال » (نا ١ : ١٠) .

ولكن بغض الأشرار لبعضهم يحتسب يسيراً أمام بغضهم للشياطين الذين كانوا علة سقوطهم فى الخطية . بل أن الشياطين الذين كانوا يمتلكونهم و يتوددون اليهم ليجروهم الى الاثم يكونون فى جهنم قساة عليهم فيز يدونهم عذاباً بأشكالهم المرعبة وأصواتهم المفزعرة حقاً لقد خاب أملك أيها الخاطئ من كل مارجوته فالعالم الذى أحبته قد فارقك . والجسد الذى لذذته تتعذب فيه نفسك والخطية التى اشتيتها سلطها الله عليك لتعذب ضميرك ، والشيطان الذى أطعته يقوم ضدك . ولا يكون بغض الأشرار للغير فقط بل يبغضون حينئذ أنفسهم ، ومن ذا الذى يستطيع أن يصف عظم شدة القتال الذى يحدث حينئذ بين نفس الإنسان وجسده ومحاولة كل منهما فى القاء التبعة على الآخر وهذا التنازع نفسه يحدث فيما بين بقية الأعضاء فإن اليدين تشلبان الرجلين بأنها كانتا تقتادانها الى طريق الخطية ، والرجلان أيضاً تشلبان اليدين على طاعتها هما ، وكذلك العينان تشلبان اللسان على دفعة اياهما الى مثل هذا العذاب بارتكابه خطية الوقيعة والدينونة والغيبة والتجديف والافتراء وغير ذلك من الخطايا التى تصدر عن اللسان الخبيث . واللسان يسلب العين لأنها كانت علة عذابه إذ هى التى نظرت الشر وتطلعت الى الخطية وعلقت القلب بها .

فإذا تريد أن تبلغ البشر أيها الخاطئ المقيم فى جهنم وأية رسالة ترسلها لهم عليها ترجع بهم من الغنى الى الصواب ؟ إن الغنى طلب الى ابراهيم أن يرسل لعازر الى بيت أبيه لأن له خمسة أخوة ليشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً الى موضع العذاب وذلك بقوله « إذا مضى اليهم واحد من الأموات يتوبون » (لو ١٦ : ٣٠) أرسل الينا أيها الخاطئ الذى سكنت جهنم رسالتك ماذا تريد أن تقول لنا !

« اسمعوا أيها البشر وانتبهوا يا أهل العالم . أنتم تعيشون فى ضلال ووهم ، فكل ما تعتبرونه ذا قيمة عندكم تسقط قيمته هنا ، وكل من تعظمونه لكثرة ما ملكت يدها ينحط هنا و يذل . أرى حولي كثيرين ممن كانوا يسمون فى العالم ملوكاً وأمراء وشرفاء تدفعهم هنا النيران وتدوسهم الشياطين تحت أقدامها . أرى هنا أناساً ممن لم يكونوا يألفون غير المديح والتقرىظ لا يسمعون سوى اللعنات القاسية . أرى هنا غنياً كان فى الأرض يلبس الأرجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً .

ينقلب هنا عارياً . أرى فقيراً كان على باب الغنى ولم يكن سمح له بقليل من الفتات الساقط من مائدته . هوذا الغنى يطلب ممن كان فقيراً إن يبيل طرف اصبعه بماء و يبرد لسانه لأنه معذب في اللهب (لو ١٦ : ١٩ - ٢٤) .

وقد وجدت بجانبى انساناً لا أستطيع أن أصف مقدار ذله فسألته عن نفسه من أنت ؟ فأجابني أنا فرعون ملك مصر الذى أتاني موسى يطلب منى اخراج اسرائيل فدفعنى جهلى واغترارى بملكى أن أقول له « من هو الرب حتى أسمع لقوله فاطلق اسرائيل ؟ لا أعرف الرب واسرائيل لا أطلقه » (خر ٥ : ٢) أما الآن فقد عرفت من هو الله لأنه جازانى عن كبير يائى بالذل الذى تشاهدونه .

ورأيت انساناً آخر فسألته من أنت ؟ فأجابني « أنا أحد ملوك بابل الذى كانت الناس ترتجف من ذكر اسمى وكنت ألزم الناس بعبادتى . ومن كان يتجاسر بكلمة واحدة كنت أقطع رأسه . وكانوا يخترعون لى كل يوم ملذات جديدة وكنت من ذوى الهوى فحملنى جهلى على ارتكاب المعاصى التى أدت بى الى الهلاك وبعد موتى شعرت إن الذين كانوا يعبدوننى أخذوا يتسامرون بسيرتى القبيحة فلم انتفع شيئاً مما تلذذت وتمجدت به سوى هذه النيران التى تراها تضطرم فى جسمى .

وشاهدت آخر متحنياً الى الأرض فسألته من أنت ؟ فأجابني « أنا الذى أحببت المال وجمعت وكثرته فهلكت بسببه وأحس كأنه تجمع الآن فوق ظهرى وثقل حمله على فلا أستطيع أن أرفع رأسى . وشاهدت كثيرين من هذا النوع فقد رأيت أناساً كانوا فى العالم من ذوى اللطف والظرف واناساً كانوا من أهل اللهو والطرب وهم يرقصون الآن هنا رقصة الطير المذبوح . فقولوا عنى لأبناء البشر أنتم مساكين لأنكم الآن فى راحة وعيون جسدكم لا تستطيع أن ترى أكثر من ذلك ، ولكن لىتكم تفتحون عيون قلوبكم لترى أن هذا العذاب الذى لا يطاق هو نتيجة لازمة للخطية .

فليتنا ننتبه الى هذا النداء ونسمع قول الرب « اعطوا الرب الهكم مجداً قبل أن يجعل ظلاماً » . قال أحدهم « ويل للأشرار ثم ويل لهم لأن دودهم لا يموت

ولا نارهم تطفأ وهم أحياء وأموات الى الأبد ضمائرهم جلادهم أفعالهم تعذبهم يضيق الكون بوجوههم وأرض الأحياء لا يقدر أن يعودوا اليها فينحدرون الى الجحيم ليخفيهم من وجه العلى وعن هيبه الذى رفضوه ورفضوا تعليمه المقدس فيغلق حينئذ باب الجحيم ويختم بابه بختمه الأزلئ فلا يصعدون منه الى الأبد فويل وويل لهم ماذا أفادتهم نعم هذه الحياة الفانية كالظل أو ماذا نفعهم حكمتهم الانسانية الباطلة التى جرتهم وراءها الى هاوية العمق طغوا وتكبروا فقطفوا ثمر عجزفتهم العذاب الأليم . حسبوا أنفسهم حكماء وهم غارقون فى بحار الجهل ظنوا أن من العار عليهم أن يصدقوا أن يسوع المسيح هو ابن الله حقاً لأن حكمتهم القاصرة لم تقدر على معرفة الحق ، ولأن بصائرهم المظلمة لم تكن إلا تراباً ورماداً خاوية وخالية من الاتكال الصحيح على يسوع المسيح الصادق وحيد أبيه الأزلئ ولم يعتبروا كلمة انجيله المقدس التى تحتوى على كل التعليم الصحيح وتؤدى الى الحياة الأبدية . ترى ماذا أفادتهم حكمتهم الانسانية ؟ هل ردت عنهم القضاء أوصدت عنهم وقوع العذاب انهم ظلموا أنفسهم وراحوا ضحية اثمهم يتذكرون وهم فى جهنم ما تلقوه من العالم من الانذارات والتعاليم من أفواه المشرين ولكن ذلك لا يزيدهم إلا ألماً شديداً وعذاباً مريراً فيقولون ليتنا سمعنا وحفظنا تلك العظة التى بشرنا بها ذلك البشر الذى أفرغ جهده فى نصحننا ونادانا قائلاً توبوا والا فجميعكم تهلكون ولكننا كنا نهزأ به باطساً ونحتقر أقواله الصحيحة . بأعيننا نظرنا الانجيل وبأيدنا لمسناه رددت أفواهنا كلماته وسمعت آذاننا أقوال الحق ولكننا عوجنا بارادتنا من سبل الاستقامة ، رفضنا التعليم والانجيل وأقوال الحكمة والعلم وكلمة الله يسوع المسيح فحسرتنا المواعيد التى استحقها لنا بدمه ، فياله من جنون فظيع أدى بنا الى هذه العاقبة المؤلمة حيث يحيط بنا العذاب من كل ناحية . نقول للجبال اسقطى علينا فهرب من امام الجالس على الكرسي ونخاف ونذوب كالشمع ، أنكرتنا الأرضى ورفضتنا السماء لأننا رفضنا خالقها وعرفتنا الجحيم وفتحت أحضانها وابتلعنا لتفى العدل الاهى . فى اخوتى الأحياء إن كانت هذه هى حالة الذين رفضوا يسوع المسيح وانجيله الطاهر أليس مجنوناً ذلك الذى يعرض نفسه للوقوع فى الهاوية التى لا يصعد منها البنى الأبد ؟ أليس عارياً من كل فطنة ذلك الذى يرى و يسمع الأقوال التى تخلصه من العذاب الأبدئ لو أطاعها وعمل بها و يرفضها ويميل عنها

معوجاً و يرفضها و يرفض واضعها ويحتقر البشرين بها ؟ أين حكمتك أيها الانسان ؟ أين فطنتك أيها التراب ؟ قاومت خالقك ورفضت أن تحمل نيره الطيب على عنقك التي قد حررها من رق العبودية . أنتتظر مخلصاً أعظم من ابن الله الوحيد الذى خلقك من العدم . فويل لك أيها التراب والدود الذى تمردت على خالقك ومخلصك .

أما نحن الأحياء أيها الاخوة فيجب علينا إذا سمعنا صوته اليوم إن لا نقسى قلوبنا لئلا يسخط علينا برجزه و يغلق أمام وجوهنا أبواب رحمته بل لتبادر مسرعين مادام معنا النور ولنسجد للرب خاشعين مذرفين دموع التوبة لئلا نهلك ونخسر الجوهرة الثمينة التى اشتراها لنا بدمه الكريم وقدها بالروح القدس وطهرها بنار محبته الالهية يكفى يا أحبائى ما سمعتم مراراً من كلمة الله إذا كانت ارادتكم صالحة ونيتكم سليمة وكنتم ترغبون خلاص نفوسكم . لأن من لا يرشد نفسه و يبتغى الصلاح من تلقاء ارادته يكل عن ارشاده الواعظون ويخفق الكلمة الالهية بأشواك أفكاره وحب ملذاته و يرى لنفسه طرقاً جديدة يسلك فيها و ينسى التاموس المكتوب و يتناسى التاموس المطبوع فى قلبه . وهزأ بما يقوله المبشرون بالانجيل لأن الارادة لا تغتصب والانسان لا يخلص إلا بارادته واختياره ، فمن أراد الخلاص والحياة فليقبل الى المسيح المصلوب ملك الملوك ورب الأرباب ، وليحتسرس من أن يرفضه كاليهود الذين برفضهم اياه حملوا أنفسهم أثقل الخطايا ووضعوا على رؤوسهم أثقل الذنوب . وليتخاشى أن يرفض انجيله الطاهر المبشر به بالحق من أفواه خدامه لأن الرب عظيم .

فمن أراد خلاص نفسه والخلود فى الحياة الأبدية فليؤمن بابن الله يسوع المسيح لأن بدوننه لا يمكن الخلاص لأنه هو وحده الشفيع والقادى الحقيقى والوسيط بين الله والناس ومن لا يؤمن به يدان وأما الذى يؤمن و يعتمد فيخلص . ومن كانت خطيئته كالجبال الشاهجة أو أكثر من رمل البحر فليؤمن وليتب عن السير فى طريقه الرديئة المعوجة فيحيا و يرث الحياة الدائمة مجاناً لأنه هو وحده القادى الحبيب وفتح أبواب رحمته فى هذا الزمان المقبول ليشفى جراحات الخطايا و يريح جميع المتعبين

إذ يقول تعالوا الى وأنا أريحكم وإن كانت خطاياكم كالقرمز فانها تبيض كالثلج .
ولكن وبل لكم إن سمعتم صوته وقسيتم قلوبكم ورفضتموه كما فعل اليهود
أو احتقرتم انجيله الطاهر وكلمته الصادقة لأن له النعمة وهو يجازى فى يوم الدين .

فمن أراد إذا أن يخلص من النار التى لا تطفأ والدود الذى لا يموت فليأت بايمان
حى وتوبة صادقة الى المخلص المصلوب ، الفاتح يدي رحمة ليهطل ندى المغفرة على
خطايا الذين أساءوا اليه وليقل :

ارحمنى يا مخلصى ارحمنى ، ارحمنى يا ابن الله يسوع المسيح المتحنن على جنسنا ،
ولا توبخنى بغضبك ولا تؤدبنى برجلك لكيا تحيا نفسى وتمجدك .

الفصل السادس والعشرون فى انه لا رحمة بعد الحكم

«تطلع من السموات وأنظر من مسكن قدسك ومجدك . أين غيرتك وجبروتك . زفير أحشائك ومراحك نحوى امتعت » (اش ٦٣ : ١٥)

كثيرون يطعمون فى رحمة الله و يظنون أنه فى تلك الساعة الرهيبية يسمع لهم نداء أو يقبل لهم توسل ، ولكن هؤلاء فى ضلال مبين لأن حكم الله عادل ومتى نطق به فلا قول ولا كلام يفيد ، فلا يفتّر أحد برحمة الله ، فقد علمنا الكتاب المقدس أن الله فى وقت المجازاة لا يشفق ولا يرحم . من الذى أغرق العالم بالطوفان ؟ من الذى دمر مدينتى سدوم وعمورة والمدن التى حولها بالنار ؟ من الذى أغرق فرعون وجنوده ومركباته ؟ من الذى اهلك اليهود بالحيات . من الذى أحرق محلة ابيرام من الذى أمر الأرض أن تفتح فاهها وتبتلع قورح وقومه . هوذا تعالى يقول « لا تشفق عينى ولا أعفوا إن صرخوا فى أذنى بصوت عال لا أسمعهم » (حز ٨ : ١٨) .

أجل انى أعلم أيها الخاطى اين تعلق آمالك . انها متعلقة بلجة تحن الله تعالى . وأنه من هذا الوجه ينبغى بالأكثر أن تخاف وتخشى لأنك تجازى بالأخص لأجل عظيم خيانتك وقلة شكرك وعدم وفائك الذى أظهرته من نحو وفرة غنى المواهب والنعم التى نلتها من لجة تحننى تعالى . فالذى تطمع فيها من صفات الله ينبغى لأجله أن يزداد خوفك لأنك إذا تصورت انه حكيم ، فالحكمة تطلب معاقبة الخائن ، وإذا تصورت أنه قادر ، فالقدرة تستوجب تعذيب المنافق ، وإذا قلت انه عادل ، فالعدل يستلزم أن يعاقب المجرم .

فلا يمكن أن نجد الخطاة هناك أدنى رحمة ولا شفقة ولا مغفرة ولا يخل بهم سوى الغضب الشديد والانتقام المريع وسماع الحكم الأخير « خذوهم من أيديهم وأرجلهم واطرحوهم فى النار الأبدية » وسرعان ما يتقدم ملائكة جبابرة عتاة ويحملون الهالكين الى المكان المعد لأبليس وجنوده . فيألفها من رعدة جسيمة تمتلك الخطاة فى تلك الساعة . ساعة يخفى عندها الصوت ويمتنع اللسان عن الكلام والعين عن النظر والأذن عن السمع . ساعة لا يستطيع فيها هايل بتقواه أن يخلص قايين ، ولا صموئيل أن يشفع فى شاول . ولا داود أن ينقذ ابشالوم . بل حينئذ يطلب الغنى من لعازر رحمة فلا تكون له ، و يلتمس هيرودس من يوحنا المعمدان شفقة فلا يجدها ، يتوسل حنان وقيافا الى قليل من الرأفة فلا يسأل أحد عنها لأن كل غادر أثم لا يرحم (مز ٥٩ : ٥) .

وبعد أن يطرح الأشرار فى جوف ذلك اللهب يحاولون الخروج من باب الجحيم فيجدونه قد أغلق وكتب عليه بأحرف من نار « لا يخرج أحد ولا يدخل أحد » فيرجعون بالخيبة وأجسادهم تتقلب فى أمواج اللهب المشتعلة ولا راحة لها . إن علت بهم تيارات النيران الى فوق فالاضطراب يلهب كما هو وإن غاصت بهم فى لجج الأعماق يحرق كما هو . وإن دفعتهم الأمواج المشتعلة الى هنا أو هناك فحرارة النيران كما هى . وعندما يرون أن لا سبيل الى نجاتهم يصرخون بمرارة و يكون بدموع حارة و يقعون فى أشد الندامة و يتفوهون بأحزن العبارات قائلين :—

أين الموت ! أين الهلاك ! لماذا يهربان منا ؟ النار تحرقنا ولا نموت . والدود يلدغنا ولا يبسيدا . ياليت أجسادنا كانت وقوداً فتأكلها النار وتنتهى . ياليت أرواحنا كانت مواداً قابلة للالتهاب فتشتعل باللهب وتنقضى . و يلاه من يشفق علينا ! من ينجينا من الموت ومن يرحمنا فيبنا الاعدام . يال للشقاوة المؤبدة ! يال للعذاب الحار ! أين رحمتك يا الله ؟

ما هذا التغير الذى طرأ عليك يا الهنا . أين ذلك القلب العطوف . أين ذلك الاله الذى كان يرق على الخطاة مهما أثموا . أين الاله الذى كان يبذل كل خير حتى لأشر الناس . أين ذلك الاله الذى كان يقول « ذوقوا وانظروا ما أطيب

الرب « (مز ٣٤ : ٨) .

فيجيهم الديان العادل والمنتقم الجبار قائلاً :-

وأسفاه عليكم . ألم تكن الرحمة في أيديكم والنعمة قربة منكم والخلاص مقدم لكم . لقد دعوتكم الى ذلك بيدى التى ثقت بالمسامير حباً فيكم فازدر يتم برحمتى واستخفتم بالنعمة واحتقرتم الخلاص وكم من مرة قرعت أبواب قلوبكم كسائل فأوصدموها فى وجهى . أطلت أنأتى عليكم فتقسيتم ، أظهرت غنى لطفى فعصيتم ، قدمت لكم فيض نعمتى فتمردتم ، ولأنى عالم بأن قساوتكم ستجركم الى هذا العذاب الأليم تخننت عليكم وزرفت عيناي الدموع لأجلكم ورق قلبى لكم فاستهزأتم بحببتى واستهنتم بالأمى حتى تحولت رحمتى قساوة ورقتى جفاوة وحنانى جبروتاً فتعذبوا الآن بلهيب تهاونكم وبنار قساوتكم . اننى لم أتعير أياً الاشرار ولكنكم أنتم الذين قد غيرتمونى بمساوتكم وخيانتكم . اننى كنت لكم محباً ومحبتى كانت تغلب على عدلى ، أما هنا فعدى يتغلب على محبتى . ولأنكم احتقرتم هذا الاله الجواد الذى أحبكم ومال اليكم فهو كذلك الآن يحتقركم ويوجه محبته الى غيركم .

أنظروا الى أولئك الأبرار والقديسين فعليهم وحدهم أبيض حيبى وأسكب رحمتى وحنانى .» .

فيجيب الأشرار . ولكن أتركنا يالله هكذا فى وسط هذه النار ! إن العذاب شديد لا يطاق . ألسنا نحن صورتك وعمل يديك ! وكيف لا ترق لدموعنا وزفراتنا ولا تنظر لحالنا وترثى لشقاوتنا . أنظر يالله الرحمة بعين الرأفة الى أجسادنا كيف تتقلب فى نار لا تحتملها حتى الحجارة الصلدة . تعطف علينا أياً السيد . امنحنا يسيراً من حنوك وقليلاً من مراحمك ، أندوم هنا فى هذا الشقاء ؟ مظلومون يارب . أنت معروف بالرأفة أتدفعنا الى الأبد فى نار متقدة ملتهبة ودود لداع لا يموت وظلمة خارجية قاتمة ؟ « أين مراحمك الأول » يارب (مز ٨٩ : ٤٩) ارحم ياربم الراحين .

فجيبهم الديان العادل قائلاً :

أجل لقد خلقتكم على صورتي ومثالي . ولكنكم أهنتم صنع يدي وأفسدتموه
حيث لا أرى فيكم الآن السمة التي كنتم متمسكين بها حين خرجتم من بين يدي .
محوتم الصورة التي كانت تميزكم عن سائر المخلوقات . جعلتكم أبناء فصيرتم
أنفسكم عبداً للخطية . ولذلك فاني لا أنظر لكريبكم ولضيقنكم لا أهتم فكما
قسيتم قلبكم على كذلك تقسى قلبي عليكم فعبثاً تكون وتتهدون .

« يا قوم انى ما ظلمتكم قط بل أنتم الذين ظلمتم أنفسكم . لقد رحمكم أبى
وأشفق عليكم ولم يشفق على أنا ابنه الحبيب ولما أتيت لخلاصكم لم تشفقوا على بل
رفعتمونى على صليب العار وفي ضيقتى لم ترقوا لحالى بل زدتم قساوة . ولبثت
أتحمل عذاب أيديكم وعذاب سيف العدل الالهى الذى كان يزق أحشائى حتى
تقطع قلبى فى داخلى وذابت أمعائى من حرارة العذاب الأليم كما يذوب الشمع
أمام النار . كل ذلك احتملته لأجل فدائكم وجباً فى خلاصكم من عذاب
الجحيم .

فن أجلكم أنتم يانا كرى الجميل قاسيت كل ذلك فما الذى فعلتموه لمكافأتى !
بل أى شئ لم تفعلوه من الخطايا والشور لتهينونى به ، ألم تزدروا باسمى ؟ ألم
تستهزئوا بكلامى ؟ ألم تدنسوا دمي الكرم الذى سفك لأجلكم ؟ هل طلبت منكم
أمراً صعباً ؟ هل سألت منكم أشياء عظيمة مكافأة لى على عملى هذا ؟ لا . إنما
طلبت منكم أن تمجدوا اسمى فقط .

وطلبت منكم فى أثناء فاقتى ثوباً بالياً أتزر به ، وسألت منكم عند جوعى
رغيفاً واحداً أسد به رمقى فبددتم خيراتكم فى الملاعب والملاهى والمعاشرات
الرديسة ولم ترضوا أن تعطونى ما طلبته منكم وهوزهيد . فهل كنت أستحق منكم
هذه المكافأة ؟ أهكذا كان ينبغي أن تكافئوا محبتي بأن تجبوا كل شئ أكثر منى ؟
من أجلكم تجسدت . من أجلكم مشيت على الأرض ظاهراً . من أجلكم جلدت .
من أجلكم بصق على وجهى . من أجلكم صلبت مرفوعاً على خشبة العار . من

أجلكم سميت خلاً . وهبت لكم الملك الذى لى . أعطيتكم الفردوس . دعوتكم وأحضرتكم لى . قربتكم الى الله الآب وأرسلت لكم الروح القدس « ماذا يصنع أيضا لكرمى وأنا لم أصنعه له » (اش ٥ : ٤) فقولوا لى ماذا احتملت من أجلى وماذا قدمتم اكراماً لى ؟

« لم أطلب منكم تلقاء ذلك أشياء صعبة لا تطيقون القيام بها بل توبة خالصة بايمان صحيح فلم تملوا الى ولم تتوبوا ولم تشفقوا على أنفسكم بل احتقرتم كلامى واستهزأتم بمواعيدى وتوعداتى . قلت لكم « إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٣ و ٥) وأعلنت لكم رهبة الدينونة وشدة العقاب فهزتم رؤوسكم وقلتم « يوم الله يعين الله » . صرحت لكم بوجود نار أبدية معدة للخطاة فضحكتم وتجاهلتم وقلتم إنما هو كلام . أين تكون تلك البحيرة النارية أفى الأرض أم فى السماء ؟ فما أجهلكم هل تأكدتم الآن أنه توجد نار أبدية ؟ هل تحققتم العذاب فعلاً ؟ إذا فاحضعوا للقضاء واحتملوا هذا الشقاء الذى جلبتموه على أنفسكم بالقساوة والتهاون : هل أنتم مظلومون ، كلا بل أنتم للفصاص بعدل مستحقون .

فإذ يعلم الخطاة أنهم مستوجبون العقاب ، ولا حق لهم فى المناقشة والجواب ، يقولون : نعم يارب انك لم تظلمنا بل نحن الذين ظلمنا أنفسنا . نعترف أننا قضينا حياتنا غير عارفين احسانك كم قسوننا وتصلبت قلوبنا حتى اننا لم نكن نرضى أن نقبل باسمك فقيراً واحداً فى منزلنا ولا نتصدق عليه ، بل صرفنا حياتنا فى اغاظتك واهانتك . وعلى ذلك فنحن مستعدون الآن أن نفث أمامك ونبكي بحرقة على ذنوبنا ونندم على خطايانا ونغسلها بدموع غزيرة . أفلا نستحق تلقاء ذلك رافة ولو جزئية ، وحنواً لو كان يسيراً للغاية ؟ ألا يكفى العدل بما احتملناه من هيب النار وبما قاسيناه من اضطرامها ويخرجنا من هذا العذاب . أشفق علينا يارب كل الشفقة .

فيقول الرب لهم « آه أيها الناس . انكم تريدون أن تقدموا ثمراً فى غير أوانه وتطرحونه فى غير وقته . كم طلبت منكم أن تصنعوا ثمراً تليق بالتوبة (مت ٣ : ٨) فأبيتم . وكم أمهلتكم سنة بعد أخرى عليكم تثمرون قبل إن اقطعكم

(لو ١٣ : ٩) فكنتم لى كشجرة يابسة بينا كنتم للخطية شجرة حية . تظهرون البخل من نحوى والسخاء من نحو الشيطان ؟ صلواتكم الآن لا أقبلها . وتضرعاتكم لا أسمعها . ودموعكم لا ألثفت إليها .

« وكيف أخرجكم من مكان عذابكم ؟ هل ينبغي أن أجمع لفيماً مشوهاً بكل أدناس الخطايا ونجاستها وأدخلهم الى مكان قدسى الطاهر ليسكنوا مع الأتقياء الاطهار التائبين و يقيموا بين الملائكة والقديسين . ألم تعلموا أنه لا يدخل ملكوت السموات شئ دنس ولا ما يصنع رجساً أو كذباً (رؤ ٢١ : ٢٧) فكيف أرحمكم وأنتم عالمون بقداسة المكان وقد تقرر أنه بدون قداسة لن يرى أحد الرب (عب ١٢ : ١٤) .

فيقولون : « نعم أيها السيد نقر اننا لا نستحق الرحمة واننا لسنا أهلاً لها وخطايانا تشهد علينا ، إنما نتوسل اليك فى أمر واحد وهو أن تسحقنا وتردنا الى العدم إن كنت لا تشأ أن تخلصنا . انزع أرواحنا من أجسادنا ومزقها ارباً وكذلك افعل بأجسادنا حتى تتلاشى وتنتهى دفعة واحدة ولا تتركنا فى هذا العذاب . نتوسل اليك يارب أن تستجيب . نسألك أيها السيد الرحمة . أأنت أنت الصديق الامين ؟ » .

فيجيبهم الاله « أيها القوم انى خلقتكم لمجدى لمجد رحمتى ولمجد عدلى . فبما انكم احتقرتم أن تمجدوا رحمتى فلا بد لكم من أن تمجدوا عدلى الى الأبد . انى أعلم شدة عذابكم ولو أجبتمكم الى طلبكم لكان ذلك منتهى الرحمة منى عليكم . ولكن هيات ثم هيات أن يجاب طلبكم ، أنا الرب لا أغبر وعدى ولا أنسخ توعدى وكما انى لا أنغير فقضائى لا يتغير . ألم أبذل نفسى كى أخلصكم من هذه النيران . ألم أدعوكم للتوبة مظهراً لكم أهوال الهلاك وعذاب جهنم فكيف يلتمس الآن لكم عذر ؟ لولم أكن قد جئت وكلمتكم لم تكن لكم خطية وأما الآن فليس لكم عذر فى خطيتكم (يو ١٥ : ٢٢) أما أخبرتكم إن الدينونة لا تتوانى والهلاك لا ينعس (٢ بط ٢ : ٣) كل ذلك وأنتم فى غيكم تعمهون غير مباليين ولا مكترئين . لو كان عدل الله ينسخ أو يحكمه يتغير لجرى ذلك بالأحرى معى أنا ابنه الوحيد موضوع مسرة

فؤاده ولذة قلبه حينما تطوعت لأتحمل عقاب خطاياكم . انه حجب وجهه عنى عندما وضعت موضعكم ومع أن طلباتى لديه كانت مقبولة إلا أنه حينما دنت ساعة الدينونة لم يلتفت الى مع أن صراخى كان يذيب الجمار وأنا أدعو على الصليب مستغِيثاً قائلاً « إلهى إلهى لماذا تركتنى » فلم يسمع ندائى وتوسلى بل تركنى أشرب الكأس حتى الثمالة . فإذا كنت أنا حبيبه القدوس المطيع له لم يرض عدله إلا أن ينفذ حكمه فى فاذا تنتظرون أنتم يامن قضيتم حياتكم تتمردون عليه وتعصون أوامره ؟ أنتم الذين جرحتم فؤداى بأثامكم وأحزنتم روحى بتهاونكم .

فيقولون : ولكن إذا كنت أنت أيها السيد الكرم قد تفضلت بالموت عنا لعدائنا وسفكت دمك الكرم مطهراً ومخلصاً من الخطية ومنحنتنا نعمتك بلا ثمن ، فلماذا هذه القساوة علينا الآن ونحن لم نعهدها فيك ؟» .

فيجيبهم قائلاً « نعم . إن دمي يطهر ونعمتى تخلص ، وكثيرون تطهروا بالدم وخلصوا بالنعمة ولكن بالتوبة والايان . أما أنتم فلم تهتموا بالتوبة ولم تبالوا بالايان فحسرتم التطهير وحرمتم الخلاص . وهل كنت أظهركم وأنتم منغمسون فى دنس الزنا والسكر والنجاسة التى لم تشاءوا تركها ؟ وهل كنت أخلصكم بينما أنتم متهافتون على المطاعم وغرور الغنى وأباطيل العالم ولم ترغبوا الخلاص منها ؟

فيقولون : ولكن ألا يمكنك بما لك من سعة الرحمة وعظم الشفقة أن ترسل لنا الآن ولو قليلاً من الماء لتبريد ألسنتنا المعذبة فى هذا اللهب ؟ .

فيجيبهم : لقد كان أمامكم وفى استطاعتكم أن تنالوا الخلاص من هذا العذاب وتمتعوا بما يتمتع به أبرارى فى ملكوت سمواتى ولكنكم اخترتم لأنفسكم الشر مع العذاب فستدومون فيه ، رفضتم الخير مع المجد الأبدى فحرمت منه . جعلتمونى أنا الحبيب خصمكم واتبعتم غواية ابليس وخداع الخطية وغرور العالم ومن الغريب أنه ليس أحد يتوب عن شره قائلاً « ماذا عملت ؟ » (ار ٨ : ٦) استهنتم بلطفى وطمعتم فى طول أناتى . هذه صنعتموها وسكت . ظننتم انى مشلكم . أو يخكم واصف خطاياكم أمام عينيكم . افهموا هذا ياأيها الناسون الله لئلا أفرسكم ولا منقذ (مز ٥٠ : ٢١ و ٢٢) .

فكما أصدتكم الى أذنى صراخ خطاياكم وصياح آثامكم واغظتمونى بدميم أفعالكم وذنس لذاتكم فليصد الآن صراخ عذابكم وصياح الآمكم « لأنى دعوت فأبيتكم ومددت يدى وليس من يبالى . بل رفضتم كل مشورتى ولم ترضوا توبيخى . فأنا أيضاً أضحك عند بليتكم . اشمتم عند مجئ خوفكم . إذا جاء خوفكم كعاصفة وأنت بليتكم كالزوبعة إذا جاءت عليكم شدة وضيق حينئذ يدعونى فلا أستجيب . يبكرون الى فلا يجدونى لأنهم أبغضوا العلم ولم يختاروا مخافة الرب . لم يرضوا مشورتى . ردلوا كل توبيخى . « لذلك يأكلون من ثمر طر يقهم ويشبعون من مؤامراتهم . لأن ارتداد الحمقى يقتلهم وراحة الجهال تبيدهم » (ام ١ : ٢٤ - ٣٢).

« ما كان أحكمكم فى الشر والخبث والمكر والرياء والحقد والمذمات حتى ملأتم مكيبال آثامكم أيها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم (مت ٢٣ : ٣٣) لماذا تتضجرون من عقاب ما جنته أيديكم ومن احتمال دينونة الشر الذى ارتكبتموه ضد ارادتى .

قد صورتكم وأبدعتم وأنتم التصقتم بغيرى . خلقت لكم السموات والأرض وما فيها وأنتم صيرتموها لاحتقارى خلقت لكم سمعاً لتسمعوا ما تقوله الكتب المقدسة وأنتم اصغيتم الى الأغاني السمجة والحزافات الباطلة . أبدعت لكم نظراً لتبصروا نور أوامرى وتعملوا بها وأنتم فتحتم أعينكم الى كل دناءة وقيح . وضعت لكم فماً لتمجدونى وترتلوا المزامير الروحية وأنتم تصرفتم به للولائم والشراهة والخبث والتجديف وأصلحت لكم الأيدى لتبسطوها الى التضرع وعمل الخير وأنتم مددتموها الى الخطف والضرب والسلب .

« كانت أبواب كنائسى مفتوحة على الدوام وصاياى تنلى فيها كل يوم فلم تسمح لكم شروركم ومطامعكم بالذهاب اليها لتسمعوا كلامى وتحفظوا أقوالى . ولكن عندما كنتم تدعون لعريس أو وليمة كنتم تركضون اليها مسرعين وتذهبون اليها . كنتم تفضلون السعى وراء خيرات العالم عن سماع مشورتى فأين الأموال التى اقتنيتموها وأين البيوت المشيدة التى أفتوها ؟ أين الترفه والتنعيم . أين اللذات

والمأكل والمشرب التي تمتعتم بها ؟ يا لشقاوتكم .

والنساء أيضا كن يسمعن خدام كلمتي فلا يهمن من ذلك شئ ولكنهن كن يسرعن في مشتري الملابس والحلي وكامل أسباب الزينة . فأين الآن الملابس الأنيقة المزخرفة وأين الحلي والجواهر الكريمة ؟ أين الجمال الفتان والبهجة ؟ بالتعاستن .

« وأنت أيها الشيخ بماذا تعتذر وبأى كلام تحيب . هل لم يكن لديك وقت كاف لكي تتوب وترجع التى . لقد صبرت عليك وقتاً طويلاً وأطلت فى أجلك ولكنك قضيتته فى مزاوله الأعمال التي لا ترضيني فارتكبت المعاصي وأتيت الموبقات . فكيف تلتمس رحمة الآن . ألا تنجبل ألا تستحي !!

وأنت أيها الشاب . ألم أقل لك على لسان الحكيم « اذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتي أيام الشر أو تجئ السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور » (جا ١٢ : ١) .

لماذا أهملت ؟ قد كنت تؤجل وقت التوبة منتظراً أيام الشيخوخة لكي تتوب فيها . قد كنت تروم أن تعطى ابليس زهرة شبابك وأما أنا فتقدم لى فضلة عمرك . هل لك حجة على . ألم أوفر لك أسباب القوة والصحة لكي تستخدمها لارضائى فخدمت بها رغائب الشيطان . هل يوجد عندك جواب على ذلك !

وأنت أيها المرأة أى شئ أعاقك . هل تقولين اننى كنت مشغولة بالزينة والأمور الفارغة ألم أقل لك إن الزينة الحقيقية هى طهارة القلب . هل لك عذر !

وأنتم أيها الاغنياء بماذا تعتذرون . لعلكم تقولون إن انهما كنا فى جمع المال لم يسمح لنا أن نتوب . انعطفوا الى أموالكم إذأ ، بما انكم اتخذتموها إلهاً لكم عوضاً عنى فلماذا تطلبون منى رحمة ؟ التمسوها من أموالكم لعلها تخفف لوعتكم . يباويلكم ألم أوضح لكم خطر محبة المال . ألم أقل لكم إن محبة المال عداوة لى (يع ٤ : ٤) « هلم الآن أيها الأغنياء ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة . غناكم

قد تهرأ وثيابكم قد أكلها العث . ذهبكم وفضتكم قد صدنا وصدأهما يكون شهادة عليكم و يأكل لحومكم كنار» (يع ٥ : ١ - ٣).

أفلا تستحقون اذن الجزاء عدلاً والقصاص حقاً . هل فى قضائى ظلم !.

فَعَندَما يَسمَع الأشرار هذه الأقوال المحزنة المخيفة و يعلمون أنه قد انقطع كل رجاء فى نجاتهم وبلغ اليأس منهم مبلغه و يتأكدون انه قد قضى عليهم نهائياً بالعذاب المؤبد و يذكرون قول الله : « اضحك عند بليتك و اشميت عند مجي خوفكم » و يتم قول المرتل « الساكن فى السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم » (مز ٢ : ٤) يرفعون عيونهم الى الله وهم فى هاوية العذاب و يشاهدون الله ينظر اليهم ضاحكاً مسروراً وهم يتقبلون فى النار عند ذلك يشتد حزنهم و يكادون يتمزقون من الغيظ فيصرخون حينئذ نائحين باكين من أعماق أفئدتهم قائلين « أنحن نحزن و الله يضحك علينا . أنحن نتعذب و الله يستهزئ بنا : أيها الاله ضعاف النار أضعافاً : قوا أجبنها ما شئت واعدل عن الاستهزاء بنا فإن هذا الاستهزاء أمر علينا من عذاب النار و أشد و خزراً من لدغ الديدان ، لماذا لا تحوى جهنم أباراً أعمق نسقط فيها و نهرب من وجه الهنا العادل . لقد غرنا كثيراً من قال إن عذابنا الاعظم سيكون فى مشاهدة اله غضوب و كان الاولى به إن يقول لنا انه سيكون فى مشاهدة وجه اله ضاحك . اننا نريد الآن أن تقع الجبال علينا أو تنفتح الأرض و تبتلعنا لنستتر عن وجهه : أين هى الظلمة التى قيل لنا عنها « محفوظ لها قتام الظلام الى الأبد » (يه ١٣) لماذا لا نغطيها من وجه الله الهازئ بنا . آهاً لشقائنا لأن الشئ الذى يؤلمنا نراه جلياً و الذى نريده لا نراه مطلقاً .

وإذ لا يجد الأشرار بأيديهم سلاحاً يحاربون به اله السياء يعكفون على أنفسهم فيقطعون شعورهم و يصفون وجوههم و يضربون أجسادهم و يصرون على أسنانهم بحرقه و كل ذلك يزيد فى عذابهم و آلامهم . وفى ذلك قال الراى « وكانوا يعضون على أسننتهم من الوجع » (رؤ ١٦ : ١٠) بل يبتغون أن يقوروا عيونهم حتى لا يبصروا من يستطيع أن يعذبهم وهو يضحك عليهم ولكن مها بكوا و ولولوا لا يستطيعون أن يجبوا عن نظرهم مشهد عرش الله و وجهه يتلأل بالاستهزاء بهم .

فكم يشتم غيظهم وكم يعظم تجديفهم . أكثر فأكثر لا سيما كلما يرون ذلك الاله العادل جالساً على عرشه المهيب لا يلين ولا يضجر من عذابهم وتمررهم بل يستمر ضاحكاً ومستهنئاً بهم هكذا تم قول موسى النبي « وكما فرح الرب لكم ليحسن اليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم ويهلككم » (تث ٢٨ : ٦٣) .

وماذا يفعل الأشرار حينئذ . سيصرخ كل واحد منهم قائلاً « لأن أيامي قد فويت في دخان وعظامي مثل وقيد قد يبست . ملفوح كالعشب و يابس قلبي حتى سهوت عن أكل خبزي . من صوت تنهدى لصق عظمي بلحمي » (مز ١٠٢ : ٣ ، ٥) أجل : سيصرخون قائلين « ماذا كسبنا من كثرة التنعم والترفة ؟ وماذا انتفعنا من التلذذ والتنزه سوى هذا الدود الذي لا ينم . وماذا ربنا من تذليل هذه البشرة وملاطفتنا اياها واراحتنا لها ؟ ماذا استفدنا من الترف والمجد الفارغ . وماذا كسبنا من الثروة والغنى الزائد ؟ ها هي عبرت وجازت كال دخان وبقيت لنا الخطية التي ولدنا فيها وهوذا نحن نلتهب الآن محترقين من جرائمنا . وأية فائدة استفدناها من هذا الجسد الملعون النتن الذي خضعنا لارادته وهواه منذ حدثتنا . وكنا نرفهه ونخدمه بالسكر والزنا والفسق والمشاحنات الكثيرة والعداوة المستديمة . ماذا استفدنا من خدمته سوى هذا اللهب الذي تنقلب فيه الى أبد الابدين .

« ياليتنا كنا خلقنا بلا عيون ولم ننظر نظرة شريرة . أوجبنا بلا آذان ولم نسمع كلمة باطلة . وبلا ألسن ولم ننطق كلمة رديئة . ياليتنا ولدنا مقعدين ولم نخط خطوة واحدة في سبيل الخطيئة . ليت ما كانت لنا قلوب اشتهت الشرب ليتنا ما خلقنا أصلاً وليت أمهاتنا ما ولدتنا لأجل عذابنا هذا ، فإذا كان أيوب من آلام هذه الحياة الهينة القصيرة ضج وصرخ قائلاً « ليت هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبل برجل . ليكون ذلك اليوم ظلاماً : لا يعنن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار . لأنه لم يعلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني لم لم أمت من الرحم . عندما خرجت من البطن لم لم أسلم الروح » (أي ٣ : ٣ و ٤ و ١٠ و ١١) فبماذا تتصور يكون ضجيج وصراخ ندامة الأشرار في الجحيم .

سيلعنون البطون التي حملتهم والأيام التي ولدوا فيها واللبن الذي رضعوه والشمس التي أشرقت عليهم والنسيم الذي استنشقه والوالدين الذين تغاضوا عن تربيتهم والشيطان الذي أغراهم والخطية التي خدعتهم ويعترفون بخطاياهم التي أوصلتهم الى هذا العذاب . سيسمع قايين يعترف للهالكين باثمه الفظيع حينما قتل أخاه وقد كان أنكره على الله ، وسيعترف كل خاطئ بفضاعة الشر الذي ارتكبه وهو لم يكن يدري أنه شنيع .

قال السيد المسيح عندما كان حاملاً صليبه ورأى نسوة كن يطمئن و ينحن عليه « يابنات اورشليم لا تبكين على بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن لأنه هوذا أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدى التي لم ترضع » (لوقا : ٢٣ و ٢٨ و ٢٩).

أجل : وستكون ندامة الأشرار بالأخص على نعمة الله التي وهبت لهم واقتربت منهم ولكنهم رفضوها واحقروها . سيصرخون بمرارة « لقد كان الخلاص بين أيدينا وكان نواله سهلاً علينا فاستهنا به ، وكانت التوبة مدروكة لنا فاستخففنا بها . لم نكثرث بالأخرة ولم نبال بالعقاب ، ولكن ماذا تفيدنا الندامة الآن ».

قال خادم : انى رأيت فى حياتى مجنوناً لا يتكلم إلا كلمة واحدة وهى « ياليتنى » فإذا تكلمت يمدق اليك بنظره حتى تظن أن مقلتيه كادتا أن تخرجا من وجهة وحينئذ يصرخ بصوت عظيم « ياليتنى . ياليتنى » فهذا المجنون كان قبل أن يبجن حارس جسر فى الطريق الحديدية وكانت وظيفته أن يفتح الجسر لمرور المراكب ويغلقه لمرور مركبات البخار . فى أحد الأيام أتت اليه برقية بأنه فيما بين الساعة كذا والساعة كذا سيمر على الجسر قطار يحجر عدداً من المركبات فعليك أن تبقي الجسر مغلقاً ولكن لم تحدد له اللحظة التى سيمر فيها القطار بالتام . وكان هذا الحارس أميناً فى عمله مطيعاً لأوامر رؤسائه فأتى اليه كثير من أصحاب السفن يطلبون منه إن يفتح الجسر لقرسفنهم فلم يجهم الى طلبهم وأخيراً أتى اليه أحد أصحابه الذى كان رباناً لسفينة صغيرة وطلب اليه بالحاح شديد أن يفتح الجسر

لمرور سفينته فأستمع له وشرع بفتح الجسر وبينما هو يعمل ذلك إذا بصغير القطار قد دوى فاضطرب ولم يمكنه حينئذ أن يعمل شيئاً ما ، فلا هو بقادر أن يفتح الجسر لمرور السفينة ولا أن يقفله لمرور القطار والمركبات لأن الرعب أخذ منه مأخذاً وربط يديه عن العمل وكان يصرخ قائلاً « ياليتنى . ياليتنى » ومن ثم كانت النتيجة أن سقطت جميع المركبات وتحطمت وهلك جميع من فيها . ومن ذلك الوقت أصيب ذلك المسكين بالجنون وكانت نهايته سيئة جداً .

ليت كل انسان تغريه الخطية على الاستمرار ولو لحظة واحدة من الزمان يعرف ذلك حتى لا يدع نفسه تصرخ بلا فائدة فى قاع الجحيم « ياليتنى . ياليتنى » .

الفصل السابع والعشرون فى صعوبة العذاب الأبدى

«من منا يسكن فى نار آكلة ، من منا يسكن فى وقائد أبدية» (اش ٣٣ : ١٤)

لما أراد الله أن يظهر رحمته أظهرها بطريقة أذهلت الناس حتى أن كثيرين لم يصدقوها . هكذا إذا أراد أن يظهر عدله فيسيظهره بطريقة تخفى على عقول الناس . فلا تتصوروا أن عذاب جهنم سينحصر فى الخسارة والعار والسجن والأسر والجلد والموت ، تلك الأمور التى لا تتحملها فى هذا العالم ولا نطقها . لأن كل عذاب العالم اخترعه البشر لا يقاس بالعذاب الذى أعده الله للإشرار الهالكين . إن الثيران النحاسية اخترعها بارتس ، والكراسى الحديدية استنبطها ثكليس ، وأوجد المصرىون نوع العذاب المر وهونقب الأظافر بقصب محرف . واخترع نيرون تلبس البشر جلود الوحوش والقاءهم الى الكلاب الكاسرة . واخترع مكنتيوش ربط الأحياء بجثث الموتى ليأكلهم الدود وهم أحياء . هذه كلها كانت آلات للتعذيب من اختراع البشر . وإذا كنا نعتبر ما يخترعه الانسان للتعذيب قاسياً ، فكم تكون قساوة تلك العذابات التى يعدها الله للإشرار إن أنواع العذاب الموجودة فى العالم لو اجتمعت كلها فوق رأس انسان تكون كنقطة صغيرة من بحر إذا ما قورنت بعذاب الآخرة .

قال الله على لسان حزقيال النبى «فلا تشفق عيني ولا أعفوبل أجلب عليك كطرقك ورجاساتك تكون فى وسطك فتعلمون انى أنا الرب الضارب» (حز ٧ : ٩) فما أعظم العذاب الذى سيحل بالخطاة لا سيما لأن الله أعده ليكفر بمعاقبتهم عما تناول مجده من الالهانة بسبب خطاياهم وإذا أردنا أن ندرك شدة عذاب جهنم فعليتنا أن نتأمل فى باقى الكلمات الالهية . وكما أن عقولنا أقصر من

أن تدرك صفة واحدة من صفات الله فهي أيضا أضعف من أن تدرك كيف يعاقب الله الأشرار . إذا تجاسر رجل ولطم رجلاً فقيراً يكون عقابه خفيفاً . أما إذا لطم رجلاً شريفاً يكون عقابه أشد وأعظم . ولكن إذا اتصلت به الجسارة فلطم الملك فكم يكون انه سيرهم بشدة ذلك العقاب مقدار عظمة مجده وكم كان ينبغي أن يطيعوا أوامره .

أجل أن الأشرار حينما يطرحون في جهنم يستحوذ عليهم العذاب و يتملكهم امتلاكاً لأن حواسهم وأعضاءهم وكل قوى نفوسهم الروحية تستولى عليها المرارة والألم والشقاء واللعنة . وكل عضو من أعضائهم يصيبه من الألم ما لا حد له . قال الرائي «فهو أيضاً سيسرب من خر غضب الله المصوب صرفاً في كأس غضبه و يعذب بنار وكبريت أمام الملائكة والقديسين وأمام الخروف» (رؤ ١٤ : ١٠) .

فالأعضاء التي كانت آلة في يد الخطيئة تكون آلة في يد العذاب ، وكل شهوة كانت تلذ لأي عضو من أعضاء الجسد تحمل محلها نقمة وشدة تعذباته ، فحاسة النظر التي كانت أتمن حواس الانسان والتي كان يشتهي بها إن يتطلع الى كل جميل وهيج سبتسلى بالظلام المدلم « أرض ظلام مثل دجى ظل الموت و بلا ترتيب و اشراقها كالدجى » (أى ١٠ : ٢٢) .

قال القديس يوحنا ذهبي الفم «لأنه من شدة الظلام الحالك المستحوذ هناك لا يقدر المقيمون أن ينظروا شيئاً أو أن يتبينوا من فى جانبهم بل كل واحد يعاقب على حدة ، ولو قيل إن هناك ناراً وهيباً فانه لا اشراق لها بالفعل بل الكائنون فيها يحترقون فى ظلام وهم لا يستنيرون ولا يحمد عنهم اللهب » فيتم عليهم قول أيوب الصديق « يتلمسون فى الظلام وليس نور و يرتجهم مثل السكران » (أى ١٢ : ٢٥) إن الذين يحكم عليهم بالبقاء فى مكان مظلم ولوسنة واحدة يفضلون الموت على الحياة فكم بالحرى الذين يحكم بقائهم الى الأبد فى ظلام دامس !

العيون التي طالما تطلعت الى الوجوه الحسنة ستنفجر منها هناك ينباع دموع

دائمة لا تنضب . قال أحدهم : « ولكن النيران تحرق تلك الدموع فيكون الشرير باكباً ومعتراً في آن واحد » وقال آخر « إن الله يعطى الهالكين بين آن وآخر شيئاً من الضياع في جهنم لكي يروا بواسطته صور الشياطين الخيفة وأشكالهم المرعبة وأدوات عذابهم المرعبة ليزداد شقاؤهم وحزنهم وألمهم » .

وحاسة الشم التي كان يلذ لها أن تتنسم الروائح الزكية والطيبون النقية سيكون عذابها عظيماً لشدة ما تشتمه من النتانة المتصاعدة من جثث المعذبين وإذا كان التصاق انسان حتى بجثة انسان ميت كافياً لهلاكه نظراً لشدة نتانة رائحته فماذا يعمل الخاطئ والروائح النتنة التي تصعد من جثث الهالين تحيط به من كل ناحية . « لو أخرجت جثة من جهنم لأفسدت رائحة المسكونة كلها » .

وماذا أقول عن عذاب اللسان الذي نرتكب به خطايا كثيرة كالكذب والوقعية والمكر والسب والذي طالما أطلقناه بغنى ويطرب . إن الغنى بقوله « ياأبى ابراهيم ارحمنى وأرسل لعازر ليليل طرف اصبعه بماء و يبرد لساني لأنى معذب فى هذا الدهيب » (لو ١٦ : ٢٤) يصف لنا أن العضو الذى سيصيبه من العذاب أشده هو اللسان .

أولئك الذين تنعموا فى هذه الحياة بالغنى والمراتب ، أولئك الذين كانوا إذا طلبوا طعاماً أحضرت لهم المأكولات على اختلاف أنواعها شهية ودسمة . وإذا طلبوا شراباً قدمت لهم الأقداح المملوءة بما لذ وطاب ، تراهم حينئذ يلمسون قليلاً من الخبز فلا يجدون و يتوسلون الى نقطة ماء بارد فلا يعطيهم أحد .

وحاسة اللمس التي بها نضرب غيرنا ونشهر الأسلحة على بعضنا ونسفك دماء الأبرياء ونوقع بها الصكوك المزورة سيكون عذابها شديداً بلامسة كل شئ جرح ومؤلم ومخيف .

وكذلك يتعذب الانسان فى قوة ذاكرته وفكره . ذلك الفكر الذى كان يطلق له العنان ليتأمل فى لذة الحظيئة سيتعذب هناك كلما تذكر الزمن الذى أضاعه ، والنعمة التى فقدها ، والنعيم الذى خسره .

وأخيراً يتعذب فى أنه لن يجاب الى طلب ما ، فإذا أراد الخروج فممنوع عليه وإذا طلب الراحة فلن يدرکہا وعليه أن يقضى هكذا فى العذاب الى أبد الآبدین . النار تحرقه والدود يلدغه . هناك ينوح و يتوجع وليس من يرحم . هناك الآلام المبرحة وليس من يشفق . هناك الحريق المعبذب وليس من مرهم يخففه . العطش الشديد وليس من يرويه ، الجوع الكالب وليس من قوت يسده . الحزن العميق وليس من رقاد يسكنه . العار الفاضح وليس من نقاب يستره .

أسفاً على أولئك الذين أرنخوا لأنفسهم هنا عنان الشرور والشهوات فانهم هناك يقيدون بقيود أبدية تحت الظلام (يه ٦) لقد قضى قديماً على مدينتى سدوم وعمورة والمدن التى حولها بالاحتراق بالنار والكبريت . ولكن الذين أحرقتهم النيران فى سدوم وعمورة ماتوا واستراحوا من العذاب ، والنار بالطبع انطفأت . ولكن ما أمر نار غضب القدير . فانها فى جهنم لا تطفأ على الدوام وأجساد الخطاة تلتظى بها الى الأبد . لما غضب الله على هيرودس الملك ضربه ملاك الرب بدود فصار يأكله الدود ومات (اع ١٢ : ٢٣) فإن كان الذى قضى عليه بأن يموت على هذه الحالة اعتبر موته هذا تعذيباً له فما بال الذين يأكل فيهم الدود الجهنمى ولا يموتون كما أن الدود نفسه لا يموت .

وفى المستقبل يقضى الله على العالم بضربات شديدة معينة من ضمنها ضربة جراد لدغ يعذب الناس وعذابه كعذاب العقرب إذا لدغ انساناً . وحرارة لدغاته يطلب الناس الموت فيهرب الموت منهم ولا يجدونه . ثم ضربة خيول رؤوسها كـرؤوس الأسود وتخرج من أفواهها ناراً وكبريتاً تعذب الناس بها ولها أذنان تشبه الحيات ولها رؤوس وبها تضر (رؤ ٩ : ٣-١٩) فإن كان عذاب الجراد الذى يلدغ بأذنابه الحادة وعذاب الخيول التى تحرق بما تخرجه من أفواهها من اللهب ، يؤلم و يعذب حتى يحمل الناس على طلب الموت مع أن الموت عدو مخيف يخشاه الناس ويهربون منه فما بال عذاب اللهب الذى لا يطفأ والدود الذى لا يتنام .

إن الأطباء قد أعدوا لكل مرض دواء ولكن لا دواء لعذاب الجحيم وليته كان

هناك سبيل الى الموت فالعذاب متواصل ، والموت مستحيل . كثيرون كرهوا الحياة فى الدنيا لأمرض أصابهم أو لخسارة فادحة لحقت بهم فتحصلوا منها بالانتحار ولكن هناك لا خلاص من العذاب بأى حال من الأحوال . إن أعظم عذاب فى هذه الأرض هو عذاب النار . فالموت احتراقاً من أعظم الميتات المرة . ولكن نار هذا العالم لا تذكر إذا ما قورنت بنار جهنم ، لأن نار هذا العالم تحرق الجسم وتلاشيه ثم تنطفئ وأما نار جهنم فانها تحرق الجسم ولكن لا تلاشيه ولا تنطفئ كما انها لا تقضى على شعور الخطةة واحساسهم بل يبقى الهالك متيقظاً منتبهاً لكل عذاب شاعراً به شعوراً تاماً . فلا تحرق نار جهنم العظام والقلب والأحشاء وترمدها ولكنها تؤلم الخاطئ وتعذبه ولكنها لا تميته .

إن نار هذا العالم تحرق الجسد دون النفس ولو أنها تعذبها لاتحادها بالجسد ولكن الله يعطى النار فى جهنم فوق طبيعتها لتكون آلة انتقام أى أنه يسلمها على النفس فتعذبها عذاباً أشد لأنها هى العلة الأولى للخطية . قال قديس « إن نار هذه الأرض بالنسبة الى نار الجحيم برد وزمهير » .

وقال أحد الأفاضل « لا تتصوروا أن نار جهنم هى مثل نار هذا العالم لأن هذه خلقت لمنفعتنا أما تلك فقد خلقت للتعذيب وهى أشد رعباً لثلاث صفات كميتها وكيفية وقوة فاعليتها . أما من جهة كميتها فكلما زاد الأتون عظم هيبة ولا يستطيع انسان إن يصف مقدار اتساع جهنم الذى يجمع جميع الخطاة فى كل زمان ومكان . ومن جهة كيفية فقد اخترع العلماء ناراً تشتعل فى وسط المياه ولا تنطفئ . ولكن نار جهنم لم يصنعها البشر بل صنعها الله فلا بد أن تكون شديدة للغاية . أما عن قوة فاعليتها فذلك واضح من أن جميع الخطاة سيكونون فيها وقد أغلقت عليهم أبواب الجحيم فيظل اللهب مرتفعاً ونازلاً وملتفاً بأجسام الهالكين من كل ناحية بشدة .

وفى تلك النار الشديدة الالتهاب يكون مسكن الهالكين الى أبد الأبدين ويكون كل من الأشرار مطروحاً فى جوفها وهى لا تحرقه من الخارج فقط بل تدخل الى الداخل أيضاً فتحرق عقله وتشتعل فى أحشائه وتلتب فى اعائه لتعذبه باطنياً وخارجاً . قال الكتاب « تجعلهم مثل تنور نار فى زمان حضورك . الرب

بسخطه يتلعمهم وتأكلهم النار» (مز ٢١ : ٩).

قال بولس الرسول «الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب (٢ تس ١ : ٩) وقال ميخا النبي «من أجل نجاسة تهلك والهلاك شديد» (مى ٢ : ١٠) فلو وجه الانسان فكره لذلك العذاب الرهيب والعقاب الشديد اللذين قضى بهما على الأشرار لفرغ قلبه وارتعدت فرائضه من هولها. المريع ولصرخ قائلاً «آها وحسرة من العذاب المقضى به على الخطاة الهالكين» .

إن بعض الخطاة يخدعون أنفسهم ويقولون «دعنا فلانار ولا عذاب إنما هو كلام» وآخرون ظنوه عذاباً فكرياً أو أنه مجرد البعد عن الله . وفى هذا قال القديس يوحنا ذهبى الفم «حقاً إن جهنم شر لا يطاق وعذابها مخيف ومرعب جداً غير أنه لو أرانى أحد ألف جهنم فلا أخاف منها ولا أرتعب كما أجزع وأرهب من فقد المجد الأبدي واستماع صوت السيد المسيح القائل لى بوجه غضوب «لا أعرفك» وتوبيخه اياى لأنى لم أطعمه فى حين احتياجه وجوعه ولم أسقه فى حين عطشه .

قيل إن سناسيوس الجليل كان عنده عبد وكان ذلك العبد رذلاً سكيراً مسرفاً فهرب من وجه سيده فكتب سيده الى أخيه رسالة يقول فيها «ياأخى لقد هرب من عندى من هو عبد قلباً وقالباً . ولذلك أرسلت اليك لتفتش عليه ، وإذا وجدته كتفه وقيده ولا ترسل الى بل الى بلدته ، لأن تلك المدينة التى ولدت الشرينبغى إن تضمنه . وإما من جهتى فلست أؤدبه لأن الرذيلة التى فيه كفؤلتأديه . ولا أجد له عذاباً أشد من الرذيلة المستحوزة عليه ولست أريد أن أقتص منه لأن الشر كاف ليقتص من الشرير» فإن كان الشرير لا يعتبر أن عذاب الفكر فى جهنم أشد من عذاب النار فما أجهله وإن وجد من لا يؤمن بهذه الحقيقة فلا بد أن يكون فاسد الفكر ولا يريد أن يعتقد هذا الاعتقاد لكى لا ينغص عليه عيشه ويكدر صفوه . يروم الأشرار أن لا يكون وجود لجهنم النار وأن تبقى آثامهم بدون أن يتناولهم عليها تأديب أو قصاص . لبت شعرى كيف يتأتى لهؤلاء أن يتعاموا ويحاولوا اقناع أنفسهم بعدم وجود جهنم . فإن قالوا لا وجود لها فما هم إلا كذبة مملوون سفاهة وضميرهم يكذبهم . قال القديس أوغسطينوس «انك تتجاسر وتنفوه بذلك لكنك

لا تتجاسر على الاعتقاد بصحة ما تقول لأن ضميرك يشهد لك بالخلاف . فعيشاً تروم محاولاً إخفاء نخس هذا الضمير فانه يعلمك دائماً بأن جهنم تتوعدك وأنت نفسك تظهر بأنك تستوجبها .»

لكن الواقع الذى لا ريب فيه أنه توجد نار للعذاب لأن الوحي قرر هكذا مراراً وعلى الأخص فى تصريح السيد المسيح له المجد إذ قال عنها انها نار ممتزجة بدود لداغ فدعكم من الظنون الباطلة فانه ولا شك عندما يرى الخطاة اضطرام اللهب وزفير اللظى وهم مساقون ليطرحوا فيها تخفق قلوبهم ندامة و يستولى عليهم الرعب وعندما يتحققون انها نار مضطربة يصرخون متحسرين ومستجيرين ومستغيثين ومستنجدين .

أنه لا يجبراً على انكار حقيقة وجود جهنم إلا كل مكابر فاسد السيرة سقيم الرأى والمقيدة . وهب أنه لا توجد جهنم فعلاً وانه لا عقاب يكون للأشرار سوى طرحهم بعيداً عن الله فكفى بالبعد عن الله عذاباً وآلاماً . لأن الرسول يقول «لأن الخوف له عذاب» (١ يو ٤ : ١٨ ورؤ ١٨ : ١٠) وإذا قيل أليس الله رحوماً فلماذا هذا القصاص المرعب الذى لا يطاق ! فأجيب أن الائمة لم يكتفوا بأنهم اضجروا الناس بل أضجروا الله أيضاً (اش ٧ : ١٣) وأغاظوه وأهانوه بل أثاروا غضبه فمن ثم استحقوا دينونة عادلة لا ظلم فيها ولا جور .

نعم مسا أهول الشقساء الذى توعد به الله غير السائسين (اش ١ : ٤ ، مت ١١ : ٢٠) سيكون عذابهم عظيماً ولا تكون له نهاية . قال أحد الأفاضل . « إن جهنم بلية شديدة حتى أنه لو فرضى أنه سيحكم على انسان واحد فقط من بنى البشر كافة بالعذاب فيها لكان يلزم كل منا أن يخاف من أن يكون هو ذلك الشقى المنكود الحظ » ولا يستطيع العقل البشرى أن يتصور مقدار شناعة حالة المهالكين فإن دوى صراخهم يشق الصخور الصلدة وأوجاعهم كاوية مرة حتى أن ساعة واحدة فى هذا العذاب لأشد هولاً من وقوع الانسان بين مغالب المرض القاسى سنين طويلة فى الحياة .

هذا هو مدفن لذات العالم وهذا هو حد الشهوة والطمع فما أصعب وما أمر عذاب تلك الأجسام التي تعامل في الحياة بكل لطف وتتنعم مترهفة فإن كنت تخاف من بلايا هذه الحياة التي لا تدوم سوى مدة وجيزة فلم لا ترتعب من بلايا أشد وأصعب مكتوب لها بالدوام . إن كنت تتألم هنا من لدغ نحلة فكيف تتحمل «هناك تلك النار المفترسة ؟ لما أحضر نبوخذنصر علماء الكلدانيين لأجل تفسير حلمه وضع لهم هذا الشريط المحدد بوعد ووعيد وهو إن بينتم الحلم وتعبيره تناولون من قبلى هدايا وحلاوين واکراماً عظيماً وإن لم تبيينوا الحلم وتعبيره فقضاؤكم واجد تصيرون اربأ اربأ وتجعل بيوتكم مزبلة (د ٢١ : ١٥ و ٩) وهكذا السيد المسيح قد حدد شرطاً للخلاص من العذاب الأبدى بوعد ووعيد . فقال فى وعده « فكن غيراً وتب هأنذا واقف على الباب واقرع . إن سمع أحد صوتى وفتح الباب ادخل اليه وأتعشى معه وهو معى » (رؤ ٣ : ١٩ و ٢٠) ثم قال فى توعده « وأعطيتها زماناً لكنى تتوب عن زناها ولم تتب . ها أنا ألقياها فى فراش والذين يزنون معها فى ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم . وأولادها أقتلهم بالموت فستعرف جميع الكائنات انى أنا هو الفاحص الكلى والقلوب وسأعطى كل واحد منكم بحسب أعماله » (رؤ ٢١ : ٢٣ - ٢٣) .

وهكذا جاءت وعود وتوعدات لقضائه عدلاً . فقال « إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض وإن أبيتم وتسمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم » (اش ١ : ١٩ و ٢٠) وقال أيضاً « قولوا للصديق خير . لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم . ويل للشري شر . لأن مجازاة يديه تعمل به » (اش ٣ : ١٠ و ١١) .

الفصل الثامن والعشرون فى الأبدية المخيفة

« و يصعد دخان عذابهم الى أبد الأبدين ولا تكون راحة نهاراً وليلاً » (رؤ ١٤ : ١١)

بينما فى الفصل السابق « صعوبة العذاب الأبدى » وأوضحنا كذلك أنه فوق - طاقة الانسان ، ونقول هنا انه لو كان ذلك العذاب الى أوقات معينة ولو ملايين السنين لما بكست العيون ولا انهمرت العبرات من الجفون ولكانت عاقبة ارتكاب الشر من أهون الأمور . ولكن ما يولد الخوف والاضطراب ويملاً القلب جزعاً وفرزاً هو أن ذلك العذاب لا حد ولا نهاية له ، وتلك الأبدية لا قرار لها .

إن أبدية الخطاة ظلام دامس دائم لا يضى فيه نور الشمس أبداً . وأفق عذابهم لا يلمح فيه برق على الدوام . وكل ساعة يقضونها فى جهنم المظلمة يخالونها ألقاً من السنين . هذا هو الذى يجعل العذاب على ما هو عليه من الهول والشدة .

لقد مضى على قايين أكثر من خمسة آلاف سنة وهو يتعذب فى الجحيم ومع ذلك لم يتقدم ولم يخط خطوة واحدة فى أبدية بل كأن هذا اليوم هو اليوم الأول من دخوله فيها . ولقد مر أكثر من ألف وتسعمائة سنة وذلك الغنى الشريئى ويتهد ولم تستطع دموعه السخينة أن تسكن عذابه دقيقة واحدة .

ولقد ضرب أحدهم مثلاً على دوام الأبدية فقال : « لو كان أحد الهالكين فى جهنم يقطر من عينيه كل مائة سنة دمعة واحدة وتحفظ دموعه كلها ليتكون منها بحر عجاج فترى كم من آلاف الدهور وربوات السنين تمر ولا يتكون من دموعه بحر بل ولا بحر ماء صغير ، ولو فرضنا إن تكون الأبدية حينئذ قد بلغت نهايتها ؟ كلا بل

تكون كأنها فى دور الابتداء ، ولو تكررت عملية استجماع دموعه آلاف المرات وتكونت منها بحور أخرى فى ربوات أضعاف الدهور التى تكون فيها البحر الأول فلا تكون الأبدية قد قاربت من الانتهاء بل لا تكون إلا فى بدايتها فقط .»

وقال آخر «وما معنى قول الكتاب الى أبد الأبدين» هل معناه أن الخطاة يتعذبون مدة تساوى المدة التى فيها يستطيع عصفور أن يجفف جميع مياه البحار إذا أتى كل سنة مرة واحدة وشرب نقطة واحدة لا غير ؟ هل معناه أنهم يتعذبون زمناً يقدر بالزمن الذى تتمكن فيه دودة صغيرة من أن تفتنى كل أشجار الأرض إذا قرضت كل سنة قرصة واحدة فقط ! هل معناه أنهم يتعذبون دهوراً تقدر بالدهور التى تتمكن فيها غلّة من الطواف بالأرض بأسرها إذا مشيت كل سنة شبراً واحداً فقط ! لا بل هم يتعذبون الى أمد أطول من ذلك بكثير جداً . حتى لو فرض إن العالم كله مملوء بالرمل ونقلت منه كل مائة سنة ذرة واحدة لأتتهى ما فى العالم من رمل ولما انتهت الأبدية .

يقدر البروفسور «دانا» العالم الجيولوجى إن العصر الذى وجدت فيه آثار الحياة بدأ على الأقل منذ ١٦ مليون سنة مضت وإن العصر العظيم المسمى بعصر الظلام الذى وجد قبل ذلك لا بد انه يرجع الى أمد أبعد من ذلك بمراحل كثيرة منذ أن أوجد الله الكرة الأرضية ، ومع ذلك فلوقضى الخاطئ مثل هذه المدة فى الأبدية لكان لا يزال فى أولها فقط ، وقد قدرت المسافة الشاسعة التى تفصل أبعد كوكب يمكن للمرء أن يراه بأقوى منظار فى الأرض بائنين ونصف كوادريون ميل ، ومع ذلك فإن هذا النجم البعيد ليس هو نهاية الفضاء وهو مستمر فى الدوران بلا نهاية ، هكذا الأبدية فانها تشبه محيطاً زاخراً لا حدود له . والشقى يكون فيه دائم الدوران .

كل ذلك لأن النفس غير قابلة للفناء فلا يقدر القاتل على ملامستها ولا السكير على اغراقها ولا محب العالم على دفنها بالمال فهى اعجب وأبقى من كل العوالم السابحة فى الفضاء الذى لا نهاية له فيتحول القمر الى دم وتحترق الأرض بنار وتنطوى السموات كدرج وتنتهى كل هذه المشاهد العظمى . النفس البارة تبقى فى النعيم دائماً الخلود والنفس الخاطئة تبقى فى العذاب الى الأبد .

على هذا الحال يقيم أولئك الأشقياء فى وسط هذه النار الآكلة والعذاب المؤبد الى مالا نهاية . لست جميع البشر يتأملون فى ذلك ولودقائق قليلة فانهم لو عرفوا ذلك جيداً لأصلحوا سيرتهم وتغيرت حالتهم .

أيها الأشرار اشفقوا على أنفسكم . تصوروا ذلك العذاب الأبدى وذلك الالتهاب الدائم ، وان كان لا يستطيع أحد منا أن يتحمل وضع شظية من النار على أى عضو من أعضاء جسمه ولولدة دقيقة واحد ولا يطيق صبراً على تحمل مرض أو ألم يحل به فيسارع باستدعاء الاطباء لاغاثة ، فما بالناس لا نجزع إذا ما تصورنا آلام الجسد وعذاباتها التى تتناول الجسد والنفس معاً ؟ إن ليلة واحدة تمر علينا فى الحمى أوفى ملاطمة أمواج البحر ونحن بين الحياة والموت تظهر لنا طويلاً جداً . فالشمس تظهر للمتألم كأنها نسيت دورانها وكأن كل شرائع الطبيعة قد انقلبت . فإذاً ماذا تكون حال أولئك الأشقياء الساقطين فى هاوية الغضب الالهى بعدما يقضون أجيالاً ودهوراً لا عد لها لا يمكنهم إلا أن يعترفوا قائلين « إن هذه كلها ليست إلا دقيقة واحدة من دقائق شقائنا وسنبقى فى مثل عذاب هذه الأجيال الطويلة بعيدين عن السعادة السموية معذبين بعذاب اللهب الآكل وتوبيخ الضمير المؤلم ونزيد خطايانا بكثرة تجديفنا على الله ونبقى فى اللعنة الى الأبد والى أبد الأبدىين .»

بقدر ما تطعم النار مواداً ووقوداً هكذا يستمر التهابها ، والمادة التى تشتعل بها نيران جهنم هى الخطية وكما أن الخطية لا تزول عن أهل المعاصى لأنهم هبطوا بها الى النيران فستظل النيران مستعرة تعذبهم ليلاً ونهاراً بلا انتهاء ، وكما أن حشائش الأرض بعد أن تأكلها الحيوانات تنبت ثانية ، كذلك الخطاة تأكل فيهم نار جهنم فى كل وقت ولكنها لا تفتنهم .

قيل إن أحد الاسبانين الشرفاء المدعو ويداكس لما أن أبلغ فى احدى الليالى وهو فى سجنه بالحكم عليه بالاعدام شاب شعره فى تلك الليلة ولم يكن قد تجاوز العشرين من العمر ولاح كأنه قد تجاوز الستين . فإن كان يمكن أن يقال عن تلك الليلة ما أطولها على ذلك التعس وما أشد هولها حتى جعلت شبابه يتحول الى شيب

فاذا يقال عن ليلة جهنم التي ليس لطولها نهاية والتي تشيب الهالك في كل لحظة بأهوالها . وفي الوقت نفسه تستبقيه وسط النيران شاباً يتعذب ولا ينصهر . ويرعى في جسمه الدود لادغاً منه آكلاً ولكنه لا يفنى ولا يضمحل .

أيها الخاطئ . انك تتمنى أن يطول عمرك في هذه الحياة كما طال عمر متوسالحو ليكون لك من التمتع بالملذات القسط الأوفر . ولكن هناك في الجحيم ستطلب الموت فلا تجده . اصغ الى صوت أبيمالك يصرخ من أعماق الجحيم قائلاً أين السيف الذي قتلت به نفسي فتخلصت من العار الذي كنت أخشى أن يلحق بي في الحياة لأهلك به نفسي هنا (قض ٩ : ٥٤) ويقول زمري أين النار التي أحرقت بها نفسي لأموت بها ثانية (١ مل ١٦ : ١٨) ويقول اخيتوفل أين الحبل الذي خنقت به نفسي لأعيد الكرة عليها (٢ صم ١٧ : ٢٣) وهناك سيدفن الأشرار أنفسهم في أشد أنواع العذاب دفناً لعله يقضى على حياتهم ولكنهم لا يجدون الى ذلك سبيلاً .

ياله من ملل عظيم يستحوذ على الخطاة . وإذا كان الأشرار هنا كثيراً ما يعلنون من لذاتهم فكم بالحري يكون ملل المعذبين من عذابهم ؟ قال القديس أوغسطينوس « ياله من جنون عظيم وهو انك تخاف من أن تتوب لئلا تقضى الحياة القصيرة معارضاً لشهواتك ولا تخاف من أبدية النيران . فإن كنت تحترس احتراساً عظيماً من الموت . ومن مرض لا يدوم سوى زماناً يسيراً فلم لا تحترس لكي تجتنب موتاً وعذاباً بيقيناً .»

فإن كنت تخاف وتكتئب إذا مكثت بين أجساد الموتى بغير مصباح فكيف تحتمل أن تمكث دائماً في القتام والظلام المدهم بين جملة الهالكين حيث لا ترى نوراً ولا شمساً ولا قرأ ولا نجوماً . وإن كنت لا تحتمل مشاهدة شيطان واحد فكيف تستطيع أن تعاین جماهير الأرواح الشيطانية الكثيرة العدد المختلفة الأشكال والهيئات المزعجة الخفية ؟ وإن كنت لا تحتمل أن تبقى اصبعك دقيقة في النار فكيف تحتمل أن تكون ملقى بجملتك طريحاً الى الأبد في هوة جهنم التي لا يحتمل سعيها ؟ وإن كانت نازلة من النوازل الهينة أو مصيبة من المصائب البسيطة تجعلك تمنقت هذه الحياة فكيف يمكنك أن تصبر على تلك الشدائد والأمراض المتباينة التي

تعذبك وتمتلك جسمك ، والتي لا ينفع فيها دواء ولا طيب ؟

قال أحد الوعاظ فى عظة له عن « الأبدية » . أياها الأخوة : ما أهول هذه الكلمة ولو فى هذه الحياة الدنيا وما أشد البلية التى لا نجاه منها وما أصعب سمع كلمة الأبدية فى حال العذاب الأليم . فقيود أهل النار أبدية ، وسلاسلهم أبدية ، وسجنهم أبدى ، وكل اذلاك وتعيير وعذاب دائم الى الأبد .

أياها البشر الأشقياء ما أجهلكم ألا تعلمون أن الحياة ليست إلا أسرع من الوشيعة (أى ٧ : ٦) وأنها تزول كسنة فهى ليست أبدية ؟ إن الأبدية أياها الغافلون لا نهاية لها فهى مما لا تدركه عقول المخلوقات ولا نهاية لأبدية الهالكين .

اننى أكاد أعيا وأسقط تحت ثقل هذا الموضوع وانى حين أرى نفسى وأصحابى وأقربائى وشعب رعيتى وكل هذا الجمع وأفكر فى اننا كلنا مهددون بذلك العذاب العظيم وأرى أننا مستخفون بالمقاصد الروحية ، أشعر بأن سماً قاتلاً قد توزع فى أزمنة حياتى وجعل الفة أصدقائى نفوراً ولذة الطعام ألماً وأفراح الحياة أحزاناً والحياة نفسها مرة ولا أتعجب حينئذ لما أسمع أن الخوف من جهنم جعل البعض عابسين وغيرهم مجانين ، وهذا الخوف قد حمل البعض على أن يهربوا من مخالطة كل بشر وجعل غيرهم يهتمون أشد الآلام الجسدية .

فاحذروا أياها الاحباء واعلموا أن ليس لكم فرصة للخلاص من ذلك العذاب العظيم إلا فى هذه الحياة القصيرة . أما بعدها فلن تلقى عليكم خطب ولا عظات ولن يكون هنالك محل لقبول التوبة ولو كانت بالدموع والتهنيدات ففكروا فى قصر الحياة وفى أنكم ربما تفارقونها بعد سنة واحدة أو شهر واحد أو يوم واحد أو ساعة واحدة أو دقيقة واحدة واعملوا حالاً للخلاص من ذلك الشقاء الأبدى . تأملوا وانظروا فى شفقة الله عليكم ومحبه لكم فإنه يثبكم و يسألكم بكل لين ورفق أن تهربوا من تلك الأهوال قائلاً : ليت شعبى يصغى الى . فتعلموا أياها الناس لئلا تفارقكم نفسى فلماذا تموتون يابيت اسرائيل (مز ٨١ : ٨ ، ار ٦ : ٨ ، حز ١٨ : ٤١) .

قال الكتاب « و يصعد دخان عذابهم الى أبد الأبدين ولا تكون راحة نهاراً ولا ليلاً » فالمر يض مهما ثقل مرضه قد يرتاح وقتاً ما وأما هناك فلا راحة مطلقاً .
ما أطول الليل على العليل ولكنه عندما يرى انبثاق الفجر يستريح ، أما ليل جهنم فلا فجر له بل هو ليل لا نهاية له بالمرّة .

فلنترك المساواة ولنرجع الى عقولنا . إن كثيرين قد يتفوهون بمجساة و يقولون انهم مستعدون للذهاب الى جهنم وأنهم عالمون أن متوهم النار وأن ذلك لا يهمهم ولا يزعجهم فهو لاء أشبه باللصوص وقطاع الطرق والقتلة الذين يتظاهرون بأنهم لا يخشون الاحكام فيقولون « السجن للأبطال الموت للرجال » ولكن إذا قبض عليهم وأودعوا السجن أو حكم عليهم بالاعدام فانهم يقضون الأيام والليالي يتقلبون على أحر من الجمر في الندامة والتحسر . وهكذا الخطاة فى الدنيا فانهم لا يباليون بالعقاب ولكن لما يأتى وقت القضاء يقولون « آهآ » (اش ٣٣ : ١٤ ، لو ١٦ : ٣١) .

وكما أن عذاب الأشرار فى جهنم لا ينتهى فهو أيضاً لا يتغير ولا تخف حدته بل كما يكون فى بدئه هكذا يكون الى الأبد فالنار هى هى لا تتغير . والدود هو هو لا يموت . ولعمري إن هذا الأمر يملأ قلوب الخطاة خوفاً ورعباً لا سيما حينما يعلمون إن عذابهم لا مفر منه ولا علاج له ولا تخفف لشدته .

يعترض البعض قائلاً « كيف يوافق عدل الله أن يقضى على الانسان بالعذاب الأبدى مقابل خطية صغيرة ارتكها فى زمن وجيز » فنجيب بأن الله رحيم حقاً ولكنه غيور على القداسة فالذى يموت بخطية لا يمكن أن يخلص منها فى الجحيم وبالتالى لا يتجاوز الله عن عقابه لأجلها باعتبار أنها ضد صفته الكاملة « القداسة » وهوذا اشعياء النبى يصرخ قائلاً « ها ان يد الرب لم تقصر عن ان تخلص ولم تشغل أذنه عن ان تسمع بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين الهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع » (اش ٥٩ : ١ و ٢) قال أحدهم « إن الله لا ينظر الى الأفعال بل الى النية فبعدل يحق له أن لا ينهى عقاب جميع الذين كان فى نيتهم أن لا ينتهوا عن فعل الخطية فى جميع أيام حياتهم وألا يجعل

حداً لعذاب الذين لم يجعلوا حداً لخطيتهم . نعم إن ارتكاب الخطية كان قصيراً
 منتهياً إلا إن حب الخطية كان دائماً غير متناه لأن الخاطئ كان يتمنى أن يجيا بلا
 انتهاء ليخطئ بغير انتهاء ، وقال القديس أوغسطينوس « أنه بكل وجه من الحق
 تتعذب النية الشريرة ولو لم يلحقها الفعل الشرير فينتج إذاً أنه إن مات الانسان
 فى خطية يكون رغباً فى فعلها الى الأبد لوافق له أن يجيا الى الأبد فإن الله يعذبه
 الى الأبد » .

وقال العلامة تروليانوس « إن الله يحتل فى هذا الزمان آثام الناس بطول أناة
 لأن الأبدية بتمامها فى قبضة يده فيقاصصهم بها . صبور لأنه أبدى . على انه تعالى
 إذا ما صبر فانه بصبر كاله وإذا ما عاقب فى الجحيم فانه أيضاً يعاقب كاله » وعلى
 هذا السنوال يستحق الخاطئ الخلود فى العذاب لأن عظم الذلة إنما يقاس بحسب
 عظمة قدر من صدرت فى حقه . والحال أن المجد الالهى غير متناه . والخطية هى ذلة
 صادرة ضد الجلال الالهى فهى غير متناهية ، وبالتالي تستحق أن تعاقب عقاباً غير
 متناه .

قال أحدهم تحت عنوان « الى أين ! الى أين ! » مات فى القرن الثامن عشر
 أحد الشيوخ فى أمريكا وترك لابنه وصية تتضمن هذه الكلمات : « أذكر أنه
 توجد أبدية طويلة » فحفظ هذه الوصية جميع أفراد عائلته وأثمرت ثمراً حسناً فى
 تحسين سيرتهم . وقال أحد السياح « دخلت منزلاً فرأيت فى إحدى غرفه ورقة
 مكتوباً عليها هذه الكلمات « يارجل أعرف هذه الأشياء . الله والدقيقة والأبدية »
 وقال رتشرد بكستر إن أحد معاصريه القسوس جعل محور وعظه طول حياته عن
 الأبدية . فزار مرة امرأة مشرفة على الموت وحالماً دنا منها صرخت « ادع الوقت
 ليرجع — ادع الوقت ليرجع » فأجابها عبثاً ما تبغين فإن رجوع الوقت مستحيل
 كتقصير الأبدية .

اسأل نفسك أيها الانسان « الى أين أنا ذاهب ؟ الى أين أيتها الأوراق
 المتساقطة ؟ لا أعلم . الى أين أيتها الريح ؟ لا أعلم . الى أين أيتها الأمواج
 المزبدة . لا أعلم ، لكن الانسان ليس ورقاً ولا ريحاً ولا أمواجاً ولا شيئاً من مثل

هذه يجيب « لا أعلم » بل عليه أن يعلم أنه منطلق اما إلى سعادة أبدية او الى شقاء أبدى .

« الى أين ؟ » قال أحدهم وهو على فراش الموت وكان ممن لم يبالوا بهذا السؤال طول مدة حياتهم « أرى ظلمة دامسة محدقة بى من كل ناحية » وقال آخر ممن كانوا على شاكلته فى مثل حالته « اننى خائف جداً » وقال آخر وهو على حافة الأبدية « أنا مائت ولا أعلم الى أين أنا ذاهب ، فيالها من ساعات مخيفة حينما يبلغ الانسان الدقيقة الأخيرة من الحياة ويرى أن الفرص الثمينة قد انتهت وإن الظلام الأبدى قد أقبل وإن أنوار الرجاء قد انطفأت .

فلينتبه الخاطئ من غفلته وليفتح عينيه وليهتم بما هو قادر عليه الآن فيداوى ما لا يقدر على مداواته فيما بعد . إن الزمان الحاضر مناسب ومقبول . الآن فى دقيقة واحدة يمكننا أن نكسب ما لا يمكن أن نكسبه فى الأبدية كلها .

الفصل التاسع والعشرون فى سعادة الأبرار ومجد القديسين

« ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخظر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩)

قال الله لملاك كنيسة سميرنا « كن أميناً الى الموت فسأعطيك اكليل الحياة » (رؤ ٢ : ١٠) وهذا الوعد هو لكل انسان . فن كان أميناً فى محبة المسيح وخدمته وعهوده البى الموت فسينال منه اكليل الحياة ويحظى بالشركة معه فى الميراث السماوى والأجماد الأبدية . وعلى ذلك فالجهاد والآلام هى طريق الوصول الى الأجماد وكذلك احتمال الضيقات والأمانة الى الموت فانها سبيل التمتع بنوال اكليل الظفر ، فالمسيحى الأمين متى فارق هذه الحياة يلقى ربه باسم الثغر وضاح الجبين ، ويكون كالجندى الباسل الأمين عندما يعود من ساحة الحرب منتصراً لينال جزاء جهاده وأمانته . إن يوسف حصل على خاتم الشركة والسلطان بعد خروجه من السجن ، وبولس يقول « جاهدت الجهاد الحسن .. وأخيراً وضع لى اكليل البر ».

فلا تضجر أيها المؤمن إذا أصابتك البلايا وتراكت عليك المخاوف والأحزان بل اثبت على ما تعلمت وأيقنت لكى تتمجد فى السماء بالأجماد التى يعجز اللسان عن وصفها . تلك الأجماد التى لما عاينها بولس الرسول لم يقدر أن يتكلم عنها ولم يجد فى قواميس اللغة ألفاظاً تساعد على وصفها فاكتفى بقوله « ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخظر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه ».

ولعمري أنه كفى بالقديسين أن يتمتعوا بالوجود فى حضرة الله فهذا هو منتهى الفخر والمجد والسعادة التى تفوق كل سعادة . والغنى الذى هو أعظم من كل غنى

العالم ، ولا ريب أنه ما من كنز يضاهى هذا الكنز ولا امتلاك أعظم من هذا الامتلاك ، أى امتلاك الانسان لله سبحانه وتعالى . أية وراثة أكثر قيمة من ملك السموات والأرض . وأيما ذهب أغلى من خالق الذهب وهو يقدم لنا كل غنى تمتلكه .

وفى ذلك يقول المرتل « يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نوراً » .

انا هنا لا نرى الاله الذى خلقنا واقتدانا والذى يحيطنا دائماً بالحسنات و يقدم لنا فيض نعمته لنتملكها ولكننا هناك سنراه كما هو بل ونجلس معه ونشابهه فى جسد مجده قال بطرس الرسول « الذى وإن لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨) فما أعظم الفرح الذى يملأ المؤمن عندما يشاهد رب البرايا يحتفى به و يضمه الى صدره بحبة وحنان . ومن هو الانسان الذى يكون موضع اهتمام مبدع الوجود وخالق الكائنات ؟ وأى سرور أعظم من سرور النفس التى تتمتع بجمال الخالق وبجميع كمالاته ؟ وإذا كان يعقوب لبث يخدم لابان مدة أربع عشرين سنة لأجل جمال راحيل . فأية خدمة يجب أن تقدمها لله تعالى لكى يكون لنا حق التمتع بجمال من هو أبرع جمالاً من البشر ، ولهذا يقول داود « أما أنا فبالرأنظر وجهك . أشنع إذا استيقظت بشبهك » (مز ١٧ : ١٥) .

هناك يتمتع المؤمنون بخيرات لا عد لها وأفراحهم لا تحصى . فليتهج إذا المؤمنون المدعوون الى هذه الخيرات العظيمة و يتهللوا لأن الله تعالى قد خلق السماء لأجلهم ولتتفرق قلوبهم ولتتقو بوجاهة هذه الأفراح الأبدية .

أيها المؤمنون . يامن التجفتم بالضيق وتسربلتم بالتجارب ابتهجوا الآن « لأن الله ليس بظالم حتى ينسى تعبك وعمل محبتكم » انكم ستنالون جزاء أمانتكم وجهادكم وأعمالكم الصالحة ، وها الكتاب يبشركم « قولوا للصديق خير . لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم » .

أجل « إن عيشة الصديقين فى هذا العالم مملوءة من الأحزان والمشقات والأبين

والانتعاب . ولكن ايمانهم بأن سيدهم سيجازهم على أتعابهم ويخفف أوزانهم .
فلولا رجاء السماء لكانوا أشقى جميع الناس (١ كو ١٥ : ١٩) إن عزاء رجال الله
المتضايقين فى هذا العالم هو أنهم سيحفظون بالأفراح العظيمة فى أورشليم الجديدة
حيث عر يسهم الرب يسوع المسيح .

قد نجد رجال الله فى هذا العالم فقراء ومزدرى بهم بينما نجد الكثيرين من
الأشرار أغنياء وأصحاب جاه . ولكن غنى هذه الأرض لا يعتد به ولا قيمة له وإنما
الغنى الحقيقى هو فى المسيح الذى اشترانا بدمه . ومن كان المسيح نصيبه فهو حائز
على جميع الأجماد والمقتنيات الفضلى والسعادة العظمى والهناء والسرور . فأغنياء
هذا العالم الأشرار يحل بهم الفقر المدقع فى العالم الآتى ، أما المؤمنون فانهم يعنون
اسماً عظيماً ومجداً (رؤ ٢ : ١٧) « هناك يكف المنافقون عن الشغب وهناك
يستريح المتعبون . الأسرى يطمئنون جميعاً ، لا يسمعون صوت المسخر »
(أى ٣ : ١٧ و ١٨) .

هذا ما جعل الرسول بولس يهتف قائلاً « لأن لى الحياة هى المسيح والموت هو
ربح . لى اشتها إن انطلق وأكون مع المسيح . ذاك أفضل جداً »
(فى ١ : ٢١ و ٢٣) وكما أن أحسن ما يستغيه الابن هو أن يكون فى بيت أبيه
حاصلاً على كل احتياجاته فإن أفضل شئ وأكمل نصيب للمؤمنين هو أن يكونوا
فى بيت الأب الحنون نائلين الاجتماع الذى لا يعقبه فراق فى بيته السماوى ، فى
ذلك المكان الذى ذهب اليه وأعدده لهم المسيح ليأخذهم اليه فيتمتعون بلقاء
الحبيب ويحظون بفرح ذاك العرس المجيد . إذ تجتمع العروس بعريسها المحبوب يسوع
مخلصنا وتشارك فى القداسة الالهية فى السماء ، لابساً ثياب المجد والبهاء ، حاصلة
على الجمال العجيب لأنها اكتسبت الجمال والكمال من حبيبها يسوع . ذاك الذى
حلقة حلاوة وكله مشتهيات وهو مشتهى كل الأمم . وهذا ما كان يتمناه داود
ويتوق للحصول عليه بقوله « واحدة سألت من الرب وأياها أتمس . أن أسكن فى
بيت الرب كل أيام حياتى لكى أنظر الى جمال الرب وأنفوس فى هيكله »
(مز ٢٧ : ٤) .

فما أعظم السرور الذى يشمل المؤمنين إذ ذاك عندما يرون أن أتعابهم قد انقضت وانهم انتصروا على أعدائهم وفازوا بالخلاص الأبدى . إن كان موسى الكليم وبنو اسرائيل هتفوا مسبحين ورفعت مريم النبية مع نسايتهم بنغمات شجية وألحان مطربة على دفوفهن راقصات فى احتفال عظيم عندما نجوا من فرعون وجيشه وعبروا البحر على الأقدام كأنه أرض يابسة ووصلوا الى شاطئه بسلام . نعم إن كانوا فى لحظة نسوا كل عبودية مصر المرة ومشقاتها الصعبة التى تكبدوها مدة سنين عديدة وفرحوا فرحاً هذا مقداره مع أنهم لم يكونوا قد تمتعوا بعد بأرض الموعد بل أتوا الى برية مقفرة (خر ١٥ : ١-٢١) أفأ نبتج نحن بالأولى ونفرح عندما نعب بجار مصائب العالم ونتخلص من كل تجاربه المرة وننتهى من ديار نجيبه ومن محاربات الأعداء المقاومين لنا فيه . كيف لا نبتج عندما نصل الى فردوس النعيم حيث ننسى كل ما قاسيناه فى هذا العالم من أتعاب شديدة وأحزان عديدة ونكون ساجدين فى بحار أفرح لا يعرف قرارها كأننا محمولون على أفلاك السماء على أجنحة حمامة مغطاة بفضة وريشها بصفرة الذهب فنترنم ترانيم النصر وترنيمه موسى والخروف قائلين «عظيمة وعجيبة هى أعمالك أيها الرب الاله القادر على كل شئ . عادلة وحق هى طرقك يا ملك القديسين . من لا يخافك يارب ويمجد اسمك لأنك وحدك قدوس لأن جميع الأمم سيأتون ويسجدون أمامك لأن أحكامك قد أظهرت (رؤ ١٥ : ٤٣) ثم نشترك مع الذين قالوا « مستحق هو الخروف المذبوح أن يأخذ القدرة والغنى والحكمة والقوة والكرامة والمجد والبركة ، وكل خليفة مما فى السماء وعلى الارض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان الى أبد الأبدين » (رؤ ٥ : ١٢ و١٣) ولا سيما حيناً « نكون كل حين مع الرب » (١ تس ٤ : ١٧) .

إن موسى لما عاين لحة صغيرة من وراء مجد الرب تلاًلاً وجهه بالنور حتى لم يستطع بنو اسرائيل أن يروا وجهه فكان يغطيه ببرقع (خر ٣٣ : ١٨-٢٣) وكذلك بطرس ويعقوب ويوحنا عندما تجلى المسيح لهم ذهلوا بمجد ذلك النور العجيب وفضلوا البقاء فى الجبل (مر ٩ : ٢-٥) فإلنا نحن الذين سنكون على هيئة من النور تضاهى هيئة المسيح نفسه وسنراه كما هو « لأنه سيفير شكل جسد تواضعنا

ليكون على صورة جسد مجده « (في ٣ : ٢١) وقال الرسول « متى ظهر المسيح حياتنا فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد » (كو ٣ : ٤) « إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢) « ونحن جميعاً نأظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما فى مرآة نتغير الى تلك الصورة عينها من مجد الى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو ٣ : ١٨).

فتصور أيها المؤمن أسمى الأفراح وأبهج المسرات واعتقد أنك ستعطى أكثر منها . قيل إن الاسكندر الكبير لما التمس منه فور يلس أحد ندمائه مساعدة لتجهيز إحدى كريماته أمر له بخمسين وزنة . فاستظعم النديم الهدية وعرض على الملك أن يكتفى بعشرة وزنات فقط فأجابه الملك « إن كانت عشر وزنات تكفيك أنت احساناً فلا تكفينى أنا عطاء » وهكذا فإن عطاء الحياة الأبدية للنفس المختارة هو أعظم من استحقاقها لأنه سيكون بنسبة جود الله وسخائه .

يعلمنا الكتاب أن مظاهر مجدنا فى السماء تقوم على أربعة أمور :

(١) ثياب البهاء والمجد البيضاء التى يلبسها أبناء الله المفلدون فى السماء . وهذا يظهر من رؤيا يوحنا الحبيب حينما رأى الأربعة وعشرين شيخاً الذين يكنى بهم عن كل المفلدين فقد رآهم متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم الأكمال من الذهب (رؤ ١ : ٤) وكذلك رأى جميع المفلدين من الشعوب والقبائل واقفين أمام العرش وامام الخروف متسربلين بثياب بيض وفى أيديهم سعف النخل . فقال واحد من الشيوخ ليوحنا هؤلاء اللابسين الثياب البيض من هم ومن أين أتوا ؟ فقال له ياسيد أنت تعلم فأجابه هؤلاء هم الذين أتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا ثيابهم وبيضوها بدم الخروف (رؤ ٧ : ٩ - ١٤) فينتج من ذلك أن الشئ الأول فى مجد القديسين هو أن يلبسوا ثياب المجد والبهاء البيضاء التى تشير الى القداسة والطهارة التى حصلوا عليها بالمسيح يسوع قدوس اسرائيل .

فلا يوجد فى السماء قمام ولا ظلام بل كل شئ أبيض منير . فما أعجب وما أبهى تلك الحال وذلك المنظر البهيج فالظلام كله ظلام الحزن والجهل والخطية يترك فى الأرض . ومن أين تكون الظلمة فى المجد السماوى ونور شمس المنيره التى

لا تغيب؟ ومن أين المقتام والخطية لا توجد هناك؟ فطوبى لمن نال الثياب البيضاء.

(٢) أكاليل المجد قال بولس الرسول «قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعى حفظت الايمان وأخيراً وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديقان العادل وليس لى فقط بل لجميع الذى يجون ظهوره أيضاً» (٢تى ٤ : ٧ و٨) وقال يعقوب الرسول «طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة . لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذى وعد به الرب للذين يحبونه» (يع ٢ : ١٢) وقال بطرس الرسول «ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذى لا يبلى» (١بط ٥ . ٤).

لما كان بولس وبرنابا فى لستره وشفيا المقعد قدم لها الجمهور أكاليلاً وثيراناً كأنها من الالهة ولكنها لم يقبل ذلك بل مزقوا ثيابها ولم يسمحوا لأولئك الجهلاء أن يقدموا المجد لها لأنها يعلمان أن مجد الأرض باطل وأكاليها زائلة (اع ١٤) أما إكليل الحياة فحيد وثمين لا يفنى ولا يضمحل . قال الرسول بولس عن المجاهدين من اليونان الذين يركضون فى ميدان الألعاب انهم يأخذون إكليلاً يفنى وأما نحن فإكاليلاً لا يفنى (١كو ٩ : ٢٥) غير أنه يلزم أن نركض لكى نناله . فما أسعد المؤمنين الذين يلبسون تلك الأكالييل المقدسة من ملك الملوك ، التى يعطيها عبده جزاء لغلبتهم وانتصارهم .

(٣) عروش المجد . قال الرائى «ورأيت عروشاً فجلسوا عليها وأعطوا حكماً ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا السمّة على جباههم وعلى أيديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة» (رؤ ٢٠ : ٤) إن الأكالييل والعروش إشارة الى الملك السماوى مع ملك الملوك ورب الأرباب يسوع المسيح . فالمؤمنون الحقيقيون بيسوع يلبسهم الثياب البيضاء الزاهية ويكللهم بأكالييل المجد الأبدى ويجلسهم على عروش السماء . فما أعظم مقام المسيحى الحقيقى وما أشرف نسبه . إن الذين ينالون الحظوة بالثول لدى ملوك الأرض يعظم فرحهم وانسراحهم . فالنا نحن

الذين نشترك مع ملك السماء والأرض فى أمجاده وفى دينونة الأشرار؟

(٤) النور السماوى اللامع . وأى مجد نبلغ اليه حينما نجلس حول العريس المجيد ونكون كبدور تتألق فى قبة أفلاك المجد والبهاء بل حينما نجلس فوق الشمس والكواكب البهية على المتكآت السماوية ونتلألأ كأنوار باهرة وكواكب زاهرة وشموس ساطعة وأنوار لامعة حول شمس البر الحقيقى بهاء عظيم هذا مقداره .

إن شمس عالمنا هذه تفتخر على بقية الأنواع لشدة سطوع نورها وقوة ضيائها . فانها إذا ما أشرقت توارت جميع الكواكب خجلاً منها وتوارى معها القمر . هكذا نحن حينما نكون فى أوج السماء مضيئين كالشمس (مت ١٣ : ٤٣) يعترى جميع الأنوار البكسوف وتوارى جميعها بما فيها الشمس خجلاً . ولا تستطيع أن تظهر أمام العروس التى تدخل دار السماء بمجد عظيم وبهاء لامع حتى يتعجب الجميع قائلين «من هى المشرقة مثل الصباح . جميلة كالقمر طاهرة كالشمس . مرهبة كجيش بألوية» (نش ٦ : ١٥) .

وبالاجمال ما من حالة من حالات الجلال والمجد والعظمة نشاهدها فى هذا العالم إلا وسنكون على أعظم منها . فلا تفتخر أيها الغنى بفناك ولا تغتر أيها الملك بعظمتك . ولا تتباه أيها المتزين بأنواع الزينة . فمجد السماء وخيراتها يفوقان كل مجد رأيناه وكل عظمة سمعنا عنها .

و ياله من فرح دائم الى الأبد لأن موضوعه دائم الى أبد الأبد . وإذا كان الانسان فى هذه الحياة يفرح بالمال أو بالصحة أو بالبنيان فإن فرحه سيزول بمجرد زوال أسبابه . وعلى ذلك ففرح الانسان الذى أخصبت كورته قد زال فى تلك الليلة التى أفتخر فيها وتزع فيها عنه غناه . وفرح آدم وحواء بقايتين وهابيل قد انتهى بهقتل هابيل ، وفرح شمشون بقوته زال بزوال قوته وحل بعده الحزن والتعب ، وسرور يعقوب بيوسف انقلب الى أكدار وتهدات . وكل فرح فى العالم لا يدوم . أما أفرح السماء فهى دائمة الى الأبد ولا تزول مطلقاً ولا يمكن أن يتخللها أحزان ولا أوجاع لأنه لا سبيل لها فى ذلك المكان الذى أعد لراحة المؤمنين .

فالإنسان مهما كان مجيداً وشريفاً على الأرض فما هو إلا كعشب يبس وحياته كالبخار تظهر قليلاً ثم تضمحل (يع ٤ : ٤) أما المجد السماوى فهو أبدي لا ينتهى ولا يزول وما أعظم الفرق بينهما « فالعالم يمضى وشهوته وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت الى الأبد » (١ يوحنا ٢ : ١٧).

كل أجداد العظماء زالت بزواهم ولكن مجد أبناء الله المؤمنين ليس كذلك فانه يستدئ بزوال حياتهم الأرضية ولا ينتهى الى الأبد لقد حصل موسى على شئ عظيم من مجد العالم إذ كان معتبراً كإبن لابنة فرعون مصر ولكن لما نظر الى المجد السماوى وقابله بالأرضيات فضل أن يذل مع شعب الله « لأنه كان ينظر الى المجازة » وهكذا تمجد يوسف فى مصر، ومردخاى فى شوشن القصر، ودانيال فى بابل، ولكنهم لم يبالوا بهذا المجد لأنهم كانوا ينتظرون مجداً أعظم وأفضل.

فلا مجد فى العالم يقاس بتلك الأجداد السماوية ولا سعادة تقابل بالسعادة الأبدية. إن سليمان الملك حالما تبوأ كرسى الملك الاسرائيلى ضربت الأبواق هاتفة. وقدم له الشعب التحيات اللاتقة ضاربين بأصوات الناي المطربة حتى انشقت الأرض من أصواتهم المرثة. ولكن هل يعد ذلك شيئاً إذا ما قورن بالفرح والابتهاج اللذين سيكون عليهما الأبرار عندما يستوون على كراسى المجد ويكفلون رؤوسهم بتيجان المملكة السماوية ويتسربلون بالثياب البيضاء ويحتفى بهم ملك الملوك وجيوش الملائكة فرحين مرمين مهللين.

وبالجمله فإن المجد السماوى يفوق كل مجد سواه. ولو جمعت كل مفاخر الملوك من بدء الخليقة الى نهايتها ووضعت على هامة ملك واحد فانها لا تعادل ولا تشابه ذلك الملك العتيد لأنها جميعها لا تخرج عن كونها ملكاً أرضياً بشرياً زائلاً، أما ذلك الملك فهو ملك سماوى الهى أبدي. وكما أنه لا توجد معادلة بين الذهب والتراب وبين الشريا والثرى فهذا المقدار وأكثر يعلو مجد السماء لما احتواه من الأبهة والجلال عن المجد الأرضى الذاهب للزوال.

قال أحد الأفاضل « كل فرح عالمى بالنسبة الى الفرح الالهى إنما هو صعب

الاحتمال ، وكل لذة ألم ، وكل حلاوة مرارة ، وبالجملة كلما يطرب الناس ويهيجهم فى هذه الحياة إنما هو بالمقابلة مع ما وصفناه شدة وثقل لا يحتملان . تلك هى الخيرات الألهية الجوهرية التى ينبغى أن نرتاح اليها ونجس اليها محبتها وهذه هى الغاية التى لأجلها وجدنا . فأجعل نصب عينيك أيها الحبيب أرض الأحياء واسع اليها كعبد أمين وأعرض عن أمور هذه الحياة الفانية وتنج عن الخطية لتكون أهلاً للتمتع بذلك المجد العالمى الذى لا يزول .» .

إننا سنملك فخر مجد لا يوصف حيث نكون جالسين كملوك وعظاء حول عرش الملك العظيم . على كراسى ملكية ومتسربلين بأبهى اللؤلؤ الربانية متوجين بالأكاليل النورانية . متنعمين بأطياب المائدة الروحية وكؤوس أفراس السماء . ومتترنين بنغمات رخيصة شجية . بينا أصوات الجماهير السماوية تهتف قائلة مباركون ومقدسون ومغبوطون ومستحقون يامن نلت هذا الملك العظيم والمجد الرفيع فدموا بالسيادة مغبوتين بهناء خالد . متنعمين بالسعادة الأبدية . حيث تملكون الى أبد الأبدين ودهر الدهرين (رؤ ٢٢ : ٥) .

ابتهج أيها المؤمن الواثق بخلاص نفسك . ابتهج بذلك المجد المعد لك وكيف لا تبتهج وهناك لا تجد شيئاً تكرهه مطلقاً بل لك كل ما تحب وتشتهى . كيف لا وكل ما فى الحياة من ظلمة وآلام سيدفن فى القبر وستغبط وتطوب نفسك حينما تخرج من سجنك الى عرشك .

تأمل طويلاً فى ذلك المجد . تصوره أمامك كل حين . ضعه نصب عينيك فى كل وقت ، وحينئذ تحتقر مجد العالم وتجدده كلاشئ . أكد لنفسك دائماً أن حواسك ستحصل فى السماء على اللذة الحقيقية التى لا تنتهى ، فلن تمل العين من النظر ولا الأذن من السمع ولا اللسان من التغنى والترنم . أطلب من الهك أن تمتلك هذه الخواطر فؤادك وأن يسكن الشوق الى السماء قلبك وناد هكذا « تعالى الى أيتها السعادة الأبدية لأستريح فيك لأنى سعيت الى سعادة العالم فلم أجدها أما أنت فوجوده حقاً . متى يرتفع الحجاب لأطير اليك . متى تأتى الساعة التى أرى فيها حبيبى يسوع وأسجد عند قدميه فيقيمى بيده المباركة ويملكنى تلك السعادة

هنيئاً لكم سكان السماء مجدكم ، هنيئاً لكم سعادتكم وعزكم . نحن على
أنهار بابل نسكى صهيون وأما أنتم فقد جزتم بحر سوف ووقفتم على شاطئه ترنمون
ترنيمات النصره : نعم إن هبة الله ودعوته بلا ندامة فلا بد أن تغلب بقوته ونصل
السماء فترى بالعيان ما صدقناه بالايان .

الفصل الثالثون

تأملات روحية

« قف وتأمل بعجائب الله » (أى ٣٧ : ١٤)

تأملى إذا يانفسى تأملاً عميقاً فى كل الحقائق التى مر ذكرها ، وتأملى أيضاً فى :-

(١) الموت : نعم إن التأمّل فيه مخيف ولكن تشجعى يانفسى وتجربى هذه الكأس المرة بثبات . تصورى فى مخيلتك انك وصلت الى أبواب الموت وأوشكت روحك أن تفارق جسّدك . فكّم يكون هذا الانفصال صعباً عليك . كم يؤلمك فراق هذا الجسد الذى كنت مستعبدة له فى هذه الحياة . كم مرة خالفت الهك ومصدر حياتك لكى تلتذذى هذا الجسد ، والآن حين دنا وقت فراقك له التمسى منه أن يكافئك على خدمتك اياه ! يالشقاوتك . تأمليه بعد فراقك اياه لتجديه قد صار جيفة كربة . أين اللذات التى تلتذ بها والتنعّم الذى تنعمه ؟.

قومى إذا يانفسى من سياتك وأميتى هذا الجسد وادفنى كل حركاته حتى يمكنك أن تحبى فى البروقداسة الحق . وهوذا روح الحق ينادى قائلاً « لانه إن عشم حسب الجسد فستموتون . ولكن إن كنتم بالروح تميّتون أعمال الجسد فستحيون » (رو ٨ : ١٣).

تأملى يانفسى أيضاً فى :

(٢) يوم الدينونة : نعم ستلبس الأرواح هناك أجسادها لتدان على أعمالها هنا خيراً كانت أم شراً ففكرى الآن يانفسى وميزى أفعالك . تأملى جيداً فى

تصرفاتك ، هل إذا ذكرت أمام الديان يكون لك فرح أم حزن . هل إذا ذكرت ينظر اليك الهك برضى أم بغضب . قيل إن ملكاً أرضياً نظر شذراً الى اثنين من أكابر مملكته واطهر الغضب فى وجهه نحوهما لأجل ذنب خفيف ارتكباه . فن شدة الرعب والخوف الذى استحوذ عليها سقط احدهما فى الحال ميتاً وألم بالثانى مرض قتال ولاحق رفيقه بعد أيام قليلة : فإن كانت نظرة غضب من ملك ارضى فعلت هكذا فكم تكون نظرة ملك الملوك . قولى لى أيتها الشقية التى تميلين الى الكبرياء والتنعيم هل تستطيعين الهروب من أمام وجه الديان ؟ إن ذلك مستحيل . وهل تحتملين الوقوف أمام وجه الغضوب . هل يمكنك أن تسمى صوت توبيخه حينما يقول لك لقد طرقت كثيراً أبواب قلبك لكى تدخلينى اليه . ولكنك صميت اذنيك وقسيت قلبك ولم تر يدى أن تدخلينى اليه . وأبلغ من ذلك انك طردتيني وأدخلت الشيطان مكانى . لا أظنك تقوين على استماع صوت هذا التوبيخ . إذا قومى من غفلتك وتيقظى من سباتك واطلبى نعمة الرب لتغلبى بها أعداء خلاصك . وهذا تقفين يوم الدينونة غير خائفة ولا وجلة بل واثقة ومطمئنة لأنك سبقت وانتهزت الفرصة وقدمت التوبة ونلت الخلاص قبل موتك .

تأملى أيضاً يانفسى فى :

(٣) عذاب جهنم . نعم فى عذاب جهنم تأملى . هنا اللذة وهناك العذاب . هنا السرور وهناك الغم : هنا التنعيم وهناك الشقاء ، فقد تعودت هنا النوم على الفراش الحريرية ولكن هناك ستامين على أشواك من اللهب المستعر . مسكينة أنت يا عجة اللذات ، عوض الشعور باللذة يكون الشعور بالوجع الذى لا يطاق . إذا انفضى عنك غبار اللذات وإذا حاول الشيطان إن يصور لك لذة أمام عينيك أو يمثلهما بخاطرك فتصورى أنت عذاب جهنم وآلامها وقولى لأبليس اللعين « اذهب عنى فاللذة التى تغرينى بها وقتية ولكن جزاؤها العذاب الأبدى » .

تأملى أيضاً يانفسى فى :

(٤) السعادة الأبدية . ياله من نهار دائم لا ليل له . أى شئ ذلك الذى قال عنه

الرسول « ما لم تره عين » هل يمكن أن تدركى أى شئ هو يانفسى « هو الله نفسه » هو وحده الذى سيكون نصيبك وحظك ، فهل بعد تمتعك به تقولين انى احتاج الى شئ ما . إن قلبك لا يعرف الشئ هنا . ذلك لأنه لا يشبع قلبك إلا الله وحده . لذلك يقول الكتاب عن فرح السماء انه أبدى لأن الله ينبوع الفرح الأبدى . من يستطيع أن يكشف لك يانفسى عن قليل من مجد السماء وسرورها . كفاك أن تعرفى أن هناك يستقر القلب فى مركزه الحقيقى الأبدى وحينئذ يصرخ قائلاً « نعم . نعم . هذه هى السعادة التى كنت اشتتها » .

فهل لا يستحق مجد السماء وسعادتها يانفسى بعد ذلك ان تحترق العالم لأجله ؟ هل يمكن للعالم مهما تلاً أن يعتبر بقيمة لحظة قصيرة فى ملكوت السموات . قولى للعالم إذا اذهب عنى أيها العالم . لتغب عنى كل أجدادك فانى لا أحزن على فراقها . انى أتوقع عند سيدى يسوع مجداً حقيقياً أبدياً . انى أريد أن أخسر كل شئ لأربح المسيح » .

تأملى أيضاً يانفسى فى :

(٥) قدرة يسوع على خلاصك . لملك حينما تتطلع الى مجد السماء تقنطين من الحصول عليه لما تشعرين به من الضعف فيك بطبيعتنا حقاً فاسدة ولهذا ليس مما يبهج جسدنا أن نعيش لله . ليس من يدعى أنه بطبيعته وقوته يستطيع أن يخطو خطوة واحدة فى سبيل التقوى فطريق السماء وعرة على الانسان البشرى . ولكن الله أمرنا أن نجاهد وتعهده أن يساعدنا فى جهادنا فتحن إذا سعينا بقوتنا لا نصيب إلا الفشل والسقوط ، ولكن إذا سعينا متكليين على مساعدة نعمة الله كتب لنا الفوز والنصرة ..

بينهم أنفسهم المشتاقة الى مجد السماء ارفعى نظرك الى فوق حيث المسيح جالس : تطلعى اليه لتجدى صورة الصليب مرسومة فى عرشه . اسمعى صوت الروح الالهى ينادى قائلاً بأن الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلكم أجمعين كيف لا يهبكم أيضاً معه كل شئ (روم ٨ : ٣٢) .

« فإن كان أمراً محققاً اننا لا نستطيع أن نخلص أنفسنا فالأمر الأكثر تحقياً أن يسوع يقدر أن ينيلنا هذا الخلاص فعلينا أن نسعى ناظرين اليه كرئيس ايماننا وقائد جيشنا . فحينئذ يحول ضعفنا الى قوة ، وفقرنا الى غنى . وحينئذ نصرخ مع الرسول بولس قائلين : نستطيع كل شئ فى المسيح الذى يقوينا (فى ٤ : ١٣)

الخاتمة

طريق السماء

« هذا الباب للرب . الصديقون يدخلون فيه » (مز ١١٨ : ٢٠)

ذكرنا وصفاً موجزاً للأجماد السماوية بل أن ما قد ذكرناه عنها ليس إلا كنقطة من بحر عجاج لأنه ليس لنا ولا لغيرنا القدرة أو الاستطاعة على ايفاء وصف تلك الأجماد حقه ولا يمكن أن يتاح ذلك لنا أو لأحد من البشر حتى نحظى بها ونشاهدها بعيوننا ونتمتع بها . عند ذلك نراه فوق ما كنا نظن أو نقدر .

والواجب علينا إذا بصفة كوننا مسافرين الى تلك الديار الأبدية أن نسير في الطريق الذي يؤدي الى الأجماد المذكورة . يوجد في العالم طريقان كما قال الرب « هأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت » (ار ٢١ : ٨) فطريق الحياة يؤدي الى الحياة والخلود كما قال « المقوم طريقه أريه خلاص الله » (مز ٥٠ : ٢٣) وطريق الموت يؤدي الى الجحيم حيث اللهب والدود وهو الذي قال عنه الحكيم « يا بني لا تسلك في الطريق معهم امتنع رجلك عن فسالكهم » (ام ١ : ١٥) وقد ترك الله للإنسان الحرية في أن يختار لنفسه أى الطريق يقين لكي يكون بلا عذر (رو ٢ : ١) .

أما طريق المجد السماوي فهو السيد المسيح لأنه الطريق والحق والحياة (يو ١٤ : ٦) فعلى الذى يرغب الوصول الى المجد أن يترك السير وراء العالم وبيتع المسيح مقتنياً آثاره . وسالكاً سبله . ولا يهتم بمجد العالم ولا يعبأ بزخارفه القانية .

لستقدم الى يسوع الذى مات لأجلنا ليحيينا ، وليقل كل منا « اختبرنى يا الله واعرف قلبى . امتحنى واعرف أفكارى . وانظر إن كان فى طريق باطل واهدنى طريقاً أبدياً » (مز ١٣٩ : ٢٣ و ٢٤).

إن كنت ترغب الصعود الى المجد السماوى فهذا هو الطريق اتبعه حتى تأتى الى عليية صهيون ، ومن هناك ترتفع الى أعلى السموات فلا طريق للساء غير هذا الطريق . لا يضللك عدو الخير ولا تتخضع وتسير وراهه . قد يظهر لك طريقه بمظهر حسن ويجذبك للسير فيها وراهه ، ولكن تأكد أنها توصلك الى هاوية العذاب . فى بدايتها سرور وانسراح ولكن خاتمها أحزان وأتراح كما قال الحكيم « توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت » (ام ١٤ : ١٢) . تبصر . لا تتقدم فيها خطوة واحدة احذر لأن الخطر أمامك . وها الحكيم ينصحك قائلاً « لا تدخل فى سبيل الأشرار ولا تسرفى طريق الأثمة . تنكب عنه . لا تمر به . حد عند واعبر » (ام ٤ : ١٤ و ١٥).

كان الرومان قديماً إذا ما أرادوا أن ينهبوا عن خطر عظيم يضر بون الجرس خمس مرات . فإذا تأخر أحد قدمه يكون على رأسه . وهكذا يضرب الله لك الجرس الالهى ليحذرك من خطر الخطية قائلاً لك « لا تسرفى طريق الأثمة » . اسمعه يناديك بما نادى به الملاكان لوط و يقول لك « اهرب لحياتك » (تك ١٩ : ١٧) فحاذر أن يميل قلبك الى الورا . احترس ولا تنظر الى سادوم لئلا تصير عامود ملح كامرأة لوط » (لو ١٧ : ٣٢) احترس ان تنظر الى الورا لئلا تهلك « لتتنظر عينك الى قدمك وأجفانك الى أمامك مستقيماً . مهد سبيل رجلك فتثبت كل طرفك لا تمل يمنة ولا يسرة . باعد رجلك عن الشر » (أم ٤ : ٢٥ - ٢٧) عليك أن تترك كل شئ وتتبع مخلصك يسوع . أنكر ذاتك واحمل صليبك واسع نحو المجد فى هذا الطريق فتفوز بالحياة الأبدية . وقل مع النبى « تمسكت خطواتى بأثارك فازلت قدماى » (مز ١٧ : ٥).

قال الرسول « افعل شيئاً واحداً إذ أنا أنسى ما هو وراء وامند الى ما هو قدام » (فى ٣ : ١٣) فالسعى الى نوال الأجماد السماوية إنما هو جهاد متواصل وسير الى

الأمام متتابع فى طريق البر وسبل التقوى بدون التفات الى الوراء . وما أشبهه
بجرى العربات خلف القطار على قضيب السكة الحديدية التى إن مالت قليلاً الى
أحد الجانبين انقلبت وانكسرت ولا يمكنها أن تواصل سيرها لأننا إذا كنا أثناء
سعيها وراء المسيح نميل بقلوبنا الى شئ من خيرات هذا العالم فاننا نتعطل عن السير
وتأخر عن الذين يتسابقون معنا . وما أخرجنى اسرائيل فى البرية إلا ميلهم لأرض
مصر واشتياقهم اليها ورغبتهم فى أكل « الكرات والبصل والثوم » قال الرب
« عيناي على أسماء الأرض ... السالك طريقاً كاملاً هو يخدمنى »
(مز ١٠١ : ٦).

علينا أثناء سعيها هذا إن لا نعيد يمينه ولا يسرة . لا ننظر للأموال ولا نشغل
بالمناصب ولا نتعلق بالأبجاء الدنيوية ولا نندفع وراء الشهوات العالمية . لا يستوى
فؤادك مجد العالم الغرار حتى يجعلك تتفكر بالاثم على مضجعك وتقف فى طريق غير
صالح ولا ترفض الشر (مز ٣٦ : ٤).

حاذروا حتى تكونوا على الدوام متطلعين نحو المجد الأبدى والجعالة السموية .
جاء فى أساطير الأقدمين انه كان يوجد جبل مرصود وضع على قمته كزئمين ،
وجعل هذا الكز جزء لمن يتسلق الجبل و يصل الى قمته بدون أن ينظر الى الوراء .
والوصيمة والوعيد لكل شاب يتسلق هذا الجبل هما « لا تنظر الى ما وراءك لئلا
تصير حجراً » وقد حاول كثير من الشبان أن يصلوا الى ذلك الكز فلم يقدروا وصار
كل منهم حجراً . لأن الطريق الى رأس الجبل كانت تتفرع منها طرق أخرى الى
رياض جميلة تكسو جوانب ذلك الجبل وكانت فى تلك الرياض طيور تغرد كما
كانت تسمع منها أصوات موسيقية تأخذ بجوامع النفس فتغرى المارين لكى يقفوا
ويستريحوا قليلاً فينسبون الوصية و يصيرون أحجاراً حتى اكتظت فى وقت قصير
جوانب الجبل بالشبان الذين تحولوا الى حجارة لأنهم لم يحفظوا الوصية .

هذه القصة وإن كانت خرافية إلا أنها تمثل لنا الجهاد والسعى نحو الجعالة
السموية . فالله يوصينا قائلاً : لا تنظروا الى ما وراءكم . اهربوا لحياتكم .
لا تلتفتوا يمينا أو شمالاً . لا تنظروا الى ملذات العالم الجسدية والأغاني العالمية

والشهوات الشبابية التي تحارب النفس . على المجاهد أن يثبت نظره في الإكليل ولا يتحول عنه ويصبر الى النهاية ، ولكن ابليس يأتي في وسط طريق الجهاد ويفرس حديقة الخطيئة ويجعل فيها كل ما هو من شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة ، ويطرق عديدة متنوعة اختبرها فوجدتها محبوبة للبشر ، يغريهم ويخدعهم حتى يلتفتوا اليه فيقتنصهم لارادته ، فهو كالرجل الظالم يغوى صاحبه و يسوقه الى طريق غير صالح (ام ١٦ : ٢٩) .

وجاء أيضا في تاريخ اليونان « انه كانت هناك في قديم الزمان ابنة مشهورة بسرعة العدو (الجرى) وكانت تحرز في ذلك دائما قصب السبق وأصرت على أن لا تقشرن إلا بمن يسبقها في العدو فجاء شاب محتمل وأعلن أنه يستطيع أن يسبقها وتحدد ميعاد للمباراة بينها . فذهب الى الميدان قبل الميعاد المحدد ومعه ثلاثة تفاحات ذهبية جميلة المنظر وبطريقة خفية ألقى باحداها في الطريق المقررة للسباق . ولما حان موعد السباق وبدأ الجرى معاً أخذت تسبقه حتى وصلت الى حيث التفاحة فاستلقت نظرها شكل تلك التفاحة فانحنت وأخذتها من الأرض وفي هذه الأثناء كان مناظرها قد سبقها فأجهدت نفسها في العدو وما كادت تلحق به حتى ألقى اليها التفاحة الثانية فالت اليها وأخذتها فسبقها الشاب بمسافة كبيرة فجاهدت لتلحق به وما كادت تسبقه حتى ألقى اليها التفاحة الثالثة فوفقت عن الجرى ومدت يدها وتناولتها فسبقها الشاب . وبهذه الحيلة تمكن من الوصول قبلها الى نهاية المسافة ففاز عليها ونال إكليل السبق .

هكذا يوجد من هو أكثر حيلة من ذلك الشاب ، وهو ابليس عدونا الذي يسعى ليلهيينا ويؤخرنا عن سعينا وراء المسيح فيطرح أمامنا تفاحاً من محبة العالم وغروره وشهواته وأمواله ومقننياته . وهذه الوسطة يعطل الكثيرين عن الجهاد كما عطل عازقان وجيحرى وديماس وسيمون وغيرهم من الذين خسروا أكاليلهم وجعلالاتهم .

أما الذين لم يتبعوا المسيح للآن ولم يذوقوا لذة السير في طريقه الموصل الى السماء فيجب عليهم أن يسرعوا بالحنى اليه حالاً تائبين ملتزمين منه الخلاص لكي يحنموا به قبل أن يتخذ صورة غضب .

لنتقدم اليه وهو حمل وديع قبل أن يتحول الى أسد مفترس . يجب أن نسرع الى التوبة ونسعى في الحصول عليها حالاً إذ لا عذر لنا بعد أن عرفنا وتأكدنا شدة وصعوبة عذاب غير التائبين . لنشفق على أنفسنا بقدر ما أشفق ابن الله علينا وقدم نفسه للموت من أجل خلاصنا ، انه يدعونا اليه و يسر هو وملائكته بتوبتنا (لو ١٥ : ١-٧) لنشفق على نفوسنا ولنسرع بالرجوع اليه تائبين توبة نقية خالصة . لنرحم ذواتنا ونهرب من الغضب الآتى ولا نتهاون بنفوسنا كما يفعل أولئك الذين بينا هم ملوثون بالخطايا ويريدون البقاء فيها وفي دنسها يمدعون نفوسهم قائلين « إن الله رحوم » نعم انه رحوم ولكن رحمته فى التوبة (اش ٥٥ : ٧) أو يقولون « إن دم المسيح يطهر من كل خطية » نعم انه يطهر ولكن مع التوبة (ام ٢٨ : ١٣ ، ١٠ : ١٧ ، ٧ : ١٠) .

قال أحد الأفاضل يوجد نبع مفتوح للتطهير من الخطية (زك ١٣ : ١) لكن بشرط الاقبال الى الله بتوبة نقية . أما إذا لم تقبلوا هذا الشرط وعشتم فى شروركم وشهواتكم فباطلاً تنتظرون تطهيراً لأن دم يسوع لا يمتزج مع الدنس « أية خلطة البر مع الأثم » لاحظوا أن دم يسوع الكريم لا يتدنس مع الخطايا مطلقاً . قد تجد واحداً يدنس نفسه . بالكبرياء وبالغضة وآخر بالحقد ، وآخر بالطمع ، وآخر بالغش ، وآخر بالبخل . وأخرى تدنس نفسها بالعجب بملابسها أو حليها أو تفنخر بعظيم نسبها ، وأخرى بالخصام ، وأخرى بالنميمة والمذمة وأخرى بالكذب . فهل بعد ذلك تقولون « أن دم المسيح يطهرنا من كل خطية » لننزع عن نفوسنا أولاً الخطايا والشورور ونبتعد عن الأثم والدنس ونتقدم الى المسيح تائبين نادمين فحينئذ يطهرنا بدمه الذكى الكريم .

أما إذا لم نتقدم بالتوبة فلا طهارة لنا بل يمكث غضب الله علينا فليت الخاطئ يتوب آسفاً والأثم يرجع نادماً لكي ينال غفران الخطايا قبل فوات فرصة النجاة وحتى لا يقع تحت الدينونة حيث لا ينفع وقتئذ ندم .

لقد ندم الكثيرون ولكن بعد فوات الفرصة كقايين وعيسو وعاخان وشاول وأمون وأبسالوم وهيرودس فلم ينفعهم الندم . فانهضوا اذن من غفلتكم واستفيقوا

من سكركم واهجروا الخطية لكي لا تبتلعكم وأميتوا حركاتها لكي لا تلقىكم
أحياء في عذاب قصاصها . تجنبوا حب المال لئلا تشتعل فيكم نيرانه الآكلة ،
اهربوا من الطمع لئلا يفترسكم بأنبيائه . امتنعوا عن الشهوات لئلا تلدغكم
بسموسها . اطرحوا عنكم حمل الشرور لئلا تهبط بكم الى قرار البحيرة المتقدة بنار
وكبريت .

لما قضى على قايين باللعنة استجار بالرب وقال إن « ذنبي أعظم من أن
يحتسب » (تك ٤ : ١٣) فإذا كان قايين لم يحتسب ذنباً واحداً فما بال الواقعين في
جهنم تحت نير ذنوب لا تعد وخطايا لا تحصى .

أنشدكم يا قوم بحق من فداكم وهو واقف أمامكم ماداً اليكم يديه يدعوكم أن
تقبلوا اليه بالتوبة لتنالوا غفران الخطايا قائلاً لكم « التفتوا لنداء قلبي المحب الذي
ذاب على الصليب كذوبان الشمع لأجلكم : انظروا الى حالتكم وقدروا قيمة
نفوسكم الثمينة . اسرعوا بالتوبة قبلما ينتهي الأجل و يأتي يوم الدينونة . تعالوا اليه
قبلما يغلق الباب فتضرعون لكي يفتح لكم فلا تجابوا . تقدموا واطرحوا ذواتكم بين
يديه اللتين تمزقتا بدق المسامير . تضرعوا أمام القلب الذي احترق والجذب الذي
طعن ، والأحشاء التي تمزقت ، والروح التي ذابت بسيف العدل الالهى
المتقلب ..

لنطلب الرحمة الالهية بتوبة صادقة نقية لكي يطهرنا المسيح بدمه الكريم و يقبلنا
في ملكوته العظيم .

له المجد مع أبيه الصالح وروحه القدس من الآن والى الأبد أمين .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع	
٥	كلمه عن المؤلف	
١٢	دعاء	
١٣	فى الحياه الفانيه والحياه الباقيه	الفصل الاول :
١٩	فى أن هذه الحياه ليست نصيباً لنا	الفصل الثانى :
٢٣	فى أننا غرباء على هذه الارض	الفصل الثالث :
٢٨	فى حقيقه الموت	الفصل الرابع :
٣٦	فى خداع الدنيا وغرور الحياه	الفصل الخامس :
٤٧	فى ان ظاهر الدنيا خلاف باطنها	الفصل السادس :
٥٤	فى انه لا سعادة فى العالم	الفصل السابع :
٦٢	فى سرعة زوال هذه الحياه	الفصل الثامن :
٦٩	فى فناء المجد العالمى وبطلانه	الفصل التاسع :
٧٦	فى سرعة اضمحلال إجماد العالم	الفصل العاشر :
٨٢	فى ضرورة الاستعداد للموت	الفصل الحادى عشر :
٩٠	فى عبر الموت	الفصل الثانى عشر :
٩٧	فى عبرة زياره المدافن	الفصل الثالث عشر :
١٠٧	فى عبرة الأبدية	الفصل الرابع عشر :
١١٣	فى انتقال الصالح	الفصل الخامس عشر :
١٢٣	فى موت الأثيم	الفصل السادس عشر :
١٣٠	فى أن توبه الخاطيء عند الموت لا تقبل غالباً	الفصل السابع عشر :
١٤٠	فى أن يوم الموت يأتى بغته	الفصل الثامن عشر :
١٤٦	فى وجوب اغتنام الفرصه	الفصل التاسع عشر :
١٥٤	فى قيامه الأموات	الفصل العشرون :
١٦٣	فى يوم مجيء الرب العظيم الثانى	الفصل الحادى والعشرون :
١٧٠	فى الدينونه العامه	الفصل الثانى والعشرون :
١٨٨	فى افتضاح المنافقين	الفصل الثالث والعشرون :
١٩٧	فى صعبه الانفصال الأبدى	الفصل الرابع والعشرون :

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٢٠٥	الفصل الخامس والعشرون : فى النهاية المريعة
٢١٥	الفصل السادس والعشرون : فى انه لا رحمة بعد الحكم
٢٢٨	الفصل السابع والعشرون : فى صعوبة العذاب الأبدى
٢٣٦	الفصل الثامن والعشرون : فى الأبدية الخيفة
٢٤٤	الفصل التاسع والعشرون : فى سعادة الابرار ومجد القديسين
٢٥٤	الفصل الثلاثون : تأملات روحية
٢٥٧	الخاتمة : طريق السماء

٨٣ / ٣١٤٤

٨ - ٢٣ - ١٨٧ - ٩٧٧

٢٥
جموعة مؤلفات "القس منسى يوحنا":

- طريق السماء
- يسوع المصلوب
- شمس البر
- النور الباهر في الدليل إلى الكتاب الطاهر
- فتارورة طيب كثير الثمن
- كمال البرهان على حقيقة الايمان
- حل مشاكل الكتاب المقدس
- حياة آدم
- تاريخ الكنيسة القبطية



٢٠ ش كامل صد في بالفجالة

٩٠٣٨٩٥ - ٩٢٩٢٩٤ ت

صور ودروس التربية الكنسية والتربية ال
كتب كنسية ودينية • جوائز مد
صور دينية • أيقونات قبطية • أدو
كاسيت ألحان وتراجم وهداسات
مناظر طبيعية • هدايا وبرائيز • مس